الفرعونية والفرعون

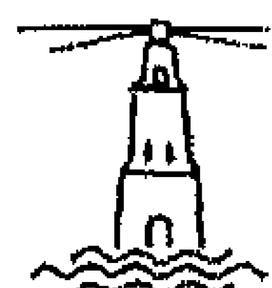
د. محمد أبو الفتوح غنيم



دار المعارف

الفرعونية والفرعون

تأليف الدكتور
محمد أبو الفتوح محمود غنيم



دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

غنيم ، محمد ابو الفتوح محمود .
الفرعونية والفرعون
تاليف / محمد ابو الفتوح محمود غنيم .
- ط ١- القاهرة: دار المعارف ، ٢٠١٠ .

١٧٢ ص+ ١٦ ملحقات ، ٢٤ سم

تدمك : ٩-١-٧٤٠١-٧-٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .

١- قصص القران.
٢- القصص الدينية
ا- العنوان.

ديوى ٢٢٩,٥

رقم الإيداع ٢٠١٠/٣٦٣٧ ١/٢٠٠٩/٣٤

تصميم الغلاف
محمد عطية

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مقدمـــة

إن ما يدرج على ألســنة العوام وما تحفظه الذاكرة من أمثال تشتمل على معنى «فرعون» تنـم عن حس دينى أو سياســى عال إذا ما أدركنا مدلــول هذه الأمثلة وما يراد منها. ومن قبيل ذلك ما صار مثلاً أو قولاً دارجاً من أن «من تحســبه موســى تجده فرعون» فى دلالة عــن حس إيمانى للتمييز بين الثنائية المعهودة الحق والباطل، ودلالة عما يمكن أن يحدثه الانخداع فى الآخر من صدمة.

وعلــى غرار هذا الحس الإيمانى نجد الحس السياســى واضحاً فيمــا يتناقله العوام عن الســبب فيمــا وصل إليه الفرعون من جــبروت وطغيان أو ما يمكــن أن نطلق عليه مجازاً «الفرعنــة» أنه لم يجد من يقف فى وجه طغيانه ويقاومه، ومن يعيده إلى صوابه أو يضرب على يديه. ومع تسليمنا بهذا الحس الإيمانى أو السياسى الظاهر إلا أن البعض قد يقع فى شرك التعميم بإطلاقهم مسمى «الفراعنة» أو «الفرعونية» على عمومه دون إدراك ماهية هذا اللفظ أو هذا اللقب وحدوده.

مــن هنــا وجب تصحيح هــذا المفهوم وإزالة اللبــس المصاحب له فى أذهــان الكثيرين فــى محاولة متواضعة لبلورة «الفرعنة» أو «الفرعونيــة» وقولبتها فى قالب يمكن تحديدها والتعرف إليها من خلاله، ومن خلاله فقط دون أحكام جزافية ودون تعميم غير مبنى على الدقة والحيدة، معتمدين فى ذلك على ما أوردته نصوص العهد القديم من إشارة إلى فرعون ومــا كان منه تجاه بنى إســرائيل، ثم وبصورة أكبر على مــا أورده القرآن الكريم من جملة الصفات التى وصف بها فرعون، وكشــف عنها فى ســياق تناوله لما دار بينه وبين موسى عليه السلام وما ساقه من إشارات عنه وعن غيره من إسراف فى الكفر وتجاوز فى الطغيان، لنخــرج من هذا التناول إلى جملة مــن الصفات تبلور وتؤطِّر لما يمكن أن نطلق عليه بــالفكر الفرعونــى أو العقيدة الفرعونية. وتلك التى يمكن تحديدها وتعريفها بأنها ذلك الخليط من الصفات المذمومة التى تجمعت معاً فى شخصية واحدة كانت رمزاً لها ووقفاً عليها. ونعنى بهذه الشخصية فرعون موسى ذلك الفرعون الذى لم يذكر العهد القديم اسمه، كما لم يسمه القــرآن. وربما يرجع ذلك إلى ما يتصــف به المنهج القرآنى عند تناوله للقصص من التأكيد

علـى جانب العبرة والعظة بأن تتحول الحادثة التاريخية إلى مادة للاتعاظ والاستشـهاد، وكون القصة تأتى فى سـياق الغرض الدينـى فالقرآن كتاب دعوة دينية لا كتاب للتاريخ، والقصة إحدى وسائله لتبليغ هذه الدعوة.

ولم يكـن لفـظ فرعون يدل على جنس أو على طغيان الحكم، كما قد يفهم خطأ أحياناً. وإنَّ وصـف القرآن الكريم والتوراة للفرعون الذى عاصر موسـى بالتجـبر والطغيان وادعاء الربوبية - مع وجوب التسليم به - ليس من المفترض تعميم صفاته هذه على كل الفراعنة. كما لا يمكن تعميم هذه التسـمية على المصريين القدمـاء جميعهم. وإنما يمكن أن نطلق لفظ فرعون على كل حاكم يتصف بمثل ما اتصف به هذا الفرعون من صفات والتى صارت علماً عليه وصار بها موسوما.

وجملة هذه الصفات والتى أشار إليها القرآن فى بيان واضح صريح هى صفات تكاد تكون متشـابكة ومتداخلة لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى. تبرز منها صفات الاستعلاء والتعالى والكبر والتكبر والطغيان والإسـراف والضلال والتضليل والإجرام والإفساد والكذب والجهل وغيرها، والتى قد شـاركه فيها أو فى بعض منها حاشيته ومَلَؤُه أو بعض قومه ليدخلوا فى إهـاب «الفرعونيـة» أو «الفكر الفرعونى». غير أنه تفرد بأكثر هـذه الصفات تجاوزاً وجوراً ونعنى بها ادعاءه الألوهية والربوبية فيقول «ما علمت لكم من إله غيرى» و «أنا ربكم الأعلى» ليضع نهاية لذلك الإسراف والطغيان والمروق وليأخذه الله الأخذة الرابية نكال الآخرة والأولى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سـورة هـود - الآية ١٠٢].

وفـى إطار تناولنا لهذه الفرعونية والكشـف عن هويتها ومحاولـة تحديدها، نتناول تلك التربة التى نمت فيها مثل هذه العقيدة أو هذا الفكر ومكّنت له من أن ينشـأ ويترعرع ليصل إلى هذا الحد من الإسراف والتجاوز. كما سنحاول تناول الفروض التى تتناول وتحاول تحديد كنه هذا الذى أصّل لهذه الفرعونية واتصف بها ونعنى به ذلك الفرعون الذى عاصر موسـى عليه السلام وأشار إلى صفاته القرآن الكريم والعهد القديم.

ويصحب هذا التناول محاولة البحث عما سـكت عنه القرآن فيما أورده العهد القديم دون التعويل الكامل على كل ما أورده من نصوص لما يمكن أن يكون قد أصاب بعضها من تحريف أو جنوح. ثم البحث عن براهين مادية ملموسة فيما خلفه لنا التاريخ من آثار يمكن الاستدلال منها على كثير من الحقائق والأدلة التى تدعم أو تنفى ما قد تصل إليه الدراسة النظرية.

وبنـــاء على ما ســبق من عرض فإن هذا الكتــاب يتناول مكانة الملك فــى مصر القديمة وقدســيتها، وكيف نسب نفســه إلى الآلهة فصار ابناً لها، وكيف أُلِّه بعد موته، والبحث فى كنه لقب «فرعون» ومدلوله وأصله، و «الفرعونية» وما تتصف به من صفات اســتحقت بها اللعنة والذم، ثم نعرج إلى دراسة لبعض الآراء والفروض التى حاولت تحديد هوية ذلك الفرعون الذى تنســب إليه هذه الفرعونية الملعونة. متمنياً أن أكون قد أوردت شيئاً للقارئ يمكن أن يصل منه إلى معرفة حقيقة ما، والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل.

د. محمد أبو الفتوح محمود غنيم

الفصل الأول

الملك الإله

تفتقر معرفتنا للتنظيمات السياسـية التى كانت سائدة فى مصر فى عصر ما قبل التاريخ والفـترة المبكـرة من عصر ما قبل الأسـرات إلى التأكيد. وإن كان مـن المعتقد أنه قد قامت وحدات ضمت العديد من التجمعات والقرى كان لكل منها زعيمه الذى له السـلطة عليها ويفصـل بـين أفرادها. تبع ذلـك أن تكونت مجموعة من الأقاليم فـى الدلتا والصعيد كل لـه اسمـه وعاصمته ومعبـوده أو رمزه. وأخـيراً كان أن تجمعت هذه أقاليـم أو مقاطعات الدلتا فى مملكة واحدة لها ملك يلبس تاجاً أحمر وعاصمتها «بوتو»(١) ومعبودها الرئيسـى «حورس»(٢)، وكذلك تجمعت أقاليم ومقاطعات الصعيد فى مملكة واحدة كان على رأسـها ملك يلبس تاجاً أبيض وعاصمتها «نخب»(٣)، ومعبودها الرئيسى «ست». وإن عُبد «حورس» فى كلتا المملكتين، ولهذا كان ملوك هاتين المملكتين يلقبون بـ «خدام حورس». هؤلاء الملوك الذيـن صبغهم المصريون بصبغة دينية إذ اعتقدوا أن أرواحهم بعد الموت تكون واسـطة بين الناس والآلهة. وبمرور الزمن اعتبر هؤلاء الملوك أشباه آلهة، ومن هنا يمكن أن نتصور مدى ما كان لملوك هاتين المملكتين من نفوذ وسلطان.

ثـم جرت محاولات أولية لتوحيد المملكتين وكان ذلك حوالى ٣٤٠٠ ق.م حيث نجحت مملكة الشمال فى القضاء على استقلال مملكة الجنوب وتحققت أول وحدة فى تاريخ مصر. غـير أنـه لم يقدر لهذه الوحدة أن تعيش طويلا، فكانت الوحدة الثانية على يد أحد ملوك الجنوب ويسمى «مينا» وهو الاسم الذى يحتمل أن يكون تحريفاً لاسم «نارمر» الذى يظهر على لوحة التوحيد (صورة ١) لابسـاً التاج المزدوج وكان ذلك حوالى ٣١٠٠ ق.م. ثم قامت الأسـرة الأولى وتلتها الأسرة الثانية فى الفترة التاريخية فيما بين ٣١٠٠ – ٢٦٨٦ ق.م على وجه التقريب. وكان الملك يلقب منذ الأسرة الأولى بلقب «حور» بمجرد اعتلائه العرش أى إنه صورة حية من هذا الإله تعيش على الأرض.

---

(١) حاليا إبطو، إحدى قرى مركز دسوق.

(٢) ابن ايزيس ووارث أبيه أوزوريس، والمنتقم له من أخيه «ست» كما تقول أسطورة إيزيس وأوزوريس.

(٣) حالياً عزبة الكاب بمركز إدفو.

ولقد كان رأس الدولة وله الرئاسة العليا فى شئون التشريع والحكم والإدارة والجيش والدين. وعادة ما تنسب سلطاته العليا هذه إلى قصره الذى كان يشرف منه على رعاياه ولذلك عرف المصريون القدماء قصره باسم «برعو» أى البيت العالى.

وكان لقصر الفرعون بابان عظيمان يمثلان الملكية المزدوجة - الصعيد والدلتا، وكانت الملكية مطلقة وأساسها قدسية الملك. كما كان الملك يُلقب بأنه «حورس الحى»، وهو ليس إلهاً مثل حورس ولكنه صورة له، وهذا يعنى وجوب الخضوع التام له، فالملك بذلك هو صورة حية للإله تعيش على الأرض، والإله هو الذى يتحدث من فمه. ولقد صورت النصوص القديمة سلطاته المطلقة بما يزيد كثيراً عما عبر به بعد آلاف السنين ملك فرنسا لويس الرابع عشر فى عهد الملكية المقدسة بمثل قوله «أنا الدولة والدولة أنا».

ثم جاءت الأسرة الثالثة (٢٦٨٦ - ٢٦١٣ ق.م تقريباً) التى كانت بداية فترة الازدهار الحضارى أو فترة الدولة القديمة أو عصر بناة الأهرام. وكان «زوسر» هو الملك الذى شهد عصره حدوث طفرة كبيرة فى فن البناء، وكان وزيره أحد أبناء الشعب «ايمحتب» (صورة ٢) مضرب الأمثال فى الحكمة وبارعاً فى الهندسة فوضع تصميم الهرم المدرج وبناه فى سقارة، والذى يعد أول بناء حجرى كبير عرفه التاريخ، وذاع صيت «ايمحتب» فى الطب كذلك، وأصبح أعظم أطباء عصره وعين فى وظيفة رئيس الكهنة ومهمته خدمة الآلهة فى المعبد وتلاوة الصلوات نيابة عن الملك. وهذا الوزير الحكيم - الذى نال شهرة كبيرة لكونه منشىء فن المعمار الحجرى بدلاً من مبانى العصور القديمة المكونة من الآجر والخشب - قد اعتبره المصريون فى العصور المتأخرة راعياً للمثقفين. فكان الكُتَّاب يحرصون على أن يسكبوا قطرات من الماء تبركاً به كلما هموا بكتابة أمر خطير. كما اعتبروه ابناً للإله «بتاح» رب الفنون والصناعة. ونسبت إليه قدرات خارقة فى الطب حتى شبهه الإغريق بإله الطب عندهم «اسكليبيوس».

ويذهب البعض إلى القول بأنه عُبد فى العصر المتأخر كإله للشفاء وسمى معبده فى سقارة بالاسم الذى أطلقه عليه الإغريق «اسكلبيون Asklepieion وصار مصحة يؤمها المقعدون من جميع أنحاء مصر. وقد ظلت شهرته منتشرة وكرست له عدة أبنية فى كثير من المعابد بمنطقة طيبة (فى الكرنك والدير البحرى ودير المدينة) وجزيرة فيله حيث بنى له «بطليموس الخامس» معبداً. وكان ايمحتب بذلك وحتى ذلك الوقت حالة فريدة لفرد من أفراد الشعب أن يصل إلى هذه المكانة سواء فى عهده أم بعد مماته ويرجع ذلك إلى عبقريته الفذة ومواهبه المتعددة.

وتظـل للملـوك مكانتهم التـى لا يرقى إليها أى فـرد، وتزداد قداسـتهم حتى نهاية الأسـرة الرابعة (٢٦١٣ - ٢٤٩٨ ق.م تقريباً) والتى شـهدت تنظيماً عالياً فى كل نواحى الحيـاة يتضح من ألقاب موظفى الملك أن هناك تقسـيما للعمـل، فهناك وظائف كهنوتيه ووظائف مدنية ووظائف قضائية ووظائف عسـكرية ووظائف مالية. وكفاءة التنظيم الإدارى فى ذلك الوقت تدل عليه كفاءة قيادات عشرات الألوف من العمال والرؤساء الذين اشتركوا فى بناء الأهرامات.

وكانـت مصر تدار من القصر الملكى فى منف حيث الملك رأس هذه الإدارة. ولقد أضيف إلى ألقاب الملك المتعددة خلال هذه الأسـرة لقب «سـا رع» أى ابن إله الشمس «رع». وصار ابنا لكل إله فى كل منطقة ومتحد مع هذا الإله. ولنا أن نشير إلى أن الملك كان يتخذ ألقابا تدل على علاقاته المختلفة بالآلهة.

والألقاب الكاملة للملك خمسة ألقاب يتبع كل منها اسم أو كنيه يوضح حق الملك الإلهى فـى حكـم جزأى مصر كبلد واحـد. وكانت هذه الألقاب لا تتجاوز الثلاثة فى الأسـرتين الأولى والثانيـة، وسـجلتها الآثار كاملة منذ الدولة الوسـطى، وإن رأى البعض أن ذكرها كاملاً يرجع إلى أواخر عهد الأسرة الرابعة (من ٢٦١٣ - ١٤٩٨ ق.م تقريباً)، وقد حفظتها التقاليد حتى عصر البطالمة والرومان.

وليس من بين هذه الألقاب السـابقة لقب «فرعون». ذلك أنه جاء فى عصور متأخرة عن ذلك، وقد اشـتق من الاصطلاح المصرى القديم «برعو» أى البيت الكبير. وكان فى البداية يقصـد به القصر الملكى أو الإدارة الحكومية، على أنه اسـتعمل منذ بداية الدولة الحديثة - خلال عهد الملك تحتمس الثالث - للدلالة على الحاكم نفسه. وقد انتقلت كلمة فرعون إلى الكتابات العبرانية ومنها إلى مفردات اللغة العربية.

وابتداء من عهد الملك سـنفرو أول ملوك الأسـرة الرابعة الذى لقب بـ «نب ماعت» أى رب العدالـة بجانب لقب آخر وهو «الملك الفاضل» وضع اسـم الملـك فى خرطوش لتميزه عن بقية أفراد الشـعب أو للدلالة على مكانته. وقد يرمز الخرطوش والذى يمثل فى صورة انشـوطة حبل بقاعدتها عقدة إلى ما ترسـب فى عقيدة المصريين من أن الكون هو ما تحيط به الشـمس، أو أنه يرمز إلى أن اسـم الملك الذى بداخله محيط بكل شىء يدور فى مملكته أو أن الدنيا ملكاً للملك.

ومـن المرجـح أن الكهنة قد بدأوا يشـعرون بعدم الرضا إذ إن فراعنة هاتين الأسـرتين

(الثالثة والرابعة) سخّروا الشعب كله فى بناء الأهرامات التى ما هى إلا مقابر لهم، ولم يهتموا ببناء معابد تقام فيها تماثيل الآلهة وتقدم لها القرابين الكثيرة والتى تؤول فى النهاية إلى الكهنة فينعمون بها. واستمرار هذا يمثل تهديداً لأرزاقهم وما كان يعود عليهم من عطايا وهبات فأزمعوا تغيير الأسرة الحاكمة. وتزعّم هذه الحركة كهنة «رع» بمدينة عين شمس فأشاعوا أن «رع» كان غير راض عن الملك خوفو الذى بنى الهرم الأكبر، وكذلك سمح لابنه وحفيده ببناء الهرمين الثانى والثالث، وأن «رع» أراد أن يحكم مصر من بعدهم ملوك يفوق تقديسهم للإله تفكيرهم فى تشييد مقابرهم الضخمة، ملوك يشيدون المعابد ويقدمون القرابين على المذابح ويكدسونها ويجعلونها كثيرة وافية. ورأى كهنة «رع» أن يقوموا هم أنفسهم بتأسيس الأسرة التى تحكم البلاد، ولكنهم اصطدموا بالشرعية التى تقضى بأن يكون الملك من سلالة ملك.

وهنا تفتق ذهنهم عن حيلة ذكية تكسب الملك الجديد - منهم - شرعية أقوى. وهو أن يكون الملك من سلالة الآلهة! وقد أصبحت هذه الأسطورة ذات أثر كبير فى علاقة الملوك بالآلهة فى كل الأسرات التالية. وأشار كهنة هليوبوليس: أن الإله «رع» قد اختار زوجة كبير الكهنة وجعلها تحمل منه وتلد بمساعدة الآلهة ثلاثة أبناء هم باكورة جيل جديد من الملوك أعطاهم خنوم «رب الخلق» أعضاء قوية وأعطتهم «إيزيس» أسماءهم وجعلتهم الآلهة ملوكاً حقيقيين سيتقلدون المُلك فى هذه البلاد بأجمعها. وهكذا تولّى المُلك هؤلاء الملوك الثلاثة الواحد تلو الآخر باسم «أوسركاف» و «ساحورع» و ««كاكاى» وهم أول ملوك الأسرة الخامسة. وبهذا صار جميع الفراعنة بدءاً من الأسرة الخامسة يدّعون أنهم من نسل الآلهة.

هذا الانقلاب الدينى زاد من نفوذ الكهنة كثيراً وخاصة كهنة «رع» فى هليوبوليس وزاد من تدخلهم فى الأمور الدينية والدنيوية. وعلى الرغم من أن ملوك هذه الأسرة استمروا فى بناء الأهرامات كأسلافهم - ربما حتى لا يكونوا أقل شأناً - إلا أن عنايتهم بها قلت كثيراً فكانت أهراماتهم صغيرة الحجم (هرم أوسركاف ٤٩ متراً وهرم ساحورع ٤٨ متراً) ولكنهم زادوا من اهتمامهم بالمعابد، وإن كان آخر ملوك هذه الأسرة «ونيس» قد قدم ما عوض ضآلة حجم هرمه بتزيين جدران حجرة الدفن والقاعة المؤدية إليها بنصوص دينية وأسطورية نعرفها باسم «متون الأهرام»، أما سقف الحجرة فزينوه بأشكال النجوم حتى بدا كقبة سماوية تظل جثة الفرعون وتحتويها. وبعد أن كانت المعابد جنازية ومقامة بجوار الأهرامات محجوبة عن الشعب أصبحت مكشوفة للناظرين وأقيمت مسلة ضخمة على هرم ناقص، وكانت المسلة هى رمز إله الشمس «رع».

وارتفـع نجم «رع» كثـيراً وأصبح اسمه يضـاف إلى أسماء الآلهة الأخرى، سـوبك رع – مونت رع – خنوم رع وهكذا.... وبلغ إله الشـمس فى شـخصيته الجديدة «ملك الآلهة» أسمى درجات التقدير حتى إن «آمون» نفسـه إله طيبـة أصبح اسمه «آمون رع». وبالطبع كثـرت المعابد وكثرت القرابين وزاد الكهنة ثراءً وقوة وخاصة كهنة «رع». واهتم ملوك هذه الأسرة بمعبد إله الشمس فى عين شمس، كما أقاموا على نسقه ستة من المعابد لهذا الإله. ولم يضـع المصريون فى معابد إله الشـمس تماثيل ولم يقيموا بهـا محاريب مغلقة. وكانوا يتوجهون بدعائهم مباشرة إلى قرص الشمس فى السماء وكانوا يقدمون القرابين شرق مسلته واسـتمرت هـذه المظاهر تميز عبادة الشـمس عن غيرها من عبـادات بقية الآلهة فى مصر القديمـة. وقد حرص الملوك على تزيين جدران المعابد بكل ما يرمز إلى قدرة إلههم وعظمته وأثره فى الحياة.

واستمرت مكانة الملك ابن الآلهة قوية لها المهابة والتقديس حتى شهدت مصر تطورات سياسـية واجتماعية بعد عهد الملك «تتى» مؤسـس الأسرة السادسة (٢٣٤٥ – ٢١٨١ ق.م تقريباً) حيث علت مكانة كبار الموظفين وازدادت سلطة الوزير واتسعت أكثر كما زاد نفوذ حاكم الصعيد وحكام الأقاليم، وطفت على السـطح محاولات للاسـتقلال عن سـلطة الملك والدولـة. وبدا الملك عاجـزا عن وقف هذا التيار، وإزاء ذلك حـاول الملوك أن يقللوا آثاره الضارة عن طريق زيادة التودد لهؤلاء الحكام.

ومع نهاية هذه الأسرة تزايد ضعف الملوك ولم يعد يربط أغلب حكام الأقاليم بالعرش سوى ولاءٍ شكلى، ثم تفككت السلطة المركزية على أثره لتدخل مصر فى عصر جديد من الاضطراب والتفكك يعرف بعصر الاضطراب الأول وشمل الأسرات من السابعة وحتى العاشرة.

وكانت الأسرة السابعة (٢١٨١ – ٢١٧٣ ق.م تقريباً) لا تزيد عن كونها تجمعا من النبلاء تمركز فى منف فى الشمال فى محاولة لأن يمسكوا معاً بالسلطة المركزية المنهارة. أما الأسرة الثامنة (٢١٧٣ – ٢١٦٠ق.م تقريباً) فقد مارس ملوكها بعض السـيطرة من منف على عدد من أقاليم الجنوب تمتد حتى «قفط» التى عثر فيها على نصوص تحمل أسماءهم. أما باقى مصر فقد استقل حكام الأقاليم بالحكم فيها بل وتحولوا بمرور الوقت إلى أمراء وراثيين.

على أن الإقليم الذى كانت له الريادة فى محاولة توحيد مصر كان الإقليم الثانى عشر من أقاليم مصر العليا وعاصمته هيراكوبوليس (مدينة أهناسـيا الواقعة عند مدخل الفيوم). فقد عاصر نهوض الحكم فى هذا الإقليم انهيار الأسـرة الثامنة ليبدأ عصر جديد يسمى بالعصر

الأهناسي شمل الأسرتين التاسعة والعاشرة أي في الفترة بين (٢١٦٠ – ٢١٣٠ ق.م. تقريباً). وتضم الأسرتان ١٩ ملكاً حكموا من أهناسيا لم ينجحوا جميعاً في فرض سيطرتهم على كل الأقاليم وإن كانوا قد أقاموا نظاماً قوياً وثابتاً في الجزء الشمالي من البلاد.

وكان حكام طيبة قد نجحوا في الاحتفاظ باستقلال إقليمهم عن الحكومة المركزية في أهناسيا وإن اعترفوا لها بالولاء الاسمي. ثم نجحوا بعد ذلك في فرض سيطرتهم على كل أقاليم الجنوب ليدب بعد ذلك صراع طويل بينهم وبين ملوك أهناسيا في الشمال ينتهي بانتصارهم عليهم. ويتم توحيد البلاد تحت سيطرتهم على يد ملك يدعى «منتوحتب نب حيت رع» الذي يبدأ بعهده عهد جديد على مصر وهو عصر الدولة الوسطى. وشملت حكم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة أي من ٢١٣٣ – ١٧٨٦ ق.م تقريباً.

ولم يكن الملك في بداية الدولة الوسطى يسيطر على الدولة بصفته إلها يحيا على الأرض أو ابناً للإله كما كان في الدولة القديمة. فلم تكن أرض مصر كلها ملكاً للملك، وإن كان يحكم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، ولكن ليس بنفس القدسية والقوة التي كانت له في عهد الدولة القديمة. وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن مصر في هذه الفترة كانت تتكون من مجموعة من ولايات إقطاعية مفككة يتمتع حكامها بنفوذ واسع. ولم يكن من السهل القضاء على نفوذ وسلطان حكام الأقاليم في بداية هذه الدولة بل كان من الصعب القضاء التام على سلطانهم. وكان من نتيجة ذلك أن سقط الملك في عصر الاضطراب الأول (السابق) وبداية الدولة الوسطى من عليائه الإلهية لكونه منسوبا للآلهة أو ابناً لهم أو مكانته المحاطة بالرهبة والقدسية وأصبحت له هيبة الحاكم فقط.

ولقد تمكن الملوك العظام في هذه الدولة من تجميع السلطة في أيديهم ونشر العدل. وفضلوا لأنفسهم أسماء تعبر عن رغبتهم بأن يكون الحق والعدل «ماعت» رائدهم. فتكررت كلمة «ماعت» في نصوص الأسرة الثانية عشرة، كما تكررت كلمة «الصدق» أو «العدل» في نصوص هذه الفترة. فقد اتخذ أمنمحات الثاني مثلاً اسم «الذي يسره العدل» و «ذو الصوت الصادق». وفضّل سنوسرت الثاني لقب «الذي يرفع شأن العدل»، أما أمنمحات الثالث فعرف باسم «المنتهي إلى عدل رع»، وكان لقب أمنمحات الرابع «رع هو صادق الصوت». ولقد فضّل ملوك هذه الأسرة أن تكون «ماعت» رائدتهم فقدموها قربانا للآلهة ومنحة للبشر.

ولقد كانت ماعت تجسيداً للعدالة والحقيقة. وصورت في هيئة امرأة رشيقة صغيرة جالسة وتضع ريشة نعامة فوق رأسها واستعمل هذا الرمز في كتابة اسمها. وكانت كذلك

صنجة الحق توضع فى الميزان لوزن قلب الميت عند المحاكمة لمعرفة ما إذا كان «ماعتيا» أى يطابق ماعت أو إنسان خيّر ، فيقارن قلب الشخص الميت عند المحاكمة بالحقيقة. وكان الوزير ، الذى هو رئيس كافة المحاكم فى مصر، «كاهن ماعت» وكان يتكلم بناءً على وحيها ، فلا يكذب. وفضلاً عن استعمال كلمة ماعت للتعبير عن صور كثيرة للحقيقة واستعمالاتها القضائية فإنها كانت تصف شيئاً آخر أعظم من ذلك بكثير فكانت تطلق على توازن العالم كله وتعايش جميع عناصره فى انسجام.

وتعرضت مصر منذ الأسرة الثالثة عشرة (من ١٧٨٦ - ١٦٣٣ ق.م) وطوال قرنين أى حتى الأسرة السابعة عشرة (من ١٦٥٠ - ١٥٦٧ ق.م) للضعف والانحلال واجتازت فترة أخرى مظلمة كانت أشد من تلك التى تلت انهيار الدولة القديمة فى الاضطراب الأول، فتحكم فيها ملوك ضعاف أسسوا الأسرة الثالثة عشرة. وهى أسرة تكونت كما نقل عن مانيتون[1] من ٦٠ ملكاً حكموا فى طيبة فى الجنوب فترة ٤٥٣ سنة. تلتها الأسرة الرابعة عشرة وتكونت من ٧٦ ملكاً واتخذوا من مدينة «سخا» فى غرب الدلتا عاصمة لهم، وحكموا ١٨٤ سنة.

أما الأسرة الخامسة عشرة فتكونت من ستة ملوك من ملوك الهكسوس الغزاة، وحكموا فترة ٢٨٤ سنة.

وتكونت الأسرة السادسة عشرة من ٣٢ ملكاً من ملوك الهكسوس أيضا وحكموا فترة ٥١٨ سنة. ولم يستطع ملوك الهكسوس فى الأسرة السابعة عشرة التحكم فى جميع الأراضى المصرية وذلك بعد أن اشتعلت روح الوطنية لتحرير مصر، واستطاع أبناء مصر فى طيبة حماية الصعيد من المستعمر ولم يبق أمام الهكسوس إلا الاكتفاء بشرق الدلتا وإن امتد نفوذهم فشمل الدلتا بأكملها. وكان عدد ملوك هذه الأسرة طبقاً لمانيتون ٤٣ ملكاً حكموا ١٥١ سنة.

وتنتهى هذه الفترة من تاريخ مصر بانتصار المصريين فى الجنوب على الهكسوس فى

(١) هو كاهن من مدينة سمنود عاصر الملك بطليموس الثانى (٢٨٣ - ٢٤٥ ق.م) وكان على جانب كبير من الثقافة وملماً باللغتين المصرية القديمة واليونانية ومتعمقاً فى الديانة والتاريخ المصرى القديم. وقد كلفه الملك بطليموس بكتابة تاريخ مصر، وقد اعتمد أغلب الظن فى كتابة تاريخه لمصر على القوائم السابقة بالإضافة إلى ما كان موجوداً فى المعابد من وثائق تاريخية مختلفة. وقد ظهر كتابه باللغة اليونانية تحت اسم Aigiptiaka، بدأ فيه بتاريخ مصر بحكم الآلهة فأنصاف الآلهة وقسم التاريخ إلى ثلاثين أسرة تبدأ من الملك مينا وتنتهى بدخول الاسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ ق.م. وكان تاريخه بمثابة البحث الأكبر والجامع عن تاريخ أجداده.

الشـمال ليبدأ عصر جديد هو عصر الدولة الحديثة، وكان ذلك على يد الملك أحمس الأول مؤسس الأسـرة الثامنة عشرة (من ١٥٦٧ - ١٣٢٠ ق.م). وتشمل هذه الدولة الأسرات من الثامنة عشرة إلى العشرين (من ١٥٦٧ - ١٠٨٥ ق.م).

ومع امتداد النفوذ المصرى وتوسـع الإمبراطورية فى الدولة الحديثة اضطر الملك أن يلقى عبء السـلطة، بعد أن كان سـيد البلاد المطلق فى الدولة القديمـة، إلى عدد من الموظفين الكبار فى الدولة. وكان أهم هؤلاء الموظفين كبير كهنة الإله آمون فى معابد الكرنك، ووزير الوجـه البحـرى، ووزير الوجه القبلى ونائب الملك فى كوش فى الجنوب والذى اتخذ بعد ذلك لقب «ابن الملك فى كوش». وهى وظيفة أمر الملك أحمس بإنشـائها ليتحمل شـاغلها مسـئولية حكم بلاد النوبة وحماية مناجم الذهب بها والدفاع عنها والحفاظ عليها. وغالباً مـا كان يتـولى هذه الوظيفة ولى العهـد ليتمرن على الإدارة فيها. بينمـا كانت وظيفة قائد الجيش ومسئولية توسع الإمبراطورية فى آسيا من مسئوليات الملك الحاكم.

ولم يكـن لسـلطات هؤلاء الموظفين أو أصحاب الوظائف العليـا أى نفوذ طالما كان الملك الحاكـم قويـا، أما إذا كان ضعيفاً عاجزاً عن موازنة السـلطة، فغالبـاً ما يحاول معاونوه الأقوياء انتزاع هذه السـلطة والاحتفاظ بها. وكان يعمل تحت رئاسـة الملك وكبار موظفى الدولة مجموعة من الموظفين المدنيين ورجال الدين. فقد كانت مصر دولة دينية لا ينفذ فيها شىء مدنى دون أن يباركه رجال الدين.

اهتم ملوك الدولة الحديثة بالوراثة الشـرعية للسلالة الملكية، إذ إن الصفة الإلهية لملوك مصر القديمة كانت تنقل عن طريق النسـاء، وليس عن طريق الرجال، ولهذا كان المهم أن يكـون ولى العهـد ليس فقط ابن ملك ولكن أيضا ابـن أميرة من الدم الملكى. فظهر فى عهد الملـك أحمس الأول - للمـرة الأولى - لقب «الزوجة الإلهية لآمون» وكان يطلق على زوجة الملـك وأم أولاده التى تقوم بدور دينى مقدس فـى المعبد. وعلى هذا أصبح من المفروض أن يكون ولى العهد ابن أميرة بنت ملك وزوجة ملك وبنت الزوجة الإلهية لآمون.

وقد يلجأ الملك أو الملكة إلى المصدر الإلهى لكى يهرب من تقاليد الوراثة الشـرعية مثلما فعلت الملكة حتشبسـوت، ومن بعدهـا الملك أمنحتب الثالث، لتـبرر أحقيتها فى ارتقاء العرش وذلك عن طريق التناسل الإلهى، والانتساب إلى الإله آمون إله الدولة. وبهذا يصبح ابن الإله أو بنت الإله ويتفوق أو تتفوق على أبناء البشـر. حيث تكررت الأسـطورة التى ابتدعها كهنة إله الشـمس فى هليوبوليس فى الدولة القديمة مرة ثانية فى الدولة الحديثة

ولكن فى طيبة هذه المرة ومع الإله «آمون»، إذا جاء فى النقوش على المعابد ما ملخصه أن الإلـه «آمون» أراد أن ينجب ملكاً يقوم بتشـييد (منـازل) للآلهة وتكثر على يديه القرابين التى تقدم لها فكان أن اختار زوجة الملك تحتمس الأول، وعندئذ تقمّص آمون شكل زوجها الملـك تحتمس واضطجع مع الملكة التى قالت له: «لقد أسـبغت على جلالتى من عظمتك وتسـرب نداك فى كل أعضائى» ثم حملت وولدت وسميت الابنة (حتشبسـوت) كما أمر بذلك «آمون رع».

ويستمر انتساب الملوك إلى الآلهة مدعين أنهم أبناء لهم، حتى لقد كان تحتمس الثالث (الأسرة الـ ١٨) على درجة عالية من الأخلاق والتواضع إذ يقول عن نفسه:

«إنى لم أنطق بكلمة مبالغ فيها ابتغاء الفخر بما عملته فأقول إنى فعلت شـيئاً دون أن يفعله جلالتى ولم آت بعمل فيه مظنّة، وقد فعلت ذلك لوالدى الإله آمون لأنه يعرف ما فى السماء ويعلم ما فى الأرض ويرى كل العالم فى طرفة عين».

وتكررت القصة مرة أخرى مع رمسيس الثانى إذ تقول: إن الإله (بتاح) قد أكد لرمسيس الثانى أنه قد تنبأ بالأعمال العظيمة التى سيصنعها له هذا الملك فقال:

«اضطجعت بجانب أمك الجميلة لكى تلدك وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية!»

وقد دونت هذه القصة فوق جدران معبد أبى سمبل الذى بناه رمسـيس الثانى. وما دام الملك قد ولد كابن للإله فلابد أنه لا يموت ميتة الآدمى فإذا ما انتهت حياته السعيدة فهو يصعد إلى السماء ويندمج فى قرص الشمس التى خرج منها.

وهناك أشياء أخرى اكتسبها الملوك من تلك القصة المزعومة التى اعتبروها من خصائصهم كأولاد للآلهه وكائنات إلهية، فها هو ذا الملك يحمل فوق رأسـه الصل مثله فى ذلك مثل إله الشمس، والصل هو ذلك الثعبان أو الأفعى التى تحرق الأعداء بزفيرها النارى، وأصبح الصـل هـو الرمز الملكى يضعه الملك فوق جبينه أو فوق تاجه. وأهم من ذلك أن الملك أصبح ينظر له بأن له اتصالا خاصا بالآلهة فهو منهم وابنهم، وهم آباؤه. هكذا كانت مكانة الملك فى مصر القديمة وهكذا كانت قدسيته.



الفصل الثانى

الفرعون

لم يكن هذا اللفظ فى البداية أكثر من تعريف اصطلاحى إدارى، كتب فى صيغته المصرية «برعو» أو «برعا» بمعنى البيت العالى أو البيت العظيم الذى يتجه الشعب إليه بمشاعر التعظيم والأمل والولاء والرهبة. ثم امتد مدلول لفظ «برعو» من البيت العظيم أو قصر الملك والذى ساد منذ الدولة القديمة إلى الدلالة فيما بعد على الملك نفسه، ساكنه الذى يعتلى عرشه المقدس.

وقد يفهم هذا بمقارنته بما شاع فى العصر العثمانى مثلاً بعد عشرات القرون بالتعبير عن القصر الذى يقطنه السلطان وبالتالى عن السلطان نفسه بـ «البيت العالى»، بل ومقارنته بما تذكره لغة الصحافة الحديثة عن سياسة «البيت الأبيض» فى الولايات المتحدة مثلاً، وتعنى بها سياسة رئيس الدولة وجهازه الأعلى. غير أنه لم تثبت دلالة هذا اللفظ على شخص الملك إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة وتحديداً فى عهد اخناتون (١٣٦٥ - ١٣٤٩ ق.م تقريباً) إذ لقب بذلك على بعض آثاره، كما خوطب به فى بعض ما وجه إليه من كتب[1].

ففى خطاب من أهالى مدينة «تونيب» فى فلسطين إلى اخناتون يستغيثون به ويطلبون العون منه حتى لا تقع مدينتهم تحت نفوذ الملك الحيثى «سوبيلوليوما» ويذكرونه أنهم أرسلوا له من قبل عشرين رسالة ولم ينجدهم، يشيرون فى هذه الرسالة إلى الملك بالفرعون:

« والآن فإن مدينتك تونيب تبكى ودموعها تسيل ولا ناصر لها، ولقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا فرعون مصر ولا مجيب»[2].

وشاع بالتالى لفظ «فرعون» مع الاسم الشخصى لكل ملك مصري بعد ذلك. كما شاع فيما بعد ذلك بقرون طويلة لقب «قيصر» على كل حاكم أعلى للرومان والبيزنطيين، وشاع لقب «كسرى» بين العرب على كل ملك فارسى، ولقب «نجاشى» لكل ملك حبشى.

---

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، الشرق الأدنى القديم، جـ١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٠، ص٨٢.

(٢) سيد توفيق (دكتور)، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، ١٩٩٠، ص٢٩٥.

وحرفـت النصوص العبريـة لفظ «برعو» إلى «فرعو» نظراً لاختلاط نطق الباء مع الفاء فى اللغات القديمة، ثم أضافت اللغة العربية إليه النون الأخيرة[1].

علـى أن لقـب «فرعون» لم يسـتعمل فى أى وقت مـن التاريخ كلقـب حقيقى رسمى للملك[2]. بل كانت هنالك خمسـة ألقاب رسمية للحاكم فى مصر القديمة أولها لقب «حور» أو «حورس» ومعناه أن الملك بمجرد اعتلائه عرش الملك يلقب باسم «حورس» أى إنه صورة حية من هذا الإله تعيش على الأرض.

واللقـب الثانى كان يمثل فى صورة نسـر (رمز الجنوب) وصِل (حية رمز الشـمال)كل منهما يرتكز على سـلة رمـز للملكية[3]. وكلاهمـا «نبتى» أى التاجـان الأبيض للجنوب والأحمـر للشـمال. أى إن لقبه هنا أنـه «الملك صاحب التاجـين» الأبيض والأحمر رمزى الجنوب والشمال.

واللقب الثالث كان يسـمى بالمصرية «النيسـو - بيتى» ويعنى ملك مصر العليا والسفلى أو سيد الأرضين الوجه القبلى والوجه البحرى، وهو حرفياً المنتمى إلى نيسوت (الغاب رمز الوجه القبلى) وبيتى (النحلة رمز الوجه البحرى أو مصر السفلى).

وكان اللقـب الرابـع والذى ظهر فى عهد الملك «سـنفرو»[4] وهو «حور - نب» أى حور القاهر، إشـارة إلى تغلب حورس ابن اوزير على عمه الشـرير «سـت» كما تروى أسـطورة «ايزيـس واوزوريـس»، أى إن الملك هو حـورس المنتصر. غير أن البعـض يترجمه «حور الذهبى»[5].

أمـا اللقـب الخامس فكان «ابن رع» أو ابن إله الشـمس، وظهر فـى أواخر عهد الملك منكاورع أى أواخر الأسـرة الرابعة. لتكتمل بذلك الألقاب الملكية الخمسـة الرسمية والتى بقيت كذلك حتى أواخر عهد الحكم الرومانى[6].

ولم تكـن هيئة فرعون أقل فخامة، إذا تجعله شـاراته فى مصـاف الآلهة. فكان يضع كالآلهة ذنب حيوان متصلاً بحزامه ويتدلى من وسـطه. ويضع لحية مسـتعارة كانت هى

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٢٥٥

(٣) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ١، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٤) سليم حسن ، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٥) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

(٦) سليم حسن ، المرجع السابق، ص ١٦٨.

نفسـها إلهاً، ويحمل صولجاناً مزيناً برأس حيوان الإله سـت. وأضيفت عليه من هالات العظمة والبطولة ما صورته ببنية بطل يسـيطر على الحشود ولا يوجد من يستطيع مقاومته أو يصد ضرباته أو يفر من مطاردته. يقف وحده فى ساحة القتال فيكيل بالألوف من أعدائه، وكمـا تقول النصوص «والخوف الذى يبثه، يُلقـى الرعب فى قلوب البرابرة فى بلادهم»، لا تخفى عنه خافية ويسير وبعينه الأغوار العميقة، بلغت خططه درجة الكمال فكل ما يأمر بـه يتم ويتحقق». ومع هذه الصفات التى تضفى الهيبة والرعب تصفه نصوص أخرى بأنه لا يعرف كرمه حدوداً وضَمِن السعادة لرعيته فيحمى الضعيف ويقيم العدل «ماعت»(1).

والخلاصـة من هذا التناول لأصل لفظ «فرعون» أنه تعريف اصطلاحى إدارى ولقب غير رسمى للملك بعد الأسرة الثامنة عشرة.

وتجدر الإشـارة إلى دقة الذكر القرآنى فى عدم اسـتخدامه لفظ فرعون إلا فيما روى عن ملك مصر المعاصر لموسـى عليه السـلام فقط وذلك فى ٦١ موضعا، منها ١٣ موضعًا مسبوقاً بلفـظ آل، و ٧ مواضـع مصحوباً بلفظ ملئه، و ٥ مواضع مصحوباً بلفظ قوم، وأربعة مواضع معطوفاً معه «هامان» وزيره. بينما لم يذكره مرة واحدة فيما أورده من ذكر لحاكم مصر الذى عاش فى عهده يوسف عليه السلام والذى أشار إليه القرآن على أنه ملك، بخلاف التوراة التى تلقب كليهما بالفرعون كما فى سـفر التكوين وسـفر الخروج، بل وتشـير إلى فرعون موسى على أنه ملك فى بعض المواضع.

ففى سـفر التكوين (٤١: ١ – ٨): «وحدث من بعد سـنتين من الزمان أن فرعون رأى حلمـاً.. وكان فـى الصباح أن نفسـه انزعجت فأرسـل ودعا جميع سـحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون». ويقصد بالفرعون هنا ملك مصر فى عهد يوسف عليه السلام.

«ثم قال يوسف لإخوته وأبيه أصعدُ وأخبر فرعون وأقول له إخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلي» (التكوين ٢١: ٤٦).

«وأخـذ من جملة إخوته خمسـة رجـال وأوقفهم أمـام فرعون، فقـال فرعون لإخوته ما صناعتكـم فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحـن وآباؤنا جميعا» (التكوين ٤٧: ١ – ٣).

وعن فرعون موسى:

---

(١) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

«فنزلـت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسـل وكانت جواريها ماشـيات على جانب النهر» (الخروج ٢ : ٥).

«فقال موسـى لله من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بنى إسـرائيل من مصر» (الخروج ٣ : ١١).

بل إن العهد القديم يشير فى بعض نصوصه إلى فرعون موسى على أنه الملك بجانب لقبه «فرعون» وهذه أمثلة على ذلك:

«وحـدث فى تلك الأيـام الكثيرة أن ملك مصر مات، وتنهد بنو إسـرائيل من العبودية وصرخوا، فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية» (الخروج ٢ :٢٣).

«ولكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية» (الخروج ٣: ١٩).

مع أن وجود يوسـف عليه السـلام كان سابقاً لموسى بنحو خمسـمائة عام، حيث قدر العهد القديم مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر بأربعمائة وثلاثين عاماً وهى المدة الممتدة منذ دخول يوسـف عليه السلام مصر، والتى كانت فيما يرجح فى عهد الهكسوس الذين غزوا مصر أواخر الأسرة الرابعة عشر (١٧٨٦ - ١٦٠٣ ق.م) وحتى مولد موسى عليه السلام فيما يرجح فى عهد رمسيس الثانى (١٢٩٨ - ١٢٣٢ ق.م).

ولقد ذكر القرآن فرعون موسى وخصه بهذا اللقب دون سائر ملوك مصر قصراً عليه وحده بما وصفه به من المروق والطغيان، ذلك الطغيان الذى صار اسم فرعون فى نظر الناس علماً عليه، وما كان منه من التكبر والاستعلاء والإجرام والتأله.

وقد قدر الله أن يختص واحداً من سائر الفراعنة بهذا الذكر وهذه الصفات ذلك هو فرعون الذى صحبه وخدمه رجل من خاصته وحاشيته وهو «هامان». وعاش فى عهده رجل ثرى صاحب أموال وكنوز وهو «قارون» وذلك حين الحديث عمن أُرسل إليه موسى عليه السلام وجهر بالتحدى والتكذيب فحقت عليه الكلمة كما يفهم من سياق الآيات:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة غافر].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة القصص].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ

﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة القصص].

أما قارون فقد كان من قوم موسى بل يقول البعض بأنه ابن عمه، أى من بنى إسرائيل الذين كانوا ينعمون بعطف فرعون وكرمه، وإلا لما وصل إلى ما وصل إليه من الثراء والغنى على الرغم من أنه من الاسرائيليين الذين ينظر المصريون إليهم على أنهم من الطبقة الدنيا. ولهذا فكان من اليسير عليه وحسبما تشير منطقية الأمور أن يكون «فرعونى» المذهب ومتملقا منافقا، فإن مذهبه فى الحياة حيث تكون أمواله فى مأمن ونماء. ولقد فصّل القرآن قصته فى [سورة القصص]:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ
أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ
ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي
ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ
مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ
إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ
يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ
وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ
لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ
لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

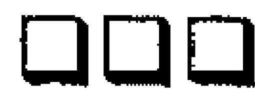
ولقد كان قارون صديقاً حميماً للفرعون دون بنى إسرائيل جميعاً، وذلك بحكم ثرائه الفاحش ولعله بذلك يعكس الازدواجية المعهودة أو ما اصطلح على تسميته بتزاوج السلطة بالمال فى ظل توحد المبدأ والهدف، وهو ما تعانى منها المجتمعات الإنسانية منذ القدم وحتى الآن. وقد جمع الله المكذبين الثلاثة: فرعون وهامان وقارون فى آية واحدة وكيف كانت نهايتهم فقال تعالى:

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة العنكبوت].

ومن هنا نفهم من السياق القرآنى فيما ورد من آيات أخرى عن موسى وقومه أو عما جرى بين موســى وفرعون من حوار على أنه ذلك الفرعون الذى لم يشــأ القرآن أن يسميه بذاته. أما التعميم فى أول ســورة القصص ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القصص].

فينصــرف الخبر فيه إلى ما وقع لموســى مــع فرعون عصره، والــذى كان يضطهد بنى إسرائيل ويذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ويسيمهم سوء العذاب.

وبصرف النظر عمن يكون هذا الفرعون فإن ما يعنينا هنا ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاحاً «الفرعنــة» أو «الفرعونيــة» أو جملة الصفات الذميمة التى كان يتصف بها فرعون موســى واستحق اللعنة عليها، وهو ما ركز القرآن الكريم عليه فى سياق سرده لقصة موسى مع من عاصره من الفراعنة.



الفصل الثالث

الفرعونية الملعونة

المتتبع لكل الآيات التى تناولت فرعون فى القرآن سـواء تصريحاً أم تلميحاً يخلص إلى جملة أو خليط من الصفات الذميمة والمنبوذة، لا تكاد تجد فيها صفة أقل قبحاً من أختها، فبنظرة سريعة إلى الآيات المتناولة لقصته مع موسى تبرز صفات الاستعلاء والتكبر والجهل والطغيان والإسـراف والضلال والانتقام والإجرام والإفساد والكذب وغيرها، غير أن أكثرها بشاعة ادعاؤه الألوهية والربوبية.

وفيما يلى سـوف نتناول بشـىء من التفصيل جملة هذه الصفات والتى شكلت شخصية ذلك الفرعون وشكلت ما يمكن تسميته بالمذهب الفرعونى أو الفرعونية.

التألُّه وادِّعاء الربوبية

لقد كانت الآفة الكبرى والذنب العظيم الذى لا يغتفر، والذى لم يشاركه فيه، فيما يذكر القرآن الكريم سوى ملك آخر لا يقل ضلالاً وتجبراً، وهو «النمرود» ملك بابل فى محاجاته مع إبراهيم عليه السلام، وإن لم يكن هذا النمرود بالصورة الفجة التى ظهر عليها فرعون. وكان قد طلب من إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الرب الذى يدعو إليه فقال إبراهيم ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ عنـد ذلك قال النمرود ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، ذلك أنى آتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيُقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يُقتل. ولهذا قال له إبراهيم لما ادَّعى هذه المكابرة:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [سورة البقرة].

أى إذا كنـت كما تدَّعى مـن أنك تحيى وتميت فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود وفى تسـخير كواكبه وحركاته، فهذه الشـمس تخرج كل يوم من المشـرق فإن كنـت إلها كما ادَّعيت تحيى وتميت فأتِ بها من المغرب؟. فلما أيقن بعجزه وأنه لا يقدر علـى المكابـرة فى هذا المقام بُهت وخرس وقامت عليه الحجـة قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى لا يهديهـم إلى طريقه القويم ولا يلهمهم الحجة ولا البرهان بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

ولقد اعتقد المصريون القدماء أن الدولة ملك الحاكم الملك الذى يرقى فى كثير من الأحيان إلى مصاف أبناء الآلهة فى حياته أو الآلهة بعد مماته. ولهذا نجد من قبل فرعون موسى من الملوك من ينسبون أنفسهم إلى الآلهة تقرباً منهم إليهم ولإضفاء القدسية والشرعية فى نظر شعوبهم بأنهم أبناء للآلهة، وأن الفرعون هو الابن الحقيقى للإله الأعلى. وهناك نقوش فى معبدى حتشبسوت فى الدير البحرى وأمنحتب الثالث بالأقصر، بل وعلى جدران الكرنك (من الدولة الحديثة) توضح كيفية تجسيد الألوهية فى الملك المولود وأن مولد ملك هو مولد إله، حسبما يعتقد القوم فى ذلك الزمان. فنرى آمون (ملك الآلهة ورب الأرباب كما كان يعتقد المصريون القدماء) يأخذ شكل الفرعون الحاكم ويضاجع الملكة الأم. وبعد هذا الزواج الإلهى يشكل «خنوم» الطفل المقدس على عجلة الخزاف فتتم الولادة بمساعدة الربات الحكيمات، ويقدم الطفل الحديث الولادة إلى آمون والده وتعمده الآلهة وترضعه الربات الحتحورات السبع (نقش بمعبد الكرنك)[1].

ولعل هذا ما رسخ فى ذهن وعقيدة فرعون من أن إلها يتجسد فيه أو أنه هو نفسه إله، وأن الشعب يجب أن يتعبد له. إنها إذن عقيدة عند القوم أو قل سياسة جعلت الملوك يتمادون فيها، فنجد فرعون موسى يقرر ﴿...أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ و ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴿٣٨﴾﴾ [سورة القصص] ويواجه موسى عليه السلام فى تحد وغطرسة ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الشعراء].

ونظراً لتعدد الأرباب والربات فى مصر القديمة (حيث بلغت ما يقرب من ألفين من الآلهة بما فيها الآلهة الأجنبية التى جلبت من سوريا وما حولها) وما جاء به موسى عليه السلام من دعوة إلى الله الواحد الحق وبأنه مرسل منه، نجد فرعون يتساءل جاهلاً أو جاحداً عن ماهية هذا الرب، وهل هو يختلف عما يعرف من آلهة ومعبودات، أوكأنه يتساءل عن مجهول من الأشياء:

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [سورة طه] أو ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء]، فما كان من موسى إلا أن أخذ يفسر له ويبين ماذا تعنى الربوبية الحق، ومن هو الإله الحق ومدى ما يتصف به من قدرة وعظمة لا تضارعها عظمة فرعون فهو:

(١) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [سورة الشعراء].

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الشعراء].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الشعراء].

وفي إجمال بالغ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة طه - الآية ٥٠].

ومع استمرار الإعراض والجهل لجأ موسى إلى التفصيل الأدق، فأخذ يسوق من الدلائل والحجج الواضحة لأصحاب العقول هذا إن وجدت تلك العقول التي تعي وتفكر، فيقول عن ربه:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة طه].

وأمام هذا الإيضاح الميسر لمعنى الربوبية والمعضد بالآيات الكثيرة، يؤمن موسى يقيناً أن فرعون يعلم جيداً وفي قرارة نفسه أن هذه الآيات التي يراها ويتعرض وقومه لها إنما أنزلها رب العالمين وأنه خلقٌ من مخلوقات الله الضعيفة ويواجهه بذلك، فيقول موسى:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة الإسراء].

وتهتز ألوهيته المزعومة أمام الآيات البينات المتتابعة التي جاء بها موسى. فها هم أولاء السحرة الذين عاينوا من عظيم قدرة الله يخرون على وجوههم سجدا لربهم، مصدقين ما جاء به موسى ومقرين بنبوته ومؤمنين برب العالمين رب موسى وهارون، كافرين بألوهية فرعون المزيفة. فلما رأى السحرة ما رأوا عرفوا أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر فخروا سجدا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة الأعراف].

إن عدم الإيمان بربوبية فرعون والكفر بألوهيته لم ينحصر في هؤلاء السحرة الذين عاينوا ما عاينوا من القدرة الخارقة، بل شمل كذلك من عاينوا فرعون نفسه وتعاملوا معه وأدركوا قدرته الآدمية المحدودة.

فها هو ذا رجل من آل فرعون أو من الحاشية المقربة منه ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾
يؤمن بموسى ويتبعه. ولعله كان يمثل انشقاقًا داخليًا فى البيت الحاكم وتمردًا على ألوهية
فرعون، فقد كان لاشك على علم بأسرار الحكم والقصر وما بفرعون من نواقص ومثالب مما
شجعه على أن يواجه ذلك المتأله بثبات وشجاعة ليكشف عن باطله وزيف ألوهيته. ولقد
فصّل القرآن قصة هذا الرجل فى سورة غافر ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ
إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ
قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ
مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا
عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى
لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ
إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ
إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ
﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ
﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ
ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة غافر] وهو فى هذا يعلن إيمانه بما جاء به موسى وكفره بفرعون، موضحاً فى النهاية بطلان ما يدعو إليه فرعون وداعياً قومه إلى الإيمان مثله.

وقد اختلف أهل العلم[1] فى هذا الرجل المؤمن فقال بعضهم: كان من قوم فرعون غير أنه كان قد آمن بموسى وكان يُسِّر إيمانه من فرعون وقومه خوفا على نفسه، وقيل هو ابن عم فرعون[2] والصواب فى هذا القول كما يرى ابن كثير الوقف على قوله تعالى: «من آل فرعون» لأن ذلك خبر متناه قد تم. وقال آخرون: بل كان الرجل إسرائيلياً ولكنه كان يكتم إيمانه من آل فرعون والصواب على هذا القول لمن أراد الوقف أن يجعل وقفه على قوله «يكتم إيمانه» لأن قوله: «من آل فرعون» صلة لقوله: «يكتم إيمانه» فتمامه قوله: «يكتم إيمانه».

وأولى القولين فى ذلك بالصواب القول الأول من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون فقد أصغى فرعون لكلامه واستمع منه إلى ما قاله، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله وقال له: ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. ولو كان إسرائيلياً لكان حريا أن يعاجل هذا القائل بالعقوبة على قوله لأنه لم يكن يستنصح بنى إسرائيل باعتبارهم أعداء له فكيف بقوله عن قتل موسى لو وجد سبيلا[3]!.

وتشمل قائمة الكافرين بألوهية فرعون من كانت أقرب الأقربين إليه، ومن تعلم تمام العلم كذب ادِّعائه، ونعنى بها زوجته "آسية بنت مزاحم". فهى وحدها التى تعرف صفات زوجها ومدى نواقص شخصيته والتى ما كانت لترقى إلى مرتبة إله للمصريين. فنجدها تكفر به وتؤمن بالله مع من آمن من بنى إسرائيل. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة التحريم].

كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غَلب موسى وهارون فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء

(١) تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير الجلالين.

(٣) تفسير ابن كثير.

فأبصرت بيتها فى السماء فمضت على قولها فانتزع الله روحها وأُلقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح[1].

وقيـل كان إيمان امـرأة فرعون من قِبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلسـت تمشّـط ابنة فرعون فوقع المشـط من يدهـا فقالت: تعس من كفر بـالله ! فقالت لها بنت فرعـون: أولـك رب غير أبى؟ قالت: الله ربى ورب أبيك ورب كل شـىء، فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباها. فأرسـل فرعون إليها فقـال: تعبدين ربا غيرى ؟ قالت: نعم ربى وربك ورب كل شـىء الله وإياه أعبد. فعذّبها فرعون وأوتد لها أوتادا فشـد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يوما فقال لها: ما أنت منتهية ؟ فقالت له: ربى وربك ورب كل شىء الله، فقال لها: إنى حارق ابنك إن لم تفعلى، فقالت له: اقض ما أنت قاض. فحرق ابنها وإن ابنها بشّـرها فقال لها: أبشـرى يا أمه فإن لك عنـد الله مـن الثواب كذا وكذا فصبرت. ثم أتى عليها فرعون يوما آخر فقال لها مثل ذلك فقالت له مثل ذلك فذبح ابنها الآخر فبشّرها روحه أيضا وقال لها: اصبرى يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا، قال: وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون. وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتهـا فى الجنة لامـرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيمانـا ويقينا وتصديقا. وقيل[2]: هى عمة موسى آمنت به فأطلع الله فرعون على إيمانها، فقال للملأ: ما تعلمون من آسية بنـت مزاحم؟ فأثنوا عليها فقال لهم: إنها تعبد غيرى فقالوا له: اقتلها، فأوتد لها أوتادا فشـد يديها ورجليها فدعت آسـية ربها فقالـت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [سـورة التحريـم] فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهى تضحك فقبض الله روحها فهى فى الجنة رضى الله عنها.

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث شـعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمدانى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وإن فضل عائشة على

(١) تفسير الطبرى.

(٢) تفسير القرطبى.

النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

وفـى رواية أخرى[2] أخرج أحمد والطبرانى والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وسـلم) ومريم بنت عمران وآسـية بنت مزاحم امـرأة فرعـون مع ما قص الله علينا من خبرهما فى القرآن قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة».

ويتمـادى فرعون فى غيه مكذِّباً موسـى ونافياً وجود هذا الإله الذى يدعو إليه موسـى فيقول فى سخرية وتحد:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سـورة القصص].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

وهكذا اسـتمر ضلاله وغطرسته واستعلاؤه إلى نقطة يتعدى فيها كل الحدود إلى الضلال المبين، فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ [سـورة القصـص] وقبلها ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النازعات]. فلا رب دونى ولا رب لكم فوقى.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [سـورة القصص].

وقـال ابن عبـاس[3]: كان بينها وبين قولتـه الأولى: «أنا ربكم الأعلى» أربعون سـنة. فكان جـزاء مـا ادَّعى من ربوبية فى قولـه الأول وألوهية فى قوله الثانـى، أن أخذه الله الأخذة الكبرى.

---

(١) تفسير ابن كثير، ومختصره.

(٢) تفسير الدر المنثور.

(٣) تفسير القرطبى.

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة النازعات].

إذن هـى النهاية حيث لاعودة، والأخذة الكبرى، أخذة العزيز المقتدر ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سـورة المزمل]. أى شديداً أو ثقيلاً غليظا، وقيل الوبيل: الشـر، والعرب تقول لمن تتابع عليه الشـر: لقد أوبل عليه[1]. هكذا يمهل الله لمن يتجاوز حدوده حتى إذا أخذه لم يفلته، وتكون أخذته شديدة زائدة فى شدتها ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الحاقة]، ويقال ربى الشىء يربو: إذا زاد وتضاعف، وهكذا أخْذُ ربك إن أخذه أليم شديد.

الطغـيان

يعنى الفعل طغى: أى زاد أو تجاوز الحد المقبول، أو أسرف فى العصيان. والطاغوت: الطاغـى المعتدى، أو كثير الطغيان أو الشـيطان، أو كل ما عُبـد من دون الله. والطاغية: العظيم الظلم الكثير الطغيان، والطغيان نفسه هو تجاوز الحد فى الظلم[2].

والطغيان من صفات الفرعونية الذميمة التى شملت أو غلفت ما بعدها من صفات. ولعل اللفظ (طغى) فى حد ذاته، الذى ذكر فى ستة مواضع فى القرآن، منها ثلاثة كان فاعلها فرعون، يوحى بالعمومية فى تجاوز الحدود فى كل شـىء، وهو ما أشـار إليه القرآن فى قوله تعالى:

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة النازعات]،

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة طه].

إن فرعون تمرد وعتا وتجاوز الحدود واقتضت إرادة الله أن يرسل إليه موسى يدعوه إلى الإيمان والتوحيد، وأن يكف عن استعباد بنى اسرائيل ويفرج عنهم، ويتركهم يخرجون من مصـر، على أن تتصف هذه الدعوة باللين أمام هذا الطاغى المتغطرس لعله يتعظ فيكف عن طغيانه وجبروته ويؤمن بربه ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة طه].

ولا شك أن المدة التى قضاها موسى فى البيت الفرعونى وسابق عهده ومعرفته بالفرعون

(١) تفسير الطبرى.

(٢) المعجم الوجيز.

وبطشه هو ما دعاه هو وأخوه أن يقولا ربنا إننا نخاف إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن يعجل علينا بالعقوبة وأن يفرط علينا، والإفراط هو الإسراف والشطط وأن يتعدى فيزداد طغيانا.

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة طه].

بل إن موسى يتذكر مع ما يتذكر من جبروت الفرعون، يتذكر قتله للمصرى تلك الجريمة التى هرب على إثرها إلى مدين فراراً من العقاب، فيخاف أن يُؤخذ بجريمته أو ذنبه القديم بعد عودته إلى مصر فيخشى أن يُقتل جزاء ذلك.

﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الشعراء].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة القصص].

ولعل تلك الجريمة ظلت ماثلة فى الأذهان وتعيها الذاكرة الفرعونية على الرغم من تقادمها ومضى المدة على حدوثها حتى إنه ذكّر بها موسى عند عودته فقال له:

﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وهذا الخوف من طغيان فرعون إنما كان نتيجة لتقدير موسى للمسئولية التى كُلِّف بها، وأن الله قد بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم عنادا، وأكثرهم جنودا، وأعمرهم ملكا، وأطغاهم وأبلغهم تمردا. وأن الفرعون لن يفرط فى عبيده من بنى إسرائيل بسهولة، فعلى عاتقهم أعمال لا طاقة لغيرهم بها.

كل هذا دفع موسى أن يطلب من ربه أن يشرح له صدره ليعى ما يودعه من وحيه، ولكى يجترىء به على خطاب فرعون، وأن ييسر له أمره فيسهل عليه القيام بما يكلفه به من الرسالة، وأن يطلق لسانه بالمنطق، وأن يَحلُل تلك العجمة التى كانت فى لسانه. تلك اللثغة التى أصابته حين عرض عليه الفرعون التمرة والجمرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه وذلك عن اقتراح امرأة فرعون ترد به عنه عقوبة فرعون حين أخذ موسى بلحيته وهو رضيع لا يعقل[1].

وإنما طلب موسى ما طلب حتى يعلم بنى إسرائيل وفرعون وقومه ما يقوله لهم ويفقهوه. والفقه فى كلام العرب الفهم، وأن يجعل له عوناً من أهل بيته أخيه هارون الذى يكبره فيشدد به أمره ويقوى ظهره.

(١) تفسير ابن كثير ، وتفسيرالقرطبى، وتفسير الطبرى.

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة طه].

وفى اسلوب أدنى لغة يقول سفر الخروج (٣ : ١١) «فقال موسى لله من أنا حتى اذهب إلى فرعون وحتى أُخرج بنى إسرائيل من مصر، فقال إنى أكون معك».

ولقد كان موســى عليه الســلام يخشى أن يكذبه فرعون وقومه فلا يؤمنوا بما جاء به من النبوة والرســالة، فيضيق صدره ولا ينطلق لســانه لتأدية الرسالة ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [ســورة الشعراء]. فهكذا يكون الخطاب.

ويُهدِّىء الله من روعه ويطمئنه:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة طه].

وأجابه الله إلى ما ســأل من شرحه صدره وتيســير أمره وحل عقدة لسانه وتصيير أخيه هارون وزيرا له وشد أزره به وإشراكه فى الرسالة معه.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة طه].

أى لا تخافــا منه فإننى معكمــا أسمع كلامكما وكلامه وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى على من أمركم شىء واعلما أن ناصيته بيدى فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى وبعد أمرى وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى.

وهكذا يتلاشى الخوف ويتسلح موسى بمعية الله وبما أجابه به ربه. ويمضى هو وأخوه هارون ليبلغا رســالة الله إلى فرعون ذلك الطاغى وهما ستشعران أن الله معهما يسمع ويرى ولا يعبآن بطغيان فرعون وغطرسته وبغيه.

التعالى والاستعلاء

وتلازم صفة الطغيان وتشاركها فى الكيان الفرعونى صفة العلو والاستعلاء على خلق الله وقهرهم. والفعل «علا» لم يذكر فى القرآن بصيغة الإفراد إلا فى موضع واحد فى دلالة مباشرة على صفة الاستعلاء فى فرعون وهو ما جاء فى صدر [سورة القصص].

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾. كما لم يذكر لفظ "عالين" فى القرآن إلا فى موضعين أحدهما فى الآية السادسة والأربعين من سورة المؤمنون للإخبار عما وقع من فرعون وملئه عندما أرسل إليهم موسى عليه السلام.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) ﴾ [سورة المؤمنون]، والموضع الثانى فى الآية الخامسة والسبعين من [سورة ص] فى تساؤل من الله تعالى لإبليس عليه اللعنة عندما تكبر عن السجود لآدم وترفع عن طاعة الله.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [سورة ص].

ولعل هذا التعالى والاستعلاء قد ظهر من فرعون وملئه بوضوح فى موقفهم من دعوة موسى وأخيه هارون فهما فى نظرهم مجرد بشرين مثلهم فلم يكونا من الملوك ولا الآلهة كما أن قومهما عبيد لهم ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) ﴾ [سورة المؤمنون].

وتكبّر فرعون وتجبّر وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان فى الأرض، أرض مصر وربما كل ما امتد إليه نفوذه من الأرض، وعلا أهلها وقهرهم حتى أقروا له بالعبودية. وجعل أهلها شيعاً أى فرقا وأصنافاً يشيعونه فى كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضا فى طاعته أو أصنافا فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل ويسخّره فيه من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية، أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم. ويستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل فاستعملهم فى أخس الأعمال وأكدّها، وأرهقهم ليلا ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته المصريين التى يترفعون عنها. بل تعدى ذلك إلى قتل أبنائهم واستحياء نسائهم إهانة واحتقاراً لهم واستعلاءً عليهم، فقد كان المصريون يستقذرونهم وينظرون إليهم من علٍ.

فهل كان هذا التعالى والاستعلاء على بنى إسرائيل واضطهادهم وتعذيبهم العذاب المهين وهذا الإجرام الذى صبَّه عليهم وذلك قبل بعثة موسى عليه السلام، هل كل هذا كان نتاجاً لطبيعة فى الفرعون جُبل عليها، أو خوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى يكون سبب هلاكه وذهاب ملكه على يديه، فقد كان بنو إسرائيل يتدارسون فيما بينهم ما يؤثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه. وذلك فيما يرجح بسبب ما جرى لسارة امرأة الخليل إبراهيم من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى الفرعون فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل[1]. فقد كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا فى منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه يعنون «بيت المقدس» رجل يكون على وجهه هلاك مصر فأمر ببنى إسرائيل ألاّ يولد لهم غلام إلا ذبحوه ولا تولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: اجعلوا بنى إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة فجعل بنى إسرائيل فى أعمال المصريين الذين يترفعون عنها[2].

ربما يصح كل هذا، وربما يصح أيضاً أن اضطهاده لبنى إسرائيل كان لوناً من التعبير عن رفض الأجنبى وكل ما يصدر منه، حيث جاء بنو إسرائيل واستوطنوا وحكموا واستقروا على الأرجح فى عهد ملوك الرعاة (الهكسوس) الغزاة الوافدين. ولعل الذى أوغر صدر فرعون على بنى إسرائيل ربما يرجع أيضاً إلى ما رُكِّب فيهم من ميل إلى العزلة وكراهية الاختلاط مما حجب نفوسهم وولاءهم عن ذلك البلد الذى أثمروا فيه وتوالدوا منذ أن قدموا إليه فى عهد يوسف عليه السلام. ولعله قد فقد الثقة بهم وشك فى ولائهم له، وقد روت التوراة ذلك فى سفر الخروج (١ : ٧ – ١٠):

«وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه، هوذا بنى إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض».

من هنا أخذ يعذِّب بنى إسرائيل ويحمِّلهم ما لا يطيقون من أعمال، فجعلهم خدماً

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير الطبرى ، وتفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير، وتفسير النسفى.

وخــولاً وصنَّفهــم فى أعماله، فصنف يبنون وصنف يحرثون وصنــف يزرعون له. فهم فى أعمالــه ومن لم يكن له صنعة فعليه الجزية؛ فســامهم كما قال الله تعالى ســوء العذاب أو العذاب المهين.

ويشير العهد القديم إلى ذلك كنبوءة لإبراهيم عليه السلام:

«فقال لإبرام اعلم يقيناً أن نســلك ســيكون غريباً فى أرض ليست لهم ويُستبعدون لهم فيُذلونهم أربعة مائة سنة» (تكوين ١٥ : ١٣).

كما ذكر فى سفر الخروج (١ : ١٤):

«فجعلوا عليهم رءوس تســخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينة مخازن فيثوم ورعمســيس. ولكن بحســما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشــوا من بنى إسرائيل فاستعبد المصريون بنى إســرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاســية فى الطين واللبن، وفى كل عمل فى الحقل، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفاً».

وعلى الرغم مما يكتنف هذا النص من مبالغة مفرطة فيما جاء على لســان فرعون من أن بنى إسرائيل شعب أكثر وأعظم من المصريين فكيف يكون ذلك فى مدة لا تتجاوز أربعمائة سنة بقليل وهى المدة التى تمتد من دخولهم مصر فى عهد يوسف عليه السلام إلى خروجهم منهــا كما أشــار إلى ذلك العهد القديم، ولعل الأصدق فــى ذلك أنهم كانوا قلة ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ســورة الشــعراء]، إلا أن هذا النص يشير إلى ألوان العذاب التى كان يذيقها الفرعون لبنى إســرائيل، والتى زاد عليها كما قلنا بذبح ذكورهم اســتحياء إناثهم، فأصدر أمراً إلى القوابل: أن من يســقط فى يدها غلام ذكر تقتله فور نزوله. وزاد فى القتل والتذبيح حتى قال الوزراء له: أفنيت الخدم والحشــم الذين يخدمونك، فأصدر الأمر بقتل الغلمان عاماً وتركهم عاماً آخر[١].

ومــع أن بنــى إســرائيل لم يكونوا بعد يوســف - وكذلك عهدهم دائمــاً - على طريقة مســتقيمة فــى الالتــزام بالتعاليم الدينية، بل مــن المرجح أنهم هبطوا فــى دينهم إلى حد الشــرك، وعبدوا دون الله آلهة من الحيوان والطير. وأغلب الظن أن ما تعرضوا له من ظلم الفرعون كان لوناً من انتقام الله منهم على بغيهم وشــركهم حتى يعودوا إلى التوحيد. غير أن هذا لا يبرر للفرعون اندفاعه فى العذاب وإســرافه فى القتل للمذنب وغير المذنب على السواء وخطأه أو خطيئته هو ومستشاريه.

(١) تفسير الدر المنثور.

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) ﴾ [سورة القصص].

إذاً إنه الاستعلاء والتجبر على طائفة من عباد الله، إلا أن هذا الاستعلاء وهذا التجبر لم يــدم طويلاً فقد أراد الله لبنى إســرائيل أن يمن عليهم ويجعلهم أئمة فى الإيمان وورثة للحكمة والنبوة. فقد قال الله تعالى:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾ [سورة القصص].

وقد فعل ذلك بهم كما قال تعالى:

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ [سورة الأعراف].

ومشــارق الأرض ومغاربها أى جهات شــرق أرض الشام وجهات غربها قد مُلكت للقوم الذين كانوا يُســتضعفون بقتل أبنائهم واســتخدام نســائهم، تلــك الأرض التى بارك الله فيهــا بإخــراج الزروع والثمار والأنهــار والعيون، الأرض التى تفيض لبنا وعســلا. وتمت كلمة ربك الحســنى التــى لا خلاف على حدوثها بما كانوا يحبــون، وذلك جزاء صبرهم على صنيع فرعــون. ودمــر الله ما عمل فرعون وقومه فى أرض مصر وما كانوا يعرشــون من منازل وقصور.

وهكــذا كان جزاءهــم فى الدنيا، وليس لهم من مكانة فى الآخرة لما ارتكبوا من مفاســد واستعلاء ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [سورة القصص].

الإسراف

وترتبط بصفة العلو والاستعلاء صفة أخرى ملازمة لها، ومنعكسة على كل الصفات التى يتصف بها فرعون موســى، وهى صفة الإســراف والتى تعنى لغة مجاوزة الحد. إنه يطغى ويفرط ويســرف فى اســتعلائه وجبروته ويتجاوز حدود كل شــىء. وإنه ليتجاوز الحق إلى الباطل ويجحد بوحدانية الله ويدعى لنفسه الألوهية ويسفك الدماء بغير حق.

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة يونس].

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الدخان].

والإسراف من الصفات المقوته، والتى لا يحبها الله فى عباده حتى فى الطعام والشراب وهو مما يحل للمرء ويحافظ على بقائه، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ولعل مؤمن آل فرعون كان أكثر من رصد هذه الصفة لخبرته الطويلة عبر المواقف والسنوات التى تعامل فيها مع فرعون. فنجده ينعته بهذه الصفة وهو يشير إلى ذلك فى سياق اعتراضه على فكرة قتل موسى عندما أراد فرعون قتله مختتماً هذا الاعتراض بالإشارة إلى أن من ركب فيه من الإسراف والكذب فإن الله لا يهديه.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة غافر].

إنه يضيف فى هذا السياق إلى الإسراف صفة ذميمة أخرى وهى الكذب. وفى موضع آخر يشير إلى هذه الصفة مضيفاً إليها صفة الشك والريبة، ففرعون شاك فى وحدانية الله تعالى مرتاب فى موسى ورسالته وذلك فى سياق تذكيره لقومه بما فعلوه مع يوسف عليه السلام من قبل وتحذيرهم من هذا الإسراف والشك.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة غافر].

وهو فى استمرار دعوته إلى قومه مذكراً لهم بما حدث للأمم التى كذبت برسلهم من قبل، نجده يطيل فى خطابه ببسالة وشجاعة منذراً قومه بأن المكان الطبيعى لكل من يتجاوز الحدود ومن يسرف فى الضلالة هو النار ويعلن براءته مما يفعل فرعون وقومه.

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ

بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة غافر].

هكذا يكون جزاء من يلتزمون الإسراف والكذب أنهم يعرضون على النار صباحاً ومساء ويقال لهم: هذه منازلكم إذا بعثتم. وقيل يعرضون عليها صباحاً ومساء يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم نقمة وتوبيخا لهم، وقيل إنهم لما هلكوا وأغرقهم الله جُعلت أرواحهم في أجواف طير سود فهي تعرض على النار كل يوم مرتين «غدوا وعشيا» إلى أن تقوم الساعة[1]. وهكذا كان صدق الوعد من الله إلى رسله وهكذا كان هلاك المسرفين. ﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الأنبياء].

الكبر والتكبر

والكبر أو التكبر من الصفات التي لا يقبلها ولا يحبها الله تعالى ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النحل].

وفي الحديث القدسي:

«الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته» رواه الحاكم عن أبي هريرة.

«الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة.

وهي صفة أخرى تضاف إلى حزمة الصفات الذميمة التي اُتصف بها فرعون، إنه لا يؤمن أنه سوف يقف بين يدي خالقه ليحاسبه على ما اقترفت يداه، وظن هو ومن معه من جنوده الذين يؤمنون به ولا يعارضونه أنهم لا يرجعون إلى الله.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة غافر].

---

(1) تفسير الطبري، وتفسير القرطبي.

ولقد عاين هذه الصفة مؤمن آل فرعون أيضاً، فهو يذكر هذه الصفة فى سياق نصائحه التى يوجهها إلى قومه فى إخلاص يكاد يقطر به دماء قلبه، مذكراً إياهم بفضل الله عليهم وما حباهم به من نعم ومتبرأً مما يفعل فرعون، ومستعيذاً بالله من ذلك المتكبر المغرور الذى يكذب بآيات الله الواضحة ويجادل فيها بغير حق.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة غافر].

إنه ظن أنه فوق المساءلة وفوق الحساب، فهو ليس ككل البشر وكيف ذلك وهو ربهم وإلههم، لقد ختم الله على قلبه فكيف تكون الهداية وكيف يكون الإيمان.

وعادة ما تصاحب صفة التكبر فيه صفة الجبروت كما عاينها ذلك الرجل المؤمن، فهو جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهى ولا يخاف عذاب الله وعقابه. أو قد تكون هذه الصفة مصحوبة بالاستعلاء على عباد الله ويشاركه فى ذلك ملؤه أى آله أو قومه ومن ساروا على نهجه وكانوا عوناً للشيطان عليه مثل قارون وهامان، فالآيات التالية تشير إلى مشاركة كل هؤلاء له فى الاستكبار:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة يونس].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف].

لقد استكبر هو وجنوده عن عبادة الله رب العالمين وعن اتباع الحق، وطغوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد، واشترك معه أيضاً فى الكبر والاستكبار من كانوا على مذهبه وفرعونيته قارون وهامان، كما فى الآية الكريمة:

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة العنكبوت].

ومما يلفت النظر أن الفعل «استكبر» على الإفراد ذكر فى القرآن فى أربعة مواضع منها اثنان اختص بهما إبليس عليه اللعنة:

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧٤) ﴾ [سورة ص].

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٣٤) ﴾[سورة البقرة].

وموضع للدلالة على فرعون:

﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ (٣٩) ﴾ [سورة القصص].

والرابعة فى الوليد بن المغيرة ﴿ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ (٢٣) ﴾ [سورة المدثر].

أما لفظ متكبر فلم تذكر فى القرآن سوى فى موضعين الأول على لسان سيدنا موسى عليه السلام للدلالة على فرعون.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (٢٧) ﴾ [سورة غافر].

والآخر على لسان مؤمن آل فرعون للدلالة أيضاً على فرعون.

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ (٣٥) ﴾ [سورة غافر].

تـرى مـاذا كانت عاقبـة هذا التكبر وهذا الاسـتكبار، إنهـا جهنم وبئس المصـير إنها مثوى كل متكبر.

﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾ [سورة الزمر]. بلى:

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ (٤٦) ﴾ [سورة غافر].

فها هى ذى جهنم تفتح أبوابها وذراعيها لفرعون وآله ليعرضوا على النار غدواً وعشيا، ولتكون مثوى لهم ولمن على شاكلتهم من المتكبرين المستكبرين.

﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) ﴾ [سورة غافر].

الظلم

والظلـم هو الجور ومجاوزة الحد، أو وضع الشـيء في غير موضعه[1]. ولقد جار فرعون على بني إسـرائيل وسامهم سوء العذاب. وتجاوز حدوده مع موسى عليه السلام وهو يعلم أنه رسـول الله إليهم، بل ومع رب العالمين فصار من الظالمين. بل لقد ظلم نفسـه أو ظلمته نفسـه بادعائه الالوهية وتكذيبه بآيات ربه لقد جاءته آيات ربه فقد فأعرض عنها، أليس في هذا ظلم بيّن.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ [سـورة السجدة].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) ﴾ [سـورة الكهف].

إنه لا ينسى ما تقترف يداه فحسب بل يتناسى عمداً ويتجاهل عن قصد كل هذه الآيات التي لا يمكن التعامي عنها. لقد ران على قلبه وكأنَّ في أذنية وقرا فلم يهتدِ أبدا.

ولقد كان لقومه أو حاشيته جزء من هذا النصيب فصاروا مشاركين له في الظلم بالآيات الكثيرة المتعاقبة على الرغم من أنهم يوقنون بصدق موسى وبصدق ما جاء به من آيات.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ [سورة النمل].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) ﴾ [سورة الأعراف].

ولقد شاهد موسى هذا الظلم من فرعون وحاشيته، ورآه أمام عينيه طوال المدة التي قضاها في القصر الفرعوني وقبل بعثته وتكليفه بالرسـالة. فنـراه يدعو الله وهو خارج من المدينة خائفاً يترقب أن ينجيه من القوم الظالمين.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾ [سورة القصص]. لقد أراد موسى أن ينتصر لهذا المظلوم الذي اسـتغاث به ولم يشـأ أن يقتل القبطي ولم يتعمد ذلك. وعندما

---

(١) المعجم الوجيز.

قُـدِّر له النجاة ووصل إلى مدين، وقص على النبى أو الرجل الصالح «شـعيب» قصته وأنه مطارد ومطلوب دمه، طمأنه بنجاته من القوم الظالمين:

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سـورة القصص].

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وعندما جاءهم موسـى بالهدى والبينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى، وأنهم لم يسمعوا بهذا فى آبائهم الأولين. فأشار موسى فى رده عليهم بأن هذا ظلم منهم وأنه لم يدع ما جاء به بل هو رسول من رب العالمين حقيق على ألا يقول إلا الحق والله يعلم أنه جاء بالهدى وأنه لا فلاح للظالمين.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة القصص].

ولقد لمس بنو إسـرائيل هذه الصفة فى الفرعونية وقاسـوا منها الكثير، إنهم فى توكلهم على الله يتوجهون إليه بالدعاء ألا يسلط فرعون وحاشيته عليهم فيزدادوا فتنة أو يفتنونهم ويضلونـه، طالبين من الله ألا يعذبهم بأيـدى قوم فرعون ولا بعذاب من عنده، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما سُلطنا عليهم ولا عذبوا فيفتنوا بنا، ذلك أنهم قوم يتجاوزون الحدود فهم ظالمون.

﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [سورة يونس].

بل إن زوجة فرعون نفسـها قد لمسـت هذه الصفة فيه وفى حاشـيته فطلبت من الله أن ينجيها منه ومن ظلمه فقالت:

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الأنبياء]. وإن الكذب بالآيات الواضحة والكفر بها لظلم واضح لا مراء فيه:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ

﴿ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤ ﴾ [سورة الأنفال]. وكانت العاقبة التى أخذه الله بها نكال الآخرة والأولى (الألوهية والربوبية) هو ومن عاونه من حاشيته، وجنوده جزاء اشتراكهم له ومعاونتهم إياه فى هذا الظلم البين.

﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ [سورة القصص].

﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩ ﴾ [سورة يونس].

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ ﴾ [سورة الزخرف].

إن الله يمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ ﴾ [سورة هود].

احتقار الآخرين والسخرية منهم والاستهزاء بهم

إن استعلاءه وتكبره دفعاه إلى احتقار الآخرين والسخرية منهم والتقليل من شأنهم. إنه فى هذا أيضاً يسرف ويتجاوز الحدود فيتعدى استعباده وتعذيبه لبنى إسرائيل واحتقاره لهم إلى موسى نفسه.

فها هو ذا يستهزئ ببنى إسرائيل ويصفهم بأنهم إن جاز لنا ما يدرج على ألسنة العوام «حثالة» فيقول فى استعلاء:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ ﴾ [سورة الشعراء].

أى طائفة قليلة لا يحسب لها حساب وقلة لا يقام لها وزن. والشرذمة الجمع الحقير القليل والجمع شراذم، وقيل الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشىء، وثوب شراذم أى قطع[1]. أما الغيظ فهو تغير يلحق الإنسان من مكروه يصيبه، وأصل هذه الكلمة فى المصرية القديمة غاوت بمعنى غاضب، وظهرت فى عصر الدولة الحديثة.

إنه يهوّن من هؤلاء القوم فى تعمد منه، فهم فى نظره حفنة قليلة لا وزن لها ومع ذلك لا يخلو هذا التهوين من التخوف الذى يلازمه التحذير حتى لا يؤدى هذا التهوين إلى عدم الحيطة والاهتمام فيزداد الخطر.

---

(١) المعجم الوجيز.

ولعل هذه الصفة توضحها الآيات القرآنية بجلاء عند تناولها للحوار بينه وبين موسى عليه السلام فيقول:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [سورة الشعراء].

إنه يوصمه بالجحود والكفر على الرغم من أن موسى ذلك الرسول الكريم إنما جاء بالهدى والرشاد والنجاة. ويعود فيذّكر موسى بما كان له ولآبائه من فضل عليه، مستنكراً أن يكون هذا الذى يدعو إليه جزاءً لهذا الإحسان والتفضل. ويذّكره بما ارتكبه من جريمة قتل المصرى، وكفره وجحوده بما وهبته له هذه البلاد من مأوى له ولأهله، وما أعطته من نعم، فهو الآن من الكافرين لنعمته عليه وتربيته إياه هو أو آبائه.

وقد يلجأ إلى ما يلجأ إليه العاجز من السباب، فيتبع هذه الإهانة لموسى بإهانة أخرى، فيعايره بفقره وضعفه أو قلة شأنه، وأنه لا ملك له ولا مال ولا سلطان أمام سلطانه الواسع وملكه لمصر وما فيها من أنهار وكنوز. فنجده يفتخر أمام قومه بملكه لمصر تلك التى كانت فى أوج عظمتها وكانت جنات وأنهارا لا ينازعه فيها أحد. فلقد كانت للنيل أذرع كثيرة منها ما يجرى تحت قصوره فيتباهى بهذا المُلك وهذه العظمة فى إشارة إلى هوان موسى عليه السلام وفقره:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾ [سورة الزخرف].

إنه يقول لقومه ألا ترون ما أنا فيه من العظمة والمُلك مقارنة بهذا الفقير الضعيف، ونراه فى استخفافه واحتقاره يندفع فى وابل من سوء الأدب على الأقل فى الحوار فيصف موسى بأنه عيى اللسان لا يكاد يعبر عما فى نفسه، فلا يفهم السامعون كلامه بينما هو طلق اللسان فيقول:

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾ [سورة الزخرف].

وقيل «أم» زائدة أو بمعنى بل[(١)]، أى بل أنا خير من «هذا» إشارة إلى موسى احتقاراً منه له، ومضيفاً إلى ذلك احتقاراً صريحاً بقوله «الذي هو مهين» أى حقير أو ضعيف أو لا عز له، يمتهن نفسه لحقارته وضعته. (ولا يكاد يبين) يعنى لا يكاد يفصح عن كلامه للثغته

(١) تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى، وتفسير الطبرى، وتفسير فتح القدير.

التى فى لســانه أو لا يكاد يفهم. إنه يعايره بعقدة لســانه ذلك العيب الخلقى الذى لازمه منذ صغره. ولعله فى هذا يبالغ على موسى عليه السلام، فإنه وإن كان قد أصابه فى حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة المعروف قصتها، فقد سأل موسى ربه أن يحل عقدة من لسانه حتى يزول ذلك العيب فيُفهم منه ما يقول، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بقدر هذه الحاجة. وقد اســتجاب الله له فقال ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يســألون إلا بحســب الحاجة. ولهذا بقيت بقية قال الله تعالى إخبارا عن فرعون عندما عايره بها: «أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين».

ومع هذا فالأشياء الخِلقية التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها. وفرعون لعله يدرى هذا ويعى رســالة ودعوة موســى ويفهمها، غير أنه أراد الترويج والتمويه على رعيته لظنه أنهم جهلة أغبياء[1]، إنه يعيب على العرض لا على جودة المعروض.

ويتحــدى موســى أن يملك ولو بعض الأســاور مــن الذهب أو رجــالاً وملائكة يحمونه ويشهدون بصدقه ويعاونونه على من يخالفه، قائلاً فى تحد واستهزاء:

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [ســورة الزخرف].

ولعل فرعون يشــير ضمناً إلى نفوذ موســى الضعيف أمام نفوذه القوى المســتمد من ذلك الثراء وتلك الكنوز الكثيرة من الذهب. ذلك الذهب الذى مكّن للفرعون وللمصريين كثيرا من شــئون الحياة، إذا استطاعوا به فى التجارة والاقتصاد شراء ما عز فى بلادهم واضطروا إلى اســتيراده ممن حولهم من أمم وأقطار، فكان أن تمتعوا بفضله بالرفاهية وخفض العيش[2]. ولعل ذلك يمكن الاســتدلال عليه مما تم عشــية خروج بنى إســرائيل وكيف احتالوا على نســاء جيرانهم من المصريين فســلبوهم حليهن ومن ذهبهن ما أتاح للسامرى من أن يخرج لهم عجلاً جســداً له خوار. كذلك اســتطاع المصريون بالذهب أن يحرزوا من النفوذ والمنزلة السياسية والسلطان ما لا تكاد الجيوش المحاربة أن تحرزه بالغارة والعدوان، فامتد بفضله نفوذهم حيث لا تســتطيع الجيــوش الوصول فيما وراء مناطق نفوذهــم الطبيعية مما جاور مصر من الولايات. فكان أن تولى الذهب مكان الجيش فى السياسة وإحراز النفوذ. وأصبح

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) أحمــد عبــد الحميد يوســف (دكتور)، مصــر فى القرآن والســنة، الهيئــة المصرية العامة للكتــاب، ٢٠٠١، ص ٢٢٩.

المصريون يشـــترون به الحلفاء فى آســيا إذا فشـــل الســـيف. ولا يتوقف الحال من الإعزاز بالذهب على امتلاكه فحسب بل وعلى ما وصلت إليه تكنولوجيا استخراجه وفنون صياغته وتشكيله التى برع فيها المصريون براعة ملحوظة، كما أنه السلعة التى لا تبلى ولا ينطفىء بريقها. فلا عجب هنا من أن يفتخر الفرعون بأساور الذهب (صورة ٣ و ٤).

ويعود فرعون فيوصم موسى بالكذب فى إطارٍ من السخرية عندما يطلب من وزيره هامان أن يبنى له صرحاً عالياً ليرى إله موسى، قائلاً:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ســورة القصص].

والصــرح هو كل بناء عال وجمعه صــروح، وأصل كلمة صرح فى المصرية القديمة Srh «ســرخ» بمعنـــى واجهة قصــر أو بوابة معبد، وظهرت فى الأســرة الثامنة عشــر، وتعنى بالعربية البناء العالى الذاهب فى السماء كما يحددها المعجم الوسيط، الجزء الأول.

ولقــد طلب فرعون مــن وزيره أن يبنى له برجاً عالياً مــن الطوب المحروق أى الآجر، ليصعد عليه فى السماء ويرى إله موسى! إمعاناً فى تكذيب موسى والاستهزاء به.

وكلمة أســباب أصلها فى المصرية القديمة isbt «اســبت» بمعنى «قبة الســماء» وظهرت هذه الكلمة فى عصر الأســرة الثامنة عشر فى نصوص تل العمارنة، وهى تعنى فى العربية الفصحى كنه أو سر السماوات[1].

وقيل إنه بنى فعلاً بناء عالياً وصعد عليه ثم نزل فقال للناس، لم أجد الإله الذى يقول به موســى وعليه فهو من الكاذبين. وقال لهم ما علمت لكم من إله غيرى، وقيل: إنه لما بنى الصرح ارتقى فوقه وأمر بنشابة فرمى بسهم نحو السماء فرد إليه وهو مضرج دماً فقال قتلت إله موسى[2]، وكذلك زُيِّن له سوء عمله، وتعالى الله عما يقول.

بل إنه يتجاوز الحدود فى ســوء أدبه فيوصم موســى باعتلال العقل نافياً أن ما جاء به يتفــق والمنطــق، وواصفاً إياه أنه يتكلم بكلام لايعقله ولا يعــرف صحته، وكان عندهم أنه مــن لا يعتقد ما يعتقــدون ليس بعاقل. أو ربما يحاول أن يلصق به تهمة الجنون فلا يعقل ما يقول، قائلاً فى سخرية وموجهاً حديثه إلى ملئه.

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، دراسة حول تطور علاقة موسى بالمسئول فى مصر فى الفترة التى عاش فيها، مجلة التاريخ والمستقبل، العدد الثانى، يوليو ٢٠٠٠.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير القرطبى.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الذاريات].

وأعـرض فرعون عن الإيمان وتولى بركنـه أى بما كان يتقوى به من عز وجنود، والركن هو اسـم لما يُركن إليه أو يعتمد عليه ويُتقوى به. ونسـب ما جاء به موسـى من معجزات وآيات إلى السـحر أو الجن. وقال عن موسـى: إنه ساحر يسحر عيون الناس أو مجنون به جنـة. وقيـل: إن «أو» هنا بمعنى الواو لأنه قد قال ذلـك جميعا، كقوله تعالى: «ولا تطع منهم آثما أو كفورا»[1].

وبعـد أن انقطعـت حجته بالبيـان والعقل، ونفد صبره نجده يتجاوز السـباب اللفظى والسـخرية من موسى واحتقاره له إلى الاستعلاء والتجبر بالوعيد والتهديد واستعمال بطشه وسلطانه فتارة بالسجن:

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ما هذا إلا إرهاب الفرعونية المتوقع. ويقال: إن سـجن فرعون كان مخيفاً وفظيعاً وأشـد من القتل، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى مكان تحت الأرض وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه أحداً[2] ولا يخرجه حتى يموت[3].

ولقد كان للقدماء المصريين سـجون ولكنها لم تسـتعمل إلا لحجز من ينتظرون الإعدام، والحجز الوقائى. وفيما عدا ذلك لم تستعمل تلك السجون إلا لإيواء المحكوم عليهم بالعمل الإجبارى وفى أشغال الرى والمناجم والحقول[4]، وهو ما يسمى اليوم بالأشغال الشاقة.

ولقد أشـار القرآن الكريم إلى حال السـجن والسجين فى سورة يوسف وأنه كان مع ذلك يُقدم له الطعام يومياً، وقد يقول البعض بأنه قد يختلف حال السجن بحال الجريمة ومقدار العقوبة، ويمكن الرد على ذلك بأن الجريمة التى اتهم بها يوسف لم تكن هينة فقد كانت متعلقة بشـرف وسمعة العزيز، وجريمة صاحبيه كانت متعلقة بالملك نفسه. غير أنه يمكن القول أيضاً بأن قسـوة العقاب والتشـديد فى تنفيذه قد تختلف من حكم إلى آخر ومن زمن إلى آخر حيث اختلف زمن موسى عن زمن يوسف عليهما السلام.

ويعود فيهدد الفرعون موسـى ولكن بالقتل هذه المرة سـائلاً خاصة قومه أن يسمحوا له

---

(١) تفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير الجلالين.

(٣) تفسير فتح القدير.

(٤) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٢٢٦.

ويطلقوا يده فى قتل موسى، وربما قال هذا لأنه كان فى خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب. وهو فى هذا يتظاهر بالإشفاق عليهم، ويدعى أنه يخشى أن يضل موسى الناس ويغير نمط حياتهم وعاداتهم، فيسوى بينهم وبين عبيدهم من بنى إسرائيل، ويوقع بين الناس الخلاف والفتنة، أو أنه يقصد بالإفساد فى الأرض ترك عبادته إلى عبادة الله الواحد.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

ونتيجة لهذا التهديد المستمر يلجأ موسى إلى ربه معتصماً ومستجيراً به من أن يؤذيه هو أو قومه شتماً أو رجماً بالحجارة فيقول:

﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الدخان].

إنه يستعيذ بالله الذى خلقه وخلقهم من أن يصلوا إليه بسوء من قول أو فعل، من سب أوشتم أو رجم بالحجارة أو تهديد بالقتل. ويتساءل فى تعجب، عندما اتفق البعض من بنى إسرائيل مع المصريين فى إيذائه مثل قارون وغيره، لماذا يتعدون عليه بالإيذاء مع ما يحمله لهم من الهداية والرشد، ومع صدقه فيما جاءهم به من الرسالة:

﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الصف].

ويأتيهم بالآيات الواضحة فيضحكون فى سخرية مجنونة:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

إنهم بهذه السخرية الفجّة يهلكون أنفسهم فى بلاهة عجيبة.

ويطلب منهم فقط أن يرسلوا معه عباد الله من بنى اسرائيل ويطلقوهم من العذاب، وهو الأمين فيما يبلغ عن ربه من رسالة.

﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الدخان].

فلا يستجيبون له، وأمام هذا الإعراض وهذا الإيذاء والسخرية، يطلب منهم موسى ما داموا لا يصدقونه ولا يؤمنون به ألا يتعرضوا له. وأن يكفوا عن أذاه ويتركوه وشأنه، وأن يكون فى معزل عنهم فلا يكونوا معه ولا يكونوا ضده، وأن يكون هناك اتفاق للهدنة والمسالمة إلى أن يقضى الله بينهم.

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الدخان].

ولمَّا طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله تعالى عليهم دعا موسى ربه إذ كذبوه ولم يؤمنوا به. ولم يؤدوا إليه عباد الله، وهمُّوا بقتله، ويستقوون بمالهم وسلطتهم عليه، بأن هؤلاء يعنى فرعون وقومه قوم مسرفون فى الذنوب مشركون بالله كافرون به ولا أمل فيهم.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الدخان].

الإجرام وشهوة الانتقام

أجرم أى اقترف ذنباً. وفرعون لم يقترف ذنباً واحداً، إنها جرائم وذنوب كثيرة فى حق نفسه ثم فى حق قومه وفى حق بنى إسرائيل.

إن تكذيبه بالآيات وعدم إيمانه بها على الرغم من وضوحها وتعددها وتتابعها، وتماديه فى العناد، وتعذيبه لبنى إسرائيل، واستعلائه على الغير، وظلمه ومجاوزته للحدود وغيرها مما اقترف، جميعها ذنوب اقترفها فى حق نفسه فصار من المجرمين.

والظلم لون من ألوان الإجرام وهو درجات أعلاها وأشدها عتواً الافتراء على الله، كادِّعاء الالوهية والربوبية وهو محض افتراء وإجرام واضح. كما يندرج تحت طائلة الإجرام التكذيب بالآيات الواضحة والتى لا لبس فيها. فهل مع هذا الإجرام يمكن أن يكون الفلاح فى الدنيا أو الآخره.

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة يونس].

إن فرعون أجرم لا شك فى ذلك واشترك معه فى هذا الإجرام من ساعدوه من آله، ومن يحيطون به مثل قارون وهامان. ولم يقوموا بما يتوجب عليهم القيام به من محاولة إثنائه عن غيه مثلما كان من ذلك الرجل المؤمن من آله. بل نجدهم على العكس من ذلك يرون الآيات أمامهم ثم يشتركون معه فى التكذيب بها والتعالى والاستكبار عن الإيمان بالله ليجمعهم الإجرام فى خندق واحد. قال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة يونس].

﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

كما أشار القرآن إلى أن قارون، الذى كان من قوم موسى وكان من أقرب الأصدقاء إلى الفرعون، كان من طائفة المجرمين بتعاليه واغتراره وتكذيبه.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

ولقد أشار القرآن إلى هذه الصفة فى فرعون وذلك فى بيان صريح على لسان موسى تعليقاً على ما حدث من أمر العصا والسحرة يوم الزينة والهزيمة الفاضحة للفرعون، فقال تعالى:

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة يونس].

وهذا ما أكده السحرة أيضاً وهم يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم ويرغبونه فى ثوابه الأبدى.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة طه].

فهو بحق العدو المجرم الذى كان لنبى الله موسى عليه السلام.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الفرقان].

وتعددت أوجه إجرامه، فقد أجرم فى حق قومه بتضليله لهم وتخويفهم من اتباع موسى وإرهابهم.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة يونس].

والذرية القليل أو هم أولاد الذين أرسل إليهم من طول الزمان ومات آباؤهم. ولقد اختلف فى الهاء التى فى (قومه) قيل: هى راجعة إلى موسى وأراد بهم ذرية قليلة من بنى إسرائيل الذين كانوا بمصر آمنوا بموسى وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوهم[١].

وقيل[٢] الهاء راجعة إلى فرعون فهم أناس يسيرون من قوم فرعون آمنوا بموسى منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه وماشطة ابنته. وقيل: هم أقوام آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل[٣].

(١) تفسير الطبرى.

(٢) تفسير القرطبى.

(٣) تفسير فتح القدير.

وقيــل هم قــوم نجوا من قتل فرعون وذلــك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بنى إســرائيل كانت المرأة من بنى إسرائيل إذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا من القتل فنشأوا عند القبط وأســلموا فى اليوم الذى غلبت الســحرة. وسموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل(1).

وفى الحالتين ســواء كانوا من بنى إســرائيل أم من المصريين فإن القوم كانوا يخشــون الفرعون وبطشه وإجرامه.

وأمام إجرام فرعون وقومه، إذ كذبوه ولم يؤمنوا به ولم يؤدوا إليه عباد الله وهموا بقتله، لم يجد موسى عليه السلام إلا أن يتوجه إلى ربه بالدعاء واصفاً إياهم بالإجرام.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الدخان].

ولعل صفة الإجرام فى الفرعونية تظهر بوضوح فى تعامل فرعون مع الســحرة، ومع من آمن بموســى من بنى إســرائيل. فنجده يتفنن فى التنكيل بالسحرة مبدعاً نوعاً جديداً من القتل لم يكن معروفاً من قبل، وهو التصليب على جذوع الأشــجار وقطع الأيدى والأرجل مــن خــلاف، أى يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليســرى أو بالعكس. فهو أول من صلب وأول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف(2).

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

لقد تملكته شــهوة الانتقام المســعورة مــن هؤلاء الذين خذلوه، والذيــن رأوا الحق أمام أعينهم فاتبعوه وآمنوا بآيات ربهم لمّا جاءتهم دون استئذان منه. فكان جزاؤهم هذه الجريمة الغريبة والعقوبة المســتحدثة التى تفتق حقد فرعون عنها. فلقد اتبع المصريون القدماء طرقاً مختلفــة لتنفيذ عقوبة الموت كالخوزقة وقطع الرقبة والحرق والإغراق والافتراس بواســطة أحد الحيوانات المفترسة(3).

وفى الجرائم الأخرى كانت عقوبة البتر أو قطع العضو المتســبب فى الجريمة مثل جدع الأنــف أو بــتر الأذنين أو قطع اليدين أو قطع اللســان أو عقوبة الكــى بالنار بالإضافة إلى عقوبة الضرب التى تعتبر عقوبة تعزيرية يقرها القانون المصرى كعقوبة للجرائم غير الكبرى. كما عرف المصرى القديم الضرب كعقوبة جسدية تمثلت فى عدد معين من الضربات كمائة

(1) تفسير البغوى.

(2) تفسير النسفى؛ وتفسير ابن كثير.

(3) منال محمود محمد محمود، الجريمة والعقاب فى مصر القديمة، مطبعة المجلس الاعلى للآثار، ٢٠٠٤.

أو مائتى ضربة ربما اختلفت تبعاً لدرجة الجرم[1]. هذا بالإضافة إلى عقوبة العزل من المنصب أو النفى، والعقوبات السالبة للحريات مثل عقوبة السجن والتى كانت عقوبة لمجموعة من الممارسات الإجرامية هى الاعتداء على الآخرين بالضرب، والهروب من الأعمال العسكرية أو الأعمال العامة المتعلقة بحقوق الدولة على مواطنيها، وعقوبة الأشغال الشاقة «العامة» فى المحاجر. وكان اختيار وسيلة التنفيذ يخضع لتقدير القاضى، ربما كان ذلك وفقاً لطبيعة الجرم وأحيانا كانت هذه العقوبة يصاحبها وسائل تعذيب كالحرق مثلاً.

ولم ترد مثل هذه العقوبة الغريبة التى ابتكرها الفرعون مع السحرة إلا فى هذا الموضع وكانت سُنَّة اتبعها بعض المجرمين فى التاريخ الإنسانى من بعده. وأمام هذا الانتقام المتحفز للفرعون كان الثبات على الحق، فقال السحرة:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ويثبت السحرة على إيمانهم وموقفهم رغم كره الفرعون وحاشيته.

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة يونس].

ومن جملة ما اقترف فرعون من آثام مع بنى إسرائيل إيذاؤه لهم واستعبادهم وإذلالهم وقتل أبنائهم قبل بعثة موسى لقول بعض الكهنة له أن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يكون سببا لذهاب ملكك، ويشترك ملؤه ومن هم على دينه فى ذلك معه.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة إبراهيم].

وفى سفر الخروج (١ : ٢٢):

«ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه فى النهر، وكل بنت تستحيونها».

نعم إنه كرب وابتلاء عظيم، عبودية وعذاب وذبح للأبناء واستبقاء النساء للخدمة.

(١) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، المرجع السابق.

وهذا الإجرام والإذلال بعد أن هدأ وسكن فترة من الزمن، يعود مرة أخرى بعد بعثة موسى عليه السلام فيتدرج من التهديد الصريح ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف] إلى اتخاذ القرار بالقتل فها هى ذى شهوة الانتقام والإجرام تتلبسه فتعميه وتضله فيأمر ملأه:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة غافر].

إنهم الآن يشرعون فى التنفيذ ويشاهد بنو إسرائيل أبناءهم وهم ينتزعون من بين أيديهم ليذبحوا أمام أعينهم، إنه لأمر عظيم. وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى كان لوناً من الإذلال و «التركيع» لبنى إسرائيل الذين رأوا فى بعثة موسى مع هذا الإجرام المستمر أنها تنقذهم مما هم فيه من الشقاء والعذاب والإيذاء.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة الأعراف].

ولقد أشار العهد القديم إلى هذا فى لغة لا ترقى إلى لغة خطاب نبى لربه فقد جاء فى سفر الخروج (٥: ٢٣) على لسان موسى:

«لماذا أرسلتنى فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تخلص شعبك».

وأمام هذا الإجرام السافر من الفرعونية والعذاب المستمر، يطلب بنو إسرائيل من موسى أن يكف عنهم فيخدموا المصريين فلا يتعرضوا لآذاهم، ولا يطالبهم بالخروج، وهذا ما أشار إليه العهد القديم من كلام على لسان بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر.

«أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين. لأنه خير أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية». الخروج (الإصحاح ١٢ :١٤).

ولقد تعدى هذا الإجرام أو أوشك إلى موسى عليه السلام فيحاول فرعون أن يستصدر قانوناً يبيح له قتل موسى أو إباحة دمه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة غافر].

ويبدو أن فرعون كان يهاب موسى ويخشى على نفسه من مغبة الاعتداء عليه ربما لإيمانه

الداخلى بقوة موسى المستمدة مما يدعو إليه من الحق وإلا لأمكنه تنفيذ ذلك بسهولة دون الحاجة إلى الاستئذان أو محاولة استصدار قرار بذلك. فنفهم من النصوص القديمة أن التعرض للفرعون بالقول الذى لا يليق به أو سبه كان أمراً بالغ الخطورة[1]. وقد سجلت قطعة اوستراكا بالمتحف المصرى بالقاهرة تحمل رقم O. Cairo 25556 من عهد سيتى الأول قضية حاول فيها الملاحظ «حاى» أن ينفى هذه التهمة الخطيرة عن نفسه، فذكر أن ثلاثة عمال وامرأة قد اتهموه بأنه شتم الملك الحاكم: «هم قالوا أشياء بخصوص جلالة الفرعون له الحياة والصحة والعافية ضد حاى: هو نطق شتائم ضد سيتى».

ثم ذكر المدّعون فيما بعد أنهم لم يسمعوا مثل هذه الكلمات من الملاحظ، وأنهم ليس لديهم اتهام يحضرونه ضده. وهو ما يوضح مدى حرص الملاحظ على نفى مثل هذا الاتهام عنه، والنجاة بنفسه مما يمكن أن يصيبه من جرّاء مثل هذه التهمة. وهذا ما يتطابق مع ما سجل فى الاعترافات الإنكارية فى كتاب الموتى إذ يذكر المتوفى «لم أعب فى الذات الملكية».

كما كانت مخالفة أوامر العرش من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام ولعل ما يثبت ما نقول من خشية الفرعون موسى وتردده فى قتله أنه (هو أو أبوه من قبله) قد أصدر أوامره للآباء من بنى إسرائيل بالإبلاغ عن أطفالهم الذكور فور ولادتهم وأن عقوبة الموت تنتظر من يخالف أوامره.

ونظراً لبشاعة الجرائم التى ترتكب ضد الفرعون أيا كانت صورها وأشكالها، فقد قضى المشرع المصرى القديم بألا يدفن مرتكب هذه الجرائم فى مقبرة، إشارة إلى حرمانه من الحياة الأخروية، فذكرت لوحة بالمتحف المصرى بالقاهرة تحمل رقم O:Cairo 20538 من عصر الدولة الوسطى "لا توجد مقبرة لمن يرتكب جريمة "يثور" ضد جلالته، جثمانه سيلقى فى النهر".

أو ربما أنه يريد بقوله «ذرونى أقتل موسى» أنه يريد قتله بتهمة قتل القبطى تلك التهمة القديمة. فلم تكن عقوبة الإعدام أو القتل توقع إلا على الجرائم الخطيرة والتى وصفها المصرى القديم بأنها جرائم عظمى تستحق الموت، كما وصفت أيضاً بأنها فساد كبير فى الأرض وما يمقته كل الآلهة جميعاً. ويأتى على رأس هذه الجرائم جريمة القتل العمد وكذلك من يتواطأ مع القاتل أو يمتنع عن مساعدة القتيل «القتل بالامتناع» أو التستر على القاتل وعدم الإبلاغ عنه. كذلك جرائم الخيانة العظمى التى توجه للفرعون بكل صورها وأشكالها كالتآمر على قلب نظام الحكم أو إفشاء الأسرار الملكية أو مخالفة أوامر العرش.

---

(١) منال محمود محمد محمود: المرجع السابق.

وقد فرق القانون المصرى القديم تفرقة واضحة بين القتل العمد والقتل الخطأ، ولقد توصل المصريون القدماء إلى فكرة العمد الجنائى بتعبيرنا الحديث مع سبق الإصرار والترصد. وهو تعبير يحمل فى طياته توفر عنصر النية والقصد التى تسبق الفعل. فوثيقتى Rollin و Lee (عهد رمسيس الثالث) قد حكت لنا المؤامرة التى دبرت لاغتيال رمسيس الثالث وما حاق بالجناة من جزاء، فقد أشارت أيضاً إلى ما يفيد القصد الجنائى والنية المبيتة العمدية فى محاولة قتلهم رمسيس الثالث حيث يذكر النص:

«لقد حقق معه ووجدت الحقيقة فى كل اعتداء وكل جريمة نوى قلبه أن يفعلها». فيؤكد تعبير «نوى قلبه أن يفعلها» توفر عنصر النية فى ارتكاب الجرائم وأن الواقع قد صدق على ما قد وقر فى القلب فالنية يصدقها العمل. وكان القلب يمثل فى نظر المصرى القديم العقل الذى يدبر به الأعمال وهو موضع النوايا ومحلها.

وكان القتل العمد الذى يتوفر فيه عنصرا الإصرار والترصد يجازى فى مصر القديمة بعقوبة الموت الكبرى أو الإعدام. وقد علل ديودور الصقلى ذلك بقوله: «إن المصريين كانوا يستفظعون ذلك الذى كان يعتدى على جسد أحدهم».

ولعل ما ورد فى القرآن الكريم ووصفه هذه العقوبة كجزاء للقاتل تعد أعلى الوثائق صدقاً وأعلى النصوص التى توفر لها شرط التواتر التاريخى وهو أعلى درجات الثقة التاريخية لنص ما، حيث يقول عز وجل على لسان موسى عندما فر هاربا خوفاً من أن توقَّع عليه عقوبة الإعدام كجزاء لقتله المصرى.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

هذا الذى توضحه الآية الكريمة:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة القصص].

على أن موسى بانتصاره للذى هو من شيعته وقتله المصرى (القبطى) قد تورط فى قتل عن غير عمد، ولكن الذى لا شك فيه أنه قتل. فخاف أن يطلب القصاص منه بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه ففر هارباً من مصر، ثم عاد إليها بعد حين من الزمن ربما بعد أن سقطت العقوبة أو الدعوى الجنائية بالتقادم أو بمضى المدة[1]، وإن كنا لم نعرف هذه المدة التى تنتهى بها أو تسقط بها العقوبة، إلا أن ما نعرفه هو أن القتل العمد كان جزاؤه الموت. ونعود إلى صفة الإجرام فى الفرعون فنقول: إن هذا الإجرام شمل كل من آمن بموسى حتى

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، المرجع السابق.

زوجته «آسية»، والتى سألت الله تعالى أن ينجيها من إجرامه وتعذيبه فقالت:

﴿ ... رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة التحريم].

ولقد عذبها فرعون بأن أوتد يديها ورجليها وألقى على صدرها رحى عظيمة واستقبل بها الشمس(1)، فكانت إذا تفرق عنها من وكل بها ظللتها الملائكة إذ قالت فى حال التعذيب ﴿ ... رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة التحريم] (أى وتعذيبه وضلاله وطغيانه واسرافه فكُشف لها فرأته فسهل عليها التعذيب والظلم).

كما لم يسلم من عذابه وإجرامه ماشطة ابنته التى سبق ذكر ما حدث معها. وأوشك هذا الإجرام أن يطول ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون الذى ينادى بالحق ويحمل لقومه مشاعر الحب ويخاف عليهم من سوء العاقبة. فعندما يئس فرعون من أن يسكت صوته بالرجاء والحيلة، يلجأ إلى إسلوب الإرهاب والإجرام، فيدبر فيما يبدو لقتل هذا الرجل وكتم هذا الصوت، لولا أن وقاه الله سيئات هذا المكر، وهو ما دلت عليه الآية الكريمة:

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة غافر].

وإن سنن الله فى كونه تقتضى أن يحيق بفرعون وآله سوء العذاب. فقد قال الله تعالى:

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة السجدة].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة يوسف].

فماذا يُتوقع أن يكون الجزاء لهؤلاء المجرمين:

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة القمر].

﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ ﴾ [سورة مريم].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ

(1) تفسير القرطبى، وتفسير ابن كثير.

فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الصافات].

التفرد بالرأى أو الديكتاتورية

ويستمر القرآن فى فضح الفرعونية الملعونة، والكشف عن وجهها القبيح وتعرية مثالبها. ومن هذه المثالب إعجاب فرعون برأيه والتفرد به فى ديكتاتورية ظاهرة غافلاً عامة شعبه، غير عابىء بمستشاريه، فلا رأى إلا رأيه ولا علم إلا ما يعلم، متصوراً أو مضللاً لهم أنه يهديهم إلى الحق والرشاد. لقد صادر عقولهم وأفهامهم واعتبر نفسه الوحيد الذى ينطق بالحقيقة والهداية والرشد وما سواه لا يؤبه به ولا يُسمع لرأيه.

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة غافر]. أى ما أريكم أيها الناس من الرأى والنصيحة إلا ما أرى لنفسى ولكم صلاحاً وصواباً، وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

إنه لا يجد من حاشيته معارض يرفع صوته بالاعتراض والرفض، ليس فيهم رجل شجاع ينطق بالحق ويتفوه بالصدق ويرفض ألوهيته سوى عدد لا يكاد يذكر، ذرية قليلة. وعلى العكس هناك الكثير والجمع الغفير ممن يتملقه ويطيعه. فيستمر فى تجاهل قومه مستخفاً بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم فهم ينساقون وراءه فى سلبية مفرطة.

ودون مشورة ودون روية أو إعمال عقل يصدر أحكاماً جزافية، فقد حصر رأيه فى موسى بأنه ساحر أو مجنون:

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الذاريات].

بل ويستولى على ظنه أحياناً كثيرة أن موسى ساحر وكذاب:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

والظن دون الاعتقاد، ولعل القول بالظن فى كون موسى ساحراً مرة أو كاذباً أخرى هو أسلوب من التشكيك فهو لم يذكر ذلك على سبيل الجزم والحتم، وإنما ذكر ذلك على سبيل التشكيك ليثير الشكوك عند من يستمع لموسى ولمؤمن آل فرعون. غير أنه يعود فيقرر عن موسى فيقول:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وعندما لا يجدى هذا الأسلوب ويثبت فشله يعود فيقرر ويؤكد، بعدما رأى الآية الكبرى والتقاف عصا موسى لعصى السحرة يوم الزينة يوم حشر الناس جميعا، بأن موسى ساحر عليم بفنون السحر وأصوله.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه].

إنه يروّج معلومات مضللة عن موسى مدعياً عليه أنه ربما يكون مجنوناً مختل العقل، أو أصابه سحر فهو يهذى بكلام غريب ويكذب فى الحديث، بل إنه ساحر وحاذق فى السحر فهو الذى علّم السحرة فنون السحر فهو كبيرهم ومعلمهم.

وتصل به ذروة الديكتاتورية، المصحوبة باعتقاده أو ظنه أنه إله، إلى وضع القيود على حرية المعتقد فنجده يسأل السحرة بعد إيمانهم.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

إن حرية العقيدة والإيمان فى نظره تحتاج إلى إذن منه. إنها الديكتاتورية الطاغية، التى لا تمنعه من أن يرتدى أحياناً مسوح الديمقراطية ويشاور بطانته وملأه متسائلاً، ومتظاهراً بالشورى أو متحيراً، «أشيروا على فيه ماذا أصنع معه؟»، على الرغم من أنه قد صرّح برأيه فى موسى بأنه ساحر عليم ولكن كيف سيتعامل معه:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ولقد تبعه السادة من قومه موافقين لقوله «إن هذا لساحر عليم» وقالوا كمقالته.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

إنها الديكتاتورية التى تجد من يرويها ويشعل نارها ويغذيها ولا تجد من يفضحها ويضرب على يديها.

اتباعه بطانة السوء واتباعهم له

وكعادة كل عصرٍ ومصر هناك من الحاشية والبطانة من يستفيد من طغيان الحاكم وضلاله، ويزيد النار اشتعالاً حتى يجنى من وراء ذلك ما يزيده ثروة أو سلطة أو منفعة ما.

وهذا ما كان من بطانة وحاشية الفرعون يضلون ويضللون. وقد يحتوى مدلول البطانة هنا على الأهل (آل) أو القوم أو الملأ أو الجنود. وهو ما أشار إليه القرآن فى مواضع عديدة للدلالة على ذلك، ففى ١٣ موضعاً ذكر «آل فرعون»، وفى ١١ موضعاً ذكر «فرعون وملئه»، وفى ٥ مواضع ذكر «فرعون وقومه»، وفى موضعين ذكر «فرعون وجنوده»، وفى ثلاثة مواضع «فرعون وهامان»، وفى موضع واحد ذكر «فرعون ومن معه»، وفى موضع واحد «فرعون وهامان وجنودهما».

ولعل المقصود بكلمة «آل» الأهل والعيال والأتباع والأنصار، والمقصود بكلمة «قومه» أقاربه ومن يكونون بمنزلتهم تبعاً له، أما جنوده فهم أنصاره وأعوانه، مما يدل على أن آل فرعون وملأه وقومه وجنوده كانوا فئة من أعوانه وأتباعه وعشيرته من بنى جنسه ومن بنى إسرائيل وكانوا محدودى العدد. وهذه المعانى جميعاً تشير إلى طائفة أو فئة ممن لم يؤمنوا بموسى ولا تشير إلى شعب مصر جملة. هذه الطائفة أو الفئة نعنى بها البطانة وهى التى تَضِل وتُضَل.

وهؤلاء هم الذين نجدهم يقولون لفرعون متظاهرين بالنصيحة والحرص على مصلحته: أتدع موسى وقومه من بنى إسرائيل كى يفسدوا خدمك وعبيدك عليك فى أرضك مصر، ويدع موسى خدمتك وعبادتك أوعبادة آلهتك. ترى هل هم يشفقون على الفرعون حقاً مما يصفونه من إفساد لموسى وقومه؟!

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ

أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

إنهم على الرغم مما يبصرونه من الحق وما يرونه من الآيات يوحون إليه باتباع الضلال، إنهم يدفعونه إلى الهاوية وهو يقودهم إليها، فتارة يحرضونه على موسى وتارة يستخفهم فيطيعونه، إنهم قوم فاسقون حقا. فاستخف عقولهم ودعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، فجمع قومه ودعاهم إلى الاعتراف له بالإلوهية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الزخرف]. لقد أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة.

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة طه].

ومع ذلك يتبعون نهجه ويسلكون مسلكه فى الغي. ويسيرون وراءه وليس فى ذلك رشد ولا هدى وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد. وكما أنهم اتَّبعوا أمره فى الدنيا وكان قائدهم وزعيمهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة هود].

وكذلك شأن المتبوعين إنهم يشاركون من يتبعونه فى الإثم، ولهم مثلهم ضعف من العذاب يوم القيامة كما قال تعالى: « لكل ضعف ولكن لا تعلمون »، حينما يقولون محاولين درء الذنب عنهم والتخفيف مما يجدون من عذاب:

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].

إنهم يشاركونه الفرعنة والفرعونية الملعونة، ويحملون ما يحمل من صفاتها. إنهم يشاركونه التكبر والاستعلاء، يشاركونه الظن أو الاعتقاد بأنهم فوق المساءلة فلا يحاسَبون على ما يقترفون. واستكبر هو وجنوده وملؤه فى أرض مصر عن تصديق موسى واتِّباعه إلى ما دعاهم إليه من توحيد الله والإقرار بالعبودية له. وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يُبعثون ولا ثواب ولا عقاب على الرغم مما فى معتقدات المصريين القدماء من بعث وخلود فى العالم الآخر. فنجدهم وقد ركبوا أهواءهم وعاندوا موسى:

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

[سورة القصص].

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة المؤمنون].

واستغلوا ما وهبهم الله من ثروة وأموال فى الفساد والضلال، ويغرر فرعون بهم ويستغل قلة عقولهم وسخافة أذهانهم فيصدقونه، على الرغم مما رأوا من الحق والآيات وما كان عليه من ضلالة وكفر، فيرون ويرى معهم معجزة اليد ثم معجزة العصا، ثم تتوالى الآيات التسع ولا يؤمنون ويقعون فى مستنقع الفسق بإطاعتهم له.

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة النمل].

إنهم يشاركونه فى السخرية من بنى إسرائيل واحتقارهم، وينظرون إليهم على أنهم أدنى منزلة وعبيداً عندهم. ويرونهم مصدر شؤم، فإذا جاءتهم النعمة أو الخصب والسعة والخير ادّعوه لأنفسهم وقالوا لنا هذه، وإذا جاء الشر أو الجدب والقحط والبلاء أرجعوه إلى موسى وقومه.

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ومن الملفت فى الآيات القرآنية أنهم يرددون فى ببغائية عمياء ما يقول. فإذا قال عن موسى إنه ساحر كرروا ما قال، إن عقولهم فى آذانهم يرددون ما يسمعون. بل إنهم قد ينصهرون فى فرعونيته فيصير القول واحدا لا تستطيع أن تفرق فيه بين قول فرعون من قول الملأ من قول الشعب، كما فى قوله تعالى:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وإذا كذّب بالآيات قالوا لن نؤمن بها، ويتمادون فى الضلال ويتوعدون بعدم تصديق

هذه الآيات مهما كانت، وهم فى ذلك يحذون حذوه ويسلكون طريقه فى ضلال واضح وتبعية عمياء.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ويبدو أن القوم جميعاً – الملأ والفرعون – قد اتخذوا موقفاً واحداً من موسى عليه السلام إلى الحد الذى يأتى فيه ذكر الفرعون بصفته الأمة كلها.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة ق].

فكل ما جاء ذكره فى الآيات هم أقوام وأمم ما عدا فرعون الذى جاء بينهم بصفة الأمة. إن فرعون وآله وجنوده وملأه أو بطانته يتسربلون فى رداء الفرعونية الملعونة وتتغشاهم.

إكراه الآخرين وتسخيرهم لخدمته

وتطفو صفات أخرى للفرعونية يمكن إدراكها من إشارات القرآن العابرة، منها ما يمكن أن يستنبط من السياق القرآنى فى قصة السحرة أن فرعون مارس الضغط عليهم، وأكرههم على تنفيذ ما يريد:

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة طه].

فلقد أكرههم فرعون على تعلم السحر والعمل به فقيل: إنه قد أكرههم على تعلمه صغاراً. فقيل[1] إن فرعون أخذ أربعين غلاماً من بنى إسرائيل فأمر أن يتعلموا السحر بالفرما (العريش الآن). وقال علموهم تعليما لا يعلمه أحد فى الأرض. فكانوا من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا:

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة طه].

إنه يكرههم ويسخرهم لخدمته، ويستغل سلطته ونفوذه لإطاعة أوامره. ونجدهم يستفسرون أو يتساءلون عما إذا كان لهم أجر مقابل ما سيقومون به من خدمة للفرعون، أو بالأحرى مكافأة لهم إن غلبوا موسى.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

---

(١) تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى.

إنهم على ما يعرفون عنه من تسخيره للآخرين لخدمته وتثبيت أركان ملكه دون أجر أو مكافأة فإنهم قد تجرأوا هنا وطلبوا الأجر منه، يتمنون عليه وهو يمنيهم ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء]. وستكونون من المقربين عندى فى المرتبة والجاه فتكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج[1].

ولعل تجرأهم هذا يرجع إلى استشعارهم مدى حاجته إليهم فى مواجهة موسى ومدى ثقتهم بسحرهم فى تحقيق الغلبة على موسى.

وليس أدل على ما كان يقوم به من تسخير الغير لخدمته ما قام من تسخير بنى إسرائيل لبناء مدينتيه «برعمسيس وفيثوم» اللتين أشارت إليهما التوراة.

«....فبنوا له مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس» (الخروج: ١ :١١).

ولقد أسهبت التوراة فى وصف مدى ما تعرض له بنى إسرائيل من إذلال وتسخير على أيدى الفرعون بأوصاف كثيرة منها المذلة والضيق والاستعباد والأثقال، كما فى الخروج (٣: ٧).

«قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم إنى علمت أوجاعهم».

وفى الخروج (٣: ٩): «ورأيت أيضاً الضيقة التى يضايقهم بها المصريون».

وفى الخروج (٣: ١٧): «فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلا».

وفى الخروج (٦: ٥ – ٦): «وأنا أيضا قد سمعت أنين بنى إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون».

«وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة».

إنه الاستغلال والتسخير لفئة ضعيفة ليس لكونهم فى مرتبة أقل من مرتبة المصريين أو لأنهم أدنى منهم منزلة كما كانوا ينظرون إليهم بل ولأنهم على غير ملتهم وخالفوا عقيدتهم.

الكيد

الكيد يعنى القصد خفية إلى إيذاء الغير، وكاد فلاناً كيداً أى مكر به وأراده بسوء، والكيد

(١) تفسير النسفى.

من الله يعنى التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق[1].

ومن بلاغة القرآن وصفه للسحرة الذين جمعهم فرعون بالكيد دون التصريح بهم فيما يعرف لغوياً بالاستعارة التصريحية حيث يحذف المشبه (السحرة) ويأتى بالمشبه به (الكيد). إنه يجمع كل مكره وحيله وكيده فى هؤلاء السحرة فصاروا علماً على هذا الكيد، وكأنه يجمع كل أسلحته من مكر ودهاء وحيل فى حلبة الصراع هذه.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة طه].

ويتوجه إلى السحرة محاولا أن ينقل هذا الكيد الذى يملؤه ويستولى عليه إليهم، وأن يصير هذا السحر الذى يتسلحون به أيضاً إلى كيد ومكر فيعزمون على الكيد والمكر بموسى من غير اختلاف بينهم فيه.

﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة طه].

وهنا ينتصر الحق على الباطل ويضيع كيد السحرة ومكرهم أمام كيد الله ومكره. ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الطارق].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الأنفال].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة غافر].

وهكذا يصير كيد فرعون ومكره واحتياله إلى زوال وبطلان وحاق به وبحاشيته ما يريده الله عز وجل.

ومن كيده ما دفعه إلى أن كلف وزيره أن يبنى صرحاً له ليرى إله موسى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

ولقد زيَّن الله له سوء عمله وكان كيده إلى هلاك وزوال.

---

(١) المعجم الوجيز.

وهما صفتان جمعتهما فى الفرعونية الملعونة، فقد ضل فرعون عن الهدى وعن اتباع الحق وأضل قومه وما هداهم. فها هو يتظاهر بالحرص على مصلحة شعبه وعلى مقدراته والنعمة التى كانوا فيها فاكهين، وعلى استقرار بلاده وما وصلت إليه من رقى ومقام كريم.

إنه يستخف قومه أو يستفزهم ويدفعهم إلى اتخاذ موقف موحد تجاه موسى متظاهراً بأنهم أصحاب الرأى والمصلحة والموقف، طارحاً ذلك فى استفتاء على الشعب أو على خاصة قومه وملئه: (فماذا تأمرون)، وكانت النتيجة أن ردوا الموقف إلى فرعون لأنهم ليسوا أهلا لأن يكون لهم رأى أو لأن يتحملوا تبعته. فيردون الجميل إلى فرعون الذى يأخذ برأيهم.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وهكذا كانت النتيجة لهؤلاء الذين لم يمارسوا الديمقراطية ولم يتعودوا إبداء الرأى، وكان لابد من إرضائهم والاستجابة لمطالبهم، وزاد فى ذلك بطمأنتهم على الوضع بأنه قاهر لهؤلاء الشرذمة للتأكيد على أنهم هم أصحاب الرأى والمصلحة.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[سورة الأعراف].

إنه يخاف عليهم من خطر الدعوة التى يدعو إليها موسى ويخشى عليهم من تبديل دينهم. ويخشى أن يفسد موسى عليهم حياتهم بما يستحدثه من قيم وعادات جديدة.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

غير أنه فى الأصل يخشى أن تضيع هيبته ومكانته، وأن يهجروا عبادته، ويكتشفوا زيف ألوهيته، إنها استراتيجية التضليل للفرعونية الملعونة.

ونجده يلجأ إلى حيلة التضليل والخداع بعد أن فشل فى المحاجاة العلنية، وبعد أن خذله منطقه وسحرته وضعفت حجته أمام موسى وأخيه. فيقول:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

بل ويستهوى ذلك حاشيته وكتيبة التضليل الإعلامى له فيرددون ما يقول، مدعين أن مراد موسى وأخيه هارون أن يجتمع الناس إليهما للوصول إلى الحكم، والاستعانة ببنى إسرائيل فى اجتثاث المصريين وإخراجهم من أرضهم التى يعيشون فيها فى جنات وعيون، ويذهبون بسنتهم وأسلوبهم فى الحياة ومعيشتهم المثلى، أو كما يطلق عليه بعض الغربيين فى عصرنا الحديث "منظومة القيم".

﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة طه].

وهو ظن لا شك فى كذبه لأن بنى إسرائيل فى نظر فرعون نفسه ما هم إلا شرذمة قليلون.

ونلاحظ من النصوص القرآنية ضمير الملكية المتكرر «دينكم..أرضكم...طريقتكم». إن فرعون وحاشيته يركزون فى تضليلهم للقوم على نقاط حساسة لديهم كتمسكهم بدينهم وما وجدوا عليه آباءهم، وارتباطهم بأرضهم وموطنهم، وتعلقهم بأسلوب حياتهم والرفاهية التى يعيشون فيها. فقد كانوا يعيشون فى مقام كريم ويرفلون فى نعمة كانوا فيها فاكهين، وهو من الأمور التى يحرصون على الحفاظ عليها والزود عنها ولا يقبلون بتغييرها . فنجده يشوش على هزيمته أمام موسى وإيمان السحرة وكفرهم بألوهيته، بأنهم جميعاً – موسى والسحرة – قد اتفقوا على المصريين ليخرجوهم من هذه المدنية أو المدينة المتحضرة.

﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وربما يبغى من وراء قوله هذا التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق، حتى أنه يقول عن موسى وعنهم أنه هو الذى علمهم السحر على الرغم من أن موسى لم يجتمع بهم ولم يجتمعوا به من قبل.

إنه هو وحاشيته يخشون أن يصرفهم موسى عما وجدوا عليه آباءهم فيصير لموسى العزة والكبرياء ومن ثم الغلبة مصرين على عدم الإيمان به، إنه يطرق على نفس المواطن الحساسة لدى القوم.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة يونس].

بل إن فرعون نفســه هو الذى يراوغ ويلفت قومه عما جاء به موســى ويصرف اهتمامهم عن دعوته بمقارنته بين ما يملك من السلطان والملك وما يملك موسى عندما يقول فى غرور واستكبار ومراوغة لرفض الدلائل والبينات التى قدمها موسى:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزخرف].

إنها آلة التضليل المحكم والتى لا تتوقف ولا تكف.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة طه].

الإفساد فى الأرض

أفســد الشيء: أتلفه، وجعله فاسداً أى تالفاً، والفســاد هو التلف والعطب، والمفسدة: الضرر، والإفســاد هو الشــر الظاهر العام[1]. ومن هذا التعريف فإن الإفســاد لا شك يشمل الظلم والاســتعلاء والتكبر والتجبر والتأله والإجرام والتضليل واستعباد الضعفاء وتسخيرهم فى خدمته، ويمكن القول هو الفرعونية نفسها.

ولقد ذكر لفظ المفســدين فى القرآن فى ١٣ موضعاً. ســتة مواضع منها تتعلق بالفرعونية الملعونة، ثلاثة منها تشير إلى فرعون وتضعه فى زمرة المفسدين وذلك فى الآيات التالية:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [سورة القصص].

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة يونس].

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة يونس].

وفى موضع واحد للإشارة إلى فرعون وملئه وظلمهم بالآيات.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة الأعراف].

وفى موضع واحد للدلالة على فرعون وقومه، وذلك فى قوله تعالى:

(١) المعجم الوجيز.

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة النمل].

وهنـاك موضـع يفيد بأن قارون قد صاحب الفرعون وشـاركه فى هذه الصفة حيث لمس الناس منه ذلك ونصحه قومه فقالوا له:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سـورة القصـص]، غير أن تماديه واتباعه للفرعون فى الفسـاد والإفسـاد كان من نتيجته أن خسـف الله به وبداره (أو قصره) الأرض، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فليس له نصيب فيها.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة القصص].

ونعـود للفرعون الذى أفسـد فى الأرض، أرض مصر، فقتل من لا يسـتحق من القتل، واستعبد من ليس له استعباده، وتجبر فى الأرض على أهلها وتكبر على عبادة ربه، وجعل الناس شيعاً وفرقاً فيفضِّل طائفة على أخرى ويذيق طائفة منهم أشد العذاب فيقتل أبناءهم ويستخدم نساءهم.

والحقيقة أن بنى إسرائيل تحت فرعون كانوا يعانون من بلاءٍ واختبار عظيم من ربهم، فلقد اسـتضعفهم الفرعون وسـامهم العذاب الشديد. ذلك العذاب الذى وصفه الله تعالى فى القرآن الكريم بـ «سوء العذاب» تارة وبـ «العذاب المهين» أو «البلاء» تارة أخرى. فقد وُصف العذاب بالسـوء فى القرآن الكريم فى تسـعة مواضع منها ثلاثة تتعلق بالعذاب الذى أذاقه فرعون لبنى إسرائيل وذلك فى الآيات التالية:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ

﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة إبراهيم].

ويبدو أن جبلّة بنى إسرائيل وما رُكّب فيهم من طباع استوجبت أن يتعرضوا من حين إلى آخر لسوء العذاب، وكتب الله عليهم ذلك حتى يوم القيامة، فقد قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [سورة الأعراف].

وبالإضافة إلى ما وُصف به هذا العذاب الذى لاقاه بنى إسرائيل على يد فرعون بأنه سوء العذاب، والذى يتفق فى صفته مع ما سيلاقيه الكفار يوم القيامة. فإنه قد وُصف أيضاً فى القرآن بـ «العذاب المهين» (بالتعريف دون التنكير). وهذا الوصف للعذاب (المهين) ذكر فى موضعين فى القرآن الكريم: اختص أحدهما بوصف العذاب الذى تعرض له بنو إسرائيل على يد الفرعون.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الدخان].

واختص الموضع الآخر بوصف العذاب الذى كانت تعانيه الجن تحت سليمان عليه السلام.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة سبأ].

ولعل الإفساد يشمل الكثير من الأفعال والتصرفات، فإن من يسعى فى أرض الله بما يكره الله ويجهر بمعصيته، ويستعين بالسحر وهو تمويه لا حقيقة له ضد الحق الظاهر فإنما يفسد فى الأرض، وإن الله لا يصلح عمل المفسدين أبدا.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة يونس].

وإن من يرى الآيات تتوالى أمامه واضحة جلية لكل ذى عينين ولا يؤمن بها، وخاصة إذا كان صاحب سلطة ومكانة كفرعون وحاشيته وذا تأثير على جموع الشعب والجماهير المغلوبة على أمرها، ثم يستخدم هذه السلطة لفرض رأيه وإجبار هذه الجموع على اتباعه، هو إذاً يفسد فى الأرض ولا ريب.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة النمل].

وعندما يطغى الفساد ويستفحل ولا يجد له رادعا يستوجب العقاب العاجل الذى لابد منه، فيكون العذاب صبًّا.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الفجر].

وتنكشف طبيعة المفسد عندما يحين العقاب وتكون العاقبة، فنجده يجهر بالتوبة حيث لم يبق له اختيار وقد قضى عمره فى إفساد مستمر.

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة يونس].

إن هذا لا يعقل ولا يكون.

العناد والكفر بالآيات

بدأ موسى عليه السلام بتبليغ رسالته التى كلفه الله بها وبصحبته أخوه هارون إلى فرعون فى حديث هادىء لين. وكانت الرسالة ذات شقين الأول منها دعوة فرعون إلى الإيمان، والثانى المطالبة بإطلاق بنى إسرائيل ليخرجوا من مصر. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وفى العهد القديم «ثم كلم الرب موسى قائلاً، ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بنى إسرائيل من أرضه» (الخروج ٦: ١٠ - ١١).

فأخذ فرعون يفتش فى ذاكرته عما يتعلق بمن جاء له بدين جديد ليغير عليهم نظام حياتهم، فسرد على موسى ماضيه وكيف تربى فى البيت الفرعونى وكيف أحسنوا إليه:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وهنا يرد موسى متسائلاً كيف يمنُّ عليه وحده بالتربية، بينما يذيق قومه سوء العذاب ويستعبدهم:

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

فيذكّـره فرعون بقتله للقبطى وهروبه سـنين عديدة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [سورة الشعراء]، فيرد موسى بأنه فعل ذلك وهو من الجاهلين فهو لم يكن للقتل قصد لديه ولا نية.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢١﴾ [سورة الشعراء].

ويبدأ حوار ومناقشـة شـفهية بين فرعون وموسـى، يوضح فيها موسى مضمون رسالته الإلهيـة الداعيـة إلى الوحدانية، يقابلـه المنطق الفرعونى الجاهل المخـادع المكابر. ويهزأ فرعون لقول موسـى بوجود إله غيره، ويسـأل عن ماهية هذا الإله؟ فيرد موسـى: هو رب العالمين ويسرد فى ذلك الحوار الذى سجله القرآن صفات الربوبية الحق:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٣﴾

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٦﴾

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٧﴾

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ٢٨﴾ [سورة الشعراء].

وعلـى الرغم من محاولة فرعون الخروج من إطـار الحوار المنطقى والمحاجاة العقلية إلى السـباب اللفظى ملصقاً بموسـى صفة الجنون قائلاً لقومه إن رسـولكم الذى أرسـل إليكم لمجنون، فما كان من موسى، والذى فهم مقصد فرعون، إلا أن تجاهله واستمر فى عرض دعوته، وأخذ يعدد نعم الله على فرعون وقومه:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ٥٤ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ٥٥﴾ [سورة طه].

فمـا كان من فرعون أمام هـذه الردود المفحمة والمنطق الواضـح إلا أن يلجأ الى التهديد بالسجن قائلا له:

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

حينئذ أدرك موسى أنه لا أمل من محاولة إقناع فرعون بالدليل العقلى، ولابد من تقديم شـىء مادى ملموس يُرى ويُلحظ فلا تكون له بعد ذلك حجة. فكانت الآيات الواضحات التى لا لبس فيها.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

فألقى موسـى عصاه فتحولت إلى ثعبان هائل بفم كبير وشكل مخيف يبعث على الرهبة والفزع. ثم وضع يده فى جيبه وأخرجها فإذا نور ساطع يضىء بالليل والنهار كضوء الشمس أو القمر من غير سـوء مخالفة للونه، وقد كان موسى عليه السلام رجلا آدم شديد السمرة، وأخرجها فخرجت كما كانت على لونه.

ولقد وصف القرآن تحول عصا موسـى مـرة بالجان، وهو نوع من الحيات صغير أكحل العينين ضارب إلى الصفرة لا يؤذى(1)، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة النمل].

ومرة بالثعبان، وهو الاسـم العام لكل حيوان من مرتبة الثعابين رتبة الحرشـفيات من الزواحف، ويتميز بجسـمه الطويل أو الكبير غير ذى أرجل المغطى بحراشـيف أو قشـور قرنية. وذلك عند الاسـتعانة بها كآية على نبوته وأنه جاء بما جاء به من ربه، وهذا فى قوله تعالى:

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف] و ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ومرة بالحيَّة، وهو جنس يشمل الكبير والصغير، كما فى قوله تعالى:

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة طه].

---

(1) المعجم الوجيز.

والملفت أن تحولها إلى ثعبان لم يكن إلا عند منازلة السحرة يوم الزينة. وأمام هذا الثعبان الهائل المفزع، وهذا النور المتلألئ الذى يأخذ باللب بهت الجميع وخفتت الأصوات ما بين الدهشــة والتعجب، وذهل فرعون ولكنه لم يتراجع عما فى رأسه من كفر وعناد. فبادر إلى التكذيب وروَّج على قومه أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به. مدعياً أن موسى ساحر ماهر وأن ما جاء به موسى من البينات نوعاً من السحر الذى اشتهر به بعض الكهنة فى ذلك الزمان، قائلاً للملأ حوله إن هذا لساحر عليم جاء لكى يخرجكم من أرضكم بســحره، فتوافقه حاشــيته وملؤه على أن موسى ساحر عليــم. بل زادوا على ذلك بأنه ســحر مفتعل مصنــوع وأنهم ما سمعوا به أو عرفوه من قبل كما لم يســمعوا ما يدعوهم إليه موســى من عبادة رب العالمين فى أسلافهم وآبائهم الأولين الذين مضوا قبلهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة القصص].

وينبغى أن نذكر أن السحر لعب دوراً هاماً فى الحياة اليومية بمصر القديمة. وكان دفاعياً بصفة عامة وعدائياً فى حالات نادرة. واستعمل لمصلحة الدولة والمعابد ولفائدة المرضى ومن كانوا يخافون الإصابة بالمرض. وكان وقاية ضد الأشــباح وضد الحوادث، وكان يقى الموتى شــر الشــياطين فى العالم الســفلى، ويجنبهم الموت ثانية ويحفظهم من الجوع إذا أهمل أقاربهــم الأحياء تزويدهم بالتقدمات أو القرابين[1]، هذا فى اعتقادهم. وفى بعض الأحيان كان يضمن النصر فى المواقع الحربية، والحظ الحســن. أى إنهم كانوا يســتعينون به على قضاء حاجاتهم وتحقيق أمانيهم، ووصول الناس إلى ما يبغون من مال وســلطان[2]. ويمكن القول بصفة عامة بأن السحر كان من أهم ضروريات الحياة فى مصر الفرعونية.

ولقد كان فى عقيدة المصريين أن لكل شىء روحاً تشبه روح الإنسان وتبعث فيه الحياة. وأن لكل شــىء من الموجودات الطبيعية حياة وإرادة وضميراً، ولذلك تسلطت الطبيعة على الإنسان ومن هنا كان سلطان الساحر على النفوس.

وكان من عقائدهم أن لكل إنسان قريناً من الجن يصحبه فى الحياة ثم يتبعه فى الآخرة، وعرف هذا القرين فى اللغة المصرية القديمة بالـ «كا» وأن لكل الأجســام المادية والحيوانية

(١) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، المرجع السابق.

(٢) أنطون زكرى، الأدب والدين عند قدماء المصريين، ١٩٩٢.

روحـــا. وكان للســـحر عند المصريين القدماء علم له أصـــول ترجع إلى أقدم العصور، وكانت هناك مدارس للسحر تسمى ببيوت العلم والحياة، وكان الفراعنة يضعون هذه المدارس تحت رعايتهم وعنايتهم بل كان الفرعون نفســـه يلقب برئيس الســـحرة[١]. وكانوا يزودون تاجه بالسحر، وكان هو الربة «العظيمة السحر»[٢].

أما الســـحرة فكانوا ينقســـمون إلى طائفتين: طائفة شرعية تعترف لهم الحكومة بمباشرة الســـحر ويثقون بهم ويلقبونهم بكتبة بيت الملك وكتبة الحياة، ويدعونهم لتفسير أحلامهم والانتصـــار على أعدائهم. وكان الســـاحر فى هـــذه الطائفة لا يمارس هذا الســـحر إلا بعد التمرن الطويل ومضى مدة طويلة فى حسن السيرة والسريرة، والتمسك بالطهارة والعفاف، والامتنـــاع عن أكل اللحوم والأسماك، والانفراد فـــى الخلوة كل أيام حياته، ولا يجوز أن يحترف حرفة أو مهنة أخرى حتى لا تشغله عن مهام وظيفته.

والطائفة الأخرى هم الســـحرة غير الشـــرعيين الذين يتعلمون السحر تقليداً، ولا تعترف لهم الحكومة بمباشـــرة أعمالهم وتعاقبهم إذا باشـــروا شـــيئاً من ذلك بدون تصريح، وربما حكم عليهم بالإعدام. فمما ذكر فى بردية Lee بدار الكتب الأهلية بباريس أن ساحراً أراد أن ينتقم من قوم فصنع تماثيل من الشـــمع وتلا عليها العزائم الســـحرية، فأوقع بهم الأذى والضرر، ثم رُفع أمره إلى الملك فكان جزاؤه الإعدام[٣].

وكان المصريـــون فيما تشـــهد به الأقاصيـــص القديمة يحبون أحاديث الســـحر وخوارق الأعمال ففيما ينسب إلى خوفو فى بردية «وستكار» من حبه السحر وإقباله عليه وما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس فى العصور القديمة من خيالات يردونها إلى الســـحر، أن بنيه جلســـوا يتحدثون إليه ويســـمرون معه حيث أخذ كل واحد منهم يروى قصة من غرائب ما روى عن أسلافه من الملوك والكهنة وهو يستمع إليهم قرير العين منشرح الصدر. إذ وقـــف خفرع فحدثه عن كاهن يدعى «أوبا أونر» بلغه أن امرأته تعلقت بفتى فى المدينة كان يقبل فينفق معها سحابة النهار فى جوسق منعزل فى الحديقة عن بحيرة الدار، فإذا قضى منها وطره نزل إلى البحيرة يغتسل، فعمد الكاهن فصنع من الشمع كهيئة التمساح ثم ألقاه فى البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم قضى

(١) أنطون ذكرى، الأدب والدين عند قدماء المصريين، المرجع السابق.

(٢) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، المرجع السابق.

(٣) أنطون ذكرى، الأدب والدين عند قدماء المصريين، المرجع السابق.

على الفتى حين نزل إليه ثم دعى مليكه ليشـهد ذلك. فلما رأى الملك التمساح ارتاع وفزع لمرآه، ولكن الكاهن ما كاد ينحنى ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع[1].

وهكذا ظن فرعون موسى أن هذا الذى رأه من تحول عصا موسى إلى ثعبان هائل شبيه بما كان يعرف أو بما كان شائعاً من السحر. ووافقه ملؤه فى ذلك مشيرين عليه: أن يؤخر منازلة موسى وأخيه ومحاجاته ويبعث فى أقاليم ومدائن ملكه من يحشر له السحرة، وكل ماهر فى معرفة السحر وكثير العلم بصناعته من سائر البلاد ويجمعهم ليعارضوا موسى بنظير ما جاء به.

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وهنا يستأنف فرعون حديثه إلى موسى وقد مال إلى ما أشار به ملؤه وحاشيته، قائلاً له ليكن بيننا وبينك موعداً وليكن يوم الزينة.

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة طه].

وكان للمصريين القدماء أعياد كثيرة منها عيدان مهمان هما: عيد الربيع الذى نطلق عليه (شم النسيم) وكان بين ٢٢ مارس (برمهات) و٣ ابريل (برمودة). وعيد وفاء النيل عندما يكتمل فيضان النيل فى منتصف الصيف تقريباً، فى أحد أيام شهرى يوليو (أبيب) وأغسطس (مسرى).

واختلف البعض فى يوم الزينة فالبعض يرى أنه يوم وفاء النيل والبعض الآخر يرى أنه يوم شم النسيم. وقيل هو يوم عاشوراء وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده[2]. وعاشوراء هو اليوم العاشر من شهر محرم فى التقويم الهجرى عند المسلمين وهو يماثل يوم الغفران أو التكفير أو يوم كيبور عند اليهود حيث يعتقد إنه اليوم الذى نجى الله فيه موسى وقومه من آل فرعون. والمهم فى الأمر أن اليوم كان يوم عيد للقوم يتزينون فيه وأن التجمع كان «ضحى» لتكون المنازلة أكثر جلاءً ووضوحاً ويكون الجو محتملاً للاجتماع قبيل الظهر.

وصدرت الأوامر لكبار السحرة بالتجمع يوم الزينة، حيث يتزين الناس ويخرجون إلى المتنزهات والأسواق، لمواجهة موسى وعصاه الثعبانية.

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة، المرجع السابق.

(٢) تفسير ابن كثير.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وكانوا جمعاً غفيراً واختلفت الآراء فى عدد هؤلاء السحرة فقيل اثنا عشر ألفاً، وخمسة عشر ألفاً، وتسعة عشر ألفاً، واثنان وثلاثون ألفاً، وسبعين ألفاً وثمانون ألفا[1]. والله وحده أعلم بعدتهم، فلم يرد ذكر لعددهم فى القرآن الكريم كما لم تورد التوراة عدداً لهم.

وكان هناك اجتماع لا شك بين فرعون وكبار السحرة قبل المنازلة الشهيرة حيث اشترط السحرة لأنفسهم الأجر الكبير إذا انتصروا على موسى وكانت لهم الغلبة، فوافق فرعون على جزل العطاء لهم بل ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وجاء اليوم الموعود ووجهت دعوة مفتوحة إلى جميع الناس، فاجتمعت حشود كبيرة لمشاهدة هذا الموقف المهيب، وجلس فرعون وسط حاشيته وملئه فى أبهته المعهودة وهو معهم يمنون أنفسهم بانتصار السحرة.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أم من موسى، إنها الثقة بلا حدود فى نجاح السحرة، واليقين بالنصر على موسى وأخيه هارون. واصطف السحرة تجاه موسى وأخيه هارون، ومع كل ساحر منهم حبل وعصا.

بل إن السحرة أنفسهم – ولم يعاينوا حتى الآن برهان رب العالمين – كانوا يظنون بأن موسى ما هو إلا ساحر جاء لكى يفسد عليهم ما هم فيه من مكانة، وتصبح له المكانة العالية فى هذا الفن الذى يبرعون فيه ويحيون عليه. حتى إنهم لم يسمعوا لموسى عندما قال لهم لا تفتروا على الله كذبا ولا تتقولوه فيستأصلكم بهلاك ويبيدكم ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة طه].

والإسحات هو الاستئصال وإذهاب الأثر وسَحَتَ الشيء سَحْتاً أى استأصله[2]. ومع ما لفتهم إليهم موسى عليه السلام إلا إنهم تجاهلوا هذا النداء ودعوا إلى الاستعداد للمواجهة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١.

(٢) المعجم الوجيز.

وقالوا بعد أن تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى.

﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) ﴾ [سورة طه].

واستعد الفريقان للمباراة وقطع السحرة الصمت متوجهين إلى موسى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ ... إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) ﴾ [سورة طه].

قال موسى علية السلام ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [سورة طه].

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) ﴾ [سورة الشعراء].

قيل: الحكمة فى هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فإذا فرغوا من بهرجهم جاءهم الحق الواضح الجلى بعد الانتظار لمجيئه فيكون أوقع فى النفوس[1].

وأسرع السحرة بإلقاء ما جهزوا من عصى وحبال، باسم إلههم فرعون.

﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) ﴾ [سورة الشعراء]. قيل سبعون ألف حبل وعصيهم سبعون ألف عصا وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفا وكذا العصى[2].

﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [سورة طه - الآية ٦٦].

ذلك أنهم لطخوا العصى بالزئبق فلما أصابها حر الشمس ارتعشت واهتزت فخيِّل إلى الناس أن الأرض امتلأت حيات وأنها تسعى على بطنها[3]. ويذكر العهد القديم: «فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين» (الخروج ٧: ١١ - ١٢).

وبهت كل من بالساحة، حتى موسى نفسه، فى لحظة ما، خاف على الناس أن يفتنوا

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير النسفى.

(٣) تفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير.

بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه وأخفى فى نفسه ذلك فالإيجاس الإخفاء والخفية.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة طه].

وقيل إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا[1].

فطمأنه الله تعالى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة طه]. إنك أنت الغالب على هؤلاء السحرة وعلى فرعون وجنده، واطمأن موسى وذهب عنه الروع. وفى الساعة الراهنة أوحى الله تعالى إليه أن ألق ما فى يمينك، يعنى عصاك، فكانت المعجزة الكبرى. وتحولت العصاة إلى حية هائلة تبتلع كل ما ألقى السحرة من حبال وعصى حتى لم تبق منها شيئا، وأصل اللقف الأخذ بسرعة.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف]، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك جهاراً نهاراً فى ذلك الضحى، ووقع الحق وبطل السحر.

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة طه].

وفوجىء المحتشدون من المصريين والحاضرون من بنى إسرائيل، حتى السحرة بهتوا. فلما عاينوا ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وصنعته، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حق لا مراء فيه. وأيقنوا أنهم أمام معجزة إلهية فلا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشىء كن فيكون. فعند ذلك شهدوا بصدق موسى وهارون فيما بلّغا عن رب العالمين. ووقعوا ساجدين لله، وقالوا: «آمنا برب العالمين رب موسى وهارون».

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]. وهكذا وقع الحق وانقلب فرعون وقومه مغلوبين وأما السحرة الذين آمنوا فقد ثبتوا على إيمانهم.

إن فرعون أمام هذه الآية البينة الواضحة وقد استبد به الغضب من موقف السحرة، الذى

(١) تفسير فتح البارى، وتفسير الجلالين.

ترتب عليه خذلانه أمام عدوه موسى وسقوط ألوهيته المزعومة أمام الناس جميعا، لم يراجع نفسه ولم يسكت على هزيمته الفاضحة.

وكانت صدمة – لا شك – قويةلم يتحملها فرعون ولم يسكت عنها وهى خذلانه وهزيمته وإيمان سحرته برب العالمين. إذ كيف يؤمنون قبل أن يستأذنوه فى ذلك؟!،

فهؤلاء الذين ألقوا حبالهم وعصيهم وأقسموا بعزته إنهم لغالبون نجدهم أنفسهم بعد لحظات يقسمون برب موسى وهارون (والذى فطرنا)، إنه قسم بالذى خلقهم وهداهم وهو الله تبارك وتعالى، ناكرين ألوهيته الواهية التى يجدون فيها الإله يلجأ إلى العباد.

وأمام ذلك نجده يتهمهم بالتواطؤ مع موسى مدعياً أنه معلمهم،

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه].

وأنهم قاموا بخدعة كبيرة ليستولوا على مصر فيخرجوا منها أهلها ويتغلبوا عليها بسحرهم، ويذكر ابن كثير[1] فى رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما أن موسى عليه السلام تحاور وأمير السحرة، فقال له موسى أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به حق، قال الساحر لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر فوالله لئن غلبتنى لأومننّ بك ولأشهدنّ أنك حق وفرعون ينظر إليهما. فلهذا قال فرعون أن ما حدث ما هو إلا مكر تم بين موسى والسحرة وقوله «لتخرجوا منها أهلها» أى تجتمعون أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجون منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم وذلك فى محاولة منه التلبيس على شعبه وعلى جمهور الحاضرين والمشاهدين لهذه المناظرة، مشيراً إلى أنهم مازالوا تحت رحمته فكيف آمنوا بموسى قبل الإستئذان منه.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وكان طبيعياً أن يغلى دمه وتتملكه الثورة ويتوعد السحرة بأشد العذاب. واعتبرهم خارجين على النظام وأقسم على تعذيبهم حتى الموت بلون جديد من التعذيب لم يكن مألوفاً ومعتاداً عليه فى مصر قديماً، قائلاً: ولتعلمن أيها السحرة أينا أشد عذابا لكم وأدوم، أنا أو موسى.

(١) تفسير ابن كثير.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه].

وعلى الرغم من هذا التهديد شديد اللهجة من شخصية عاتية متجبرة فإن السحرة لم يتراجعوا، بل ثبتوا على موقفهم، وقالوا ما نقمتك علينا إلا لأننا رأينا الحق وأن ما جاء به موسى خارج عن طاقة البشر ولا علم لنا به، ولن نفضلك على ما رأينا من الحق. وقيل: إنهم لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة(١)، فلهذا قالوا اصنع ما أنت صانع واعمل بنا ما بدا لك إنما تقدر أن تعذبنا فى هذه الحياة الدنيا التى تفنى، قائلين:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة طه].

ولم يشر القرآن الكريم إلى ما آل إليه مصير السحرة من التصليب والموت مكتفياً بصدور هذه العزيمة من فرعون. وعلى الأرجح فإنه وقد انتهى النهار صلب السحرة فى جذوع النخل فى الميادين العامة وفى الأسواق ليراهم الناس، وقيل قطع فرعون أيديهم وأرجلهم وصلبهم على شاطئ النهر، وإنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف(٢).

وهم فى ذلك الموقف الرهيب، وهم يساقون إلى حيث تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبون فتأكل الطيور من رءوسهم، يتجهون إلى الله بقلوب خاشعة مؤمنة بالدعاء أن يصبَّ الله عليهم صبراً من عنده فيثبتوا على إيمانهم ولا يُفتنوا ويعودوا إلى الكفر:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ولهذا قال ابن عباس وآخرون: كانوا أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء بررة(٣).

---

(١) تفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير القرطبى.

(٣) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى.

فقد كانوا أهل شــر فى الصباح وصاروا قادة إيمان وقدوة فى الصبر والثبات ومثالاً لمن يرى الحــق فيتبعــه ولا يخاف فيه لومة لائم وذلك إلى يوم الدين. وقيل إنه فعل بهم ما أوعدهم من تقطيع وصلب وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: «أنتما ومن اتبعكما الغالبون»[1].

وبحادث إيمان السحرة وصلبهم (أو عدمه) يسدل الستار على معجزة العصا يوم الزينة. ولم يؤمــن فرعــون وملؤه على الرغم من هذه المعجزة الباهرة والآية العظيمة، واســتمروا فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم.

وتوالت بعد ذلك الآيات فى وقت طويل استغرق سنين عديدة لتكتمل الآيات أو الحجج التسع التى ساقها الله على يد موسى. ولحقت الكوارث بمصر سنين عديدة فيما ذكر القرآن وروى العهد القديم (سفر الخروج الإصحاح ٨، ١٠، ٩) فأصيبت بالقحط والعلل والآفات.

فكانت الآية التالية، بعد يده التى خرجت بيضاء ناصعة وهو رجل شــديد الســمرة، والعصا التى تحولت إلى ثعبان هائل التقفت عصى الســحرة وحياتهم التى ســحروا أعين الناس بها، هى **سنو الجوع** بسبب الجدب والقحط، وانخفاض ماء النيل، وجفاف الأرض وموت الضرع وقلــة الزرع. ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

والسِــنة أى: الجدب وقيل أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة «ونقص من الثمرات» أى نقص فى الزورع والثمار والغلات بالآفات والعاهات، فأما الســنين فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار والقرى[2].

ولقد كان النيل وما زال شريان الحياة لمصر فإذا ما انحبس النيل تجدب الأرض ويموت الزرع والضرع، و إذا زاد تغرق البلاد بطوفان عظيم. وهو فى الحالين نذير الكوارث ونقص من الثمرات. فإذا وقعت الواقعة انتشــرت بهــا الأدواء والأوبئة والأمراض فحصدت الناس حصداً قد يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور.

وإزاء هذا البلاء النازل، والذى يئس فرعون من كشــفه، واستشــعاراً منه وقومه أن سببه عدم الإيمان بما جاء به موسى، نجدهم يستغيثون بموسى أن يرفع عنهم ما هم فيه من بلاء ولسوف يؤمنــون بــه فيغيثهم الله. ويفيض ماء النيل ويعــود الخير كما كان. ومع ذلك لم يرتدع فرعون بل يعود إلى سابق عهده من العناد والكفر أشد ضراوة وحقدا. فكانت الآية التالية:

---

(١) تفسير البيضاوى.

(٢) تفسير الطبرى.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

حيث كثرت الأمطار المغرقة التى كونت السيول العظيمة فأغرقت المزروعات وجرفت التربة. وقيل: إنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى أعناقهم. وركد الماء فى أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها ودام ذلك عليهم أسبوعا وقيل: أربعين يوما[1].

وقيل عن **الطوفان** أيضا: إنه الطاعون أو إنه كثرة الموت[2]، وقيل الطوفان فى اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل: أى ما يطيف بهم فيهلكهم[3]. وأى من هذه الأشياء لم يطقه فرعون وقومه وأسرعوا يلوذون بموسى ليكشف عنهم هذا البلاء على وعد بأن يهتدوا. وحتى فى طلبهم يتعالون عليه ويصرون على أنه ساحر.

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

فما أن غاض الماء وانكسرت حدة الطاعون أو الموت، وأنبت الله لهم ما لم يعهدوا من الكلأ والزرع والثمر، قالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصبا، فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية[4].

وعاد فرعون وملؤه أكثر جبروتاً وعتواً. وعادوا إلى سابق عنادهم وكفرهم، بل وأصروا على ذلك:

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]، إنها الجبلّة الفرعونية الملعونة.

فتوالت الآيات كل منها أكبر من سابقتها، كل ذلك لعلهم يرجعون عن ذلك الغى والعناد.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

(١) تفسير القرطبى، وتفسير فتح القدير وتفسير البيضاوى.

(٢) تفسير الطبرى ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبى.

(٣) تفسير فتح القدير: وتفسير القرطبى.

(٤) تفسير القرطبى وتفسير فتح القدير.

فكانــت **آية الجراد**. والجراد بفتــح الجيم وتخفيف الراء معــروف، والواحدة جرادة والذكر والأنثى سواء. ويقال أنه مشتق من جرد لأنه لا ينزل على شيء إلا جرده.

ولقــد كانــت مصر عرضة لكوارث الجراد الذى يأتى على كل شــيء فلا يبقى ولا يذر، وكفى بالمصريين نقصاً فى الثمرات أن يرسل عليهم الجراد ذلك الذى يقضى على الأخضر واليابــس من أرضهــم. وكان لكثرته الهائلــة إذا أقبل مضرب المثل فــى الجيوش الكثيرة الساحقة، إذ كان ينزل بمصر منذ أقدم العصور سحباً تكاد تحجب الشمس عن العيون كما وصفتها متون الأهرام[1].

وأرسل الله على فرعون وقومه أسراباً من الجراد حطّت على الزروع والثمار فأتت عليها. فأكلت عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر، ولم يكن يشبعه شيء حتى جار على الأبواب والخشب والثياب والأمتعة فعجُّوا وضجُّوا.

وكما يصفها العهد القديم (الخروج ١٠ : ١٢ – ١٥):

«فمد موســى عصاه على أرض مصر، فجلب الرب ريحا شــرقية كل ذلك النهار وكل الليل. ولما كان الصباح حملت الريح الشــرقية الجــراد. فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل فى جميع تخوم مصر. شــيءٌ ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. وغطى وجه الأرض حتى أظلمت. وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر.. حتى لم يبق شيءٌ أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر».

وهرع المزارعون إلى موســى، وقالوا: يا موســى ادع لنا ربُك لئن كشفت عنا هذا العذاب لنؤمنن لك. وأعطوه عهد الله وميثاقه واســتعطفه فرعون أن يطلب من الله رد هذا الجراد، فدعا موسى ربه ورحلت أسراب الجراد بعدما قضت على ما على الأرض من خضرة.

وبدأ الناس فى الزراعة من جديد، وما أن اخضر الوادى وحملت الأشــجار ثمارها حتى عــاد فرعون إلى عناده وجبروتــه وعصيانه فبعث الله عليهم القُمَّل – والقُمَّل «مفردها قُمَّلة» كلمة عبرية أو سيريانية[2] – وهناك اختلاف فى تفسيرها فبعضهم يرى أنها صغار الدَّبَى «جمــع دباة» وهو الجراد قبل أن يطير، أو هى ســوس القمح أو الحنطة أو أنها البراغيث أو القمل تلك الحشــرة التى تحمل الأمراض وتقرص الناس فى أجســامهم ورؤوسهم فتقض مضجعهم وتمنعهم من النوم[3]. وعلى كل حال هى حشــرات صغيرة قد تنتشــر وتكثر فى

(١) أحمد عبد الحميد يوسف(دكتور)، مصر فى القرآن والسنة، المرجع السابق.

(٢) محمد السيد الداودى، من كنوز القرآن بحوث لغوية منوعة، دار المعارف، ١٩٧٣.

(٣) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، تفسير القرطبى.

وقت واحد، غطت حياة المصريين ونغصتهم.

وفى العهد القديم (الخروج ٨: ٢٤):

«ففعل الرب هكذا. فدخلت ذُبّان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده، وفى كل أرض مصر خربت الأرض من الذُبّان».

وأرجعوا ما أصابهم إلى وجود بنى إسرائيل بينهم، وتطيّروا أو تشاءموا بموسى ومن آمن معه. فإذا جاءهم الخير نسبوه إلى أنفسهم وقالوا هذا الذى نستحقه وهذا الذى يليق بنا، وإن تصبهم سيئة وشر يقولون بشؤمهم أصابنا هذا.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [سورة الأعراف]. ورغم ذلك تتكرر الشفاعة ويتكرر الدعاء، ويستجيب الله ويرفع عنهم ما هم فيه من البلاء، ثم يعودوا إلى جبلّتهم المعهودة، فتكون الآية الأشد منها.

الضفادع تلك الحيوانات الصغيرة ذات النقيق المزعج والتى كانت معروفة لدى المصريين القدماء باسم «حكت» أو «حكات». وكان المصريون يعتقدون أنها تخلق من طين النيل الذى تركه الفيضان ولذلك كانت رمزاً للبعث، وكانت لها قدسية فى بعض المقاطعات مثل مقاطعة ألفنتين (أسوان)[(١)].

وكانت تلك الضفادع آية جديدة من آيات الله التى ساقها إلى فرعون وقومه والتى كثرت عندهم، وغطت اليابس والماء، وعاشت فى بيوتهم حتى كانت تسقط فى آنية طعامهم وتدخل فى ملابسهم وفرشهم، وتثب إلى قدورهم وهى تغلى وأفواههم عند التكلم، حتى قيل: إن الرجل كان يجلس إلى ذقنه فى الضفادع، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه حتى ضاق الناس وضجُّوا[(٢)].

وفى العهد القديم (الخروج ٨: ١ - ٤).

«قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبى ليعبدونى. وإن كنت تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع. فيفيض النهر ضفادع، فتصعد وتدخل إلى بيتك والى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك والى معاجنك. عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع».

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة.

(٢) تفسير ابن كثير ، وتفسير البيضاوى.

وفزعوا إلى موسى وتضرعوا، ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل، ودعا ربه فكشف عنهم ما هم فيه. فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول وجمعوها أكواماً كثيرة حتى أنتنت الأرض. حتى إذا رأى فرعون وحاشيته أن الفرج قد تم، عادوا إلى سابق كفرهم وعنادهم وخداعهم وعدم الوفاء بعهودهم. فقالوا : ما نحن لك بمؤمنين ولا مرسلين معك بنى إسرائيل ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

فأرسل الله عليهم **الدم** فصارت مياههم دما. فكانوا لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دما. وكان فرعون يجمع بين القبطى والإسرائيلى على الإناء الواحد فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء والقبطى دما (ويقومان إلى الجرة فيها الماء فيخرج للإسرائيلى ماء وللقبطى دم) حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتى المرأة من بنى إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقنى من مائك فتصب لها من قربتها فيعود فى الإناء دما، حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فى فتأخذ فى فيها ماء فإذا مجته فى فيها صار دما وقد يكون فى هذا شيءُ من المبالغة. وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماؤها فى فيه ملحا أجاجا فمكثوا فى ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم[1]. وقيل عن الدم أنه الرُّعاف[2] وهو خروج الدم من الأنف.

ويصف العهد القديم هذه الآية فى سفر الخروج (٧: ١٩).

«ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً. فيكون دم فى كل أرض مصر فى الأخشاب وفى الأحجار».

وضاق المصريون بهذا البلاء المبين فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال: إنه قد سحركم. فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما؟. فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن

---

(١) تفسير القرطبى.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير فتح القدير.

لك ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل[1]، وأصر فرعون وملؤه على الكفر والتمادى فى الشر.

وإن الإنسان ليعجب لتمسك فرعون بعدم خروج بنى إسرائيل من مصر، وليس الأمر رغبة فى تسخيرهم فى المبانى والإنشاءات، فالمصريون بسواعدهم بنو الأهرامات العديدة وبنوا المعابد الضخمة ونحتوا مقابرهم فى الجبال حيث الصخور الصلبة وملأوا البادية والحضر بمبانيهم الدنيوية والدينية. وأغلب الظن أن إصرار فرعون على عدم خروج بنى إسرائيل من مصر بالرغم مما نزل به من ضربات لم يكن إلا عنادا غالبًا.

ويستمر هذا العناد والكفر من فرعون وقومه حتى مع دعوة ذلك المؤمن من آل فرعون لهم، وخوفه عليهم وإخلاصه لهم، ولما يئس منهم فوَّض أمره إلى الله. ومع ذلك لم يتركوه وشأنه فنجدهم يمكرون به وينجيه الله من مكرهم.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

ويسهب العهد القديم فى سرد هذه الآيات ويضيف عليها آيات أخرى مثل **البعوض** الذى انتشر فى جميع أرض مصر» فصار على الناس وعلى البهائم حتى تراب جميع أرض مصر صار بعوضاً». (الخروج ٨: ١٦ – ١٧).

والدمامل حيث أخذ هارون وموسى رماد الأتون «ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دمامل بثور طالعة فى الناس وفى البهائم». (الخروج ٩: ١٠).

والبرد والرعود فيذكر العهد القديم: «فأعطى الرب رعوداً وبرداً وجرت نار على الأرض وأمطر الرب برداً على أرض مصر. فكان برد ونار متواصلة فى وسط البرد. شىء عظيم جداً لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة. فضرب البرد فى كل أرض مصر جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد» (الخروج ٩: ٢٣ – ٢٦). وربما يقصد بهذا البرد الطوفان الذى أشار إليه القرآن.

---

(١) تفسير ابن كثير.

والظلام الدامس فكما يذكر العهد القديم:

«فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام. ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم». (الخروج ١٠: ٢٢ – ٢٣).

ولا ندري مدى صحة حدوث مثل هذه الآيات الأخيرة وصحة وقائعها فلم يرد ذكرها إلا في العهد القديم ولعل إشارتها إلى تمييز بني إسرائيل والتأكيد عليه في نهايتها يلقى مزيداً من الريبة فيها.

وبغض النظر عن هذه الآيات الأخيرة، فإنه بعد هذه المرحلة الطويلة من العناد والكفر بالآيات الواضحة، يتسرب اليأس إلى موسى ويشعر أنه لا رجاء في إيمان هذا الطاغية العنيد، ولا أمل في ملئه وحاشيته، ويرى اغترارهم بما وهبهم الله من نعم وثروات وأموال وزينة وحلي، وتماديهم في الضلال وعدم الإيمان على الرغم مما عاينوه من أمر قارون. فدعا موسى ربه أن يطمس على أموالهم. فكانت الآية الأخيرة أن طمس الله على أموالهم فصارت حجارة، وشدَّد على قلوبهم فلم يؤمنوا حتى أتاهم الغرق، وذلك استجابة لدعوة موسى عليه السلام.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة يونس].

أي أعطيتهم أموالاً من الذهب والفضة وكريم الأحجار وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به استدراجاً وفتنة لهم فيتبطروا ويتكبروا ويضلوا عن سبيلك ويضلوا غيرهم[1]. وقيل أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا كما قال عز وجل: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [سورة النساء] والمعنى: لأن لا تضلوا، وقيل: اللام للدعاء أي أبتلهم بالضلال عن سبيلك لأن بعده: «اطمس

(١) تفسير ابن كثير.

على أموالهم واشـدد على قلوبهم»[1]، أى امسـخ على أموالهم واشدد على قلوبهم بالضلالة فلا يصدقون بتوحيد الله ويقرون بوحدانيته حتى يروا العذاب الموجع.

ولقد أمّن أخوه هارون على دعائه عليه السلام واستجاب الله لهما فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة يونس].

فمسـخت أموالهـم حجارة ولم يؤمن فرعـون حتى أدركه الغـرق، وقيل مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سـنة ثم هلكوا[2]. وكان أمر الله لموسـى وأخيه أن يستقيما ويمضيا فى الرسـالة والدعوة حتى ينفذ وعد الله وألا يسـلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعده سـبحانه فيستعجلا قضاءه فإن وعده لا يخلف وإن وعيده نازل بفرعون وعذابه واقع به وبقومه.

إذاً هو العناد الفرعونى والتكذيب المستمر بالآيات المفصلات والذى يورث الكفر والهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [سورة آل عمران].

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سـورة القمر].

محاولة النكوص والتوبة بعد فوات الأوان

إن الله بعدما ساق له ولقومه من الآيات ما لا يُكَذّب ولا يُنكر، قد أمهله ومد له مدا. ولقد كانت أبواب التوبة أمامه مفتوحة على مصراعيها تناديه صباحاً ومسـاء إلا إنه أسرف فى الضلالة كما أسرف فى الطغيان والتكبر والعناد وفى كل شىء. ووصل إلى مرحلة اللاعودة، مرحلة ما لا يمكن أن يغفر. وزين له سوء عمله واتبع هواه الذى أوصله إلى الهاوية الكبرى عندما نسب الألوهية والربوبية إليه فقال:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [سـورة القصص].

---

(١) تفسير القرطبى وفتح القدير.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير فتح القدير، وتفسير البيضاوى.

وقال: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [سورة النازعات].

فكان جزاؤه أن أخذه الله الأخذة الكبرى أخذة العزيز المقتدر القوى الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) ﴾ [سورة النازعات].

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) ﴾ [سورة الحاقة].

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) ﴾ [سورة المزمل].

وأمام هذا العناد والكفر بالآيات، ومع العذاب والاضطهاد المستمر كان لابد لبنى إسرائيل من مخرج، فكان الخروج من مصر.

خرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل أول الليل وكانوا أكثر من ستمائة ألف كما يذكر العهد القديم (الخروج ٢٧: ١٢)

«فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سُكُّوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد».

إذاً، فقد خرج بنو إسرائيل فارين من بطش الفرعون واضطهاده وحملوا معهم أشياءهم حتى عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم كانت مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم. وكانوا قد استعاروا من المصريين حلى فضة وذهبًا وأمتعة وثيابًا لعيد يخرجون إليه فأعارهم المصريون ما طلبوا. وساقوا معهم أغنامهم وأبقارهم ومواشيهم. وأخرجوا معهم جسد يوسف عليه السلام لأنه كان عهد إليهم ذلك، ودلتهم عجوز على موضعه فقال لها موسى عليه السلام: احتكمى فقالت: أكون معك فى الجنة. فوصل الخبر فرعون فاستبد به الغضب وكان قد أمر بشاة فذبحت فأقسم ألا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إليه ستمائة ألف من القبط. فجمع جنوده وخرج بهم فى جيش كانت مقدمته فيما يُحكى سبعمائة ألف فارس وقيل: ألف ألف أو خمسمائة ألف وست مئة مركبة[1].

ومع تسليمنا بما فى مثل هذه الأعداد سواء الخاصة ببنى إسرائيل أم جنود فرعون من مبالغة، فإن فرعون قد أخذ جنوده ومركباته وتتبع بنى إسرائيل الفارين وقص أثرهم حتى تراءى الجمعان فعظم فزع بنى إسرائيل. ووصل بجنوده إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها

(١) تفسير ابن كثير.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

واقترب فرعون وتراءى الجمعان فشاهدهم فرعون من بُعد ورآه بنو إسرائيل ورأوا جنوده ومركباته ففزعوا فزعاً شديداً وقالوا لموسى إنا لمدركون، اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، فها هو ذا البحر بين أيدينا وفرعون من خلفنا، ولسوف يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الشعراء]، لقد عادوا إلى طبيعتهم من عدم اليقين بالله والثبات على الإيمان فقد اتهموا موسى من قبل بأنه مصدر الشقاء لهم وأن مجيئه إليهم لم يكن إلا مزيداً من الشقاء والإيذاء.

﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

فها هم أولاء يقولون فى خوف، لا يردهم إيمانهم عنه، إنهم سوف يُدركون وإنهم مقضّى عليهم لا محالة.

وفى العهد القديم:

«وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبورٌ فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر» (خروج: ١٤ - ١١).

فقال لهم موسى بيقين المؤمن بربه الواثق من نصره: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تُدركوا إن معى ربى سيهدينى إلى طريق أنجو فيه من فرعون وقومه ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وطمأنهم موسى بأنه لن يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد. وكان هارون عليه السلام فى المقدمة ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام فى الساقة أو خلف الجموع. وقيل: إنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام: يا نبى الله ههنا أمرك ربك أن تسير؟ فيقول نعم(١).

وفى سفر الخروج (١٣: ١٤ - ١٤):

«فقال موسى للشعب لا تخافوا، قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم.

---

(١) تفسير ابن كثير.

فإنــه كمــا رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضــا إلى الأبد. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون».

وتذكر كتب التفســير عن عبد الله بن ســلام أن موســى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجا، فأوحى الله إليه:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبى الله أين أمرك ربك عز وجل؟ قال: أمرنى أن أضرب البحر قال: فاضربه[1]. فضربه موسى بعصاه وقال: انفلق بإذن الله

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [ســورة الشــعراء] أى كالجبل الكبير. وقال ابن عباس (تفســير ابن كثير) صار البحر اثنى عشر طريقا لكل سبط من أسباط بنى سرائيل طريق، وزاد البعض فقالوا صار فيه طاقــات ينظر بعضهم إلى بعض ليرى كل قــوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا. والفرق القطعــة من البحر وقرئ فلق بلام بدل الراء[2]، وقــام الماء كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبســا كوجه الأرض واليابس هو ما كان رطباً وجافا، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [ســورة طه]. أى لا تخاف أن يدركك فرعون ولا تخشــى أن يغرق قومك فى البحر.

وفى العهد القديم: "فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم" (الخروج ١٤ : ٢٢).

«وأما بنو إســرائيل فمشوا على اليابســة فى وسط البحر والماء سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم» (الخروج ١٤: ٢٩).

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير فتح القدير.

حتى إذا أشــرف فرعون على شــاطئ البحر وجدهم يقودهم موسى فى طريق يابس وسط المــاء، وعلــى جانبيه تقف الأمواج العاتية كالجبال الراســية. دنا فرعون وأصحابه بعد ما قطع موســى ببنى إسرائيل البحر، فلما رأى فرعون وجنوده البحر منفلقا استعظموا الأمر، وفى سفر الخروج (١٤ : ٢٥):

«فقال المصريون نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصرين عنهم». وقال فرعون لهم: إنمــا انفلق من هيبتى وقد تفتح لى حتــى أدرك أعدائى فأقتلهم، وقال: أقدموا فليس القوم أحق بالبحر منكم! فذلك قول الله ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) ﴾ [ســورة الشــعراء] أى قرَّبنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه، وقيل (أزلقنا) جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمــع، وقرأ أبو عبد الله بن الحارث وأبــى كعب وابن عباس: وأزلقنا بالقاف على معنى أهلكناهم من قوله أزلقت الناقة وأزلقت الفرس فهى مزلق إذا أزلقت ولدها[1].

فلمــا قــام فرعون على الطــرق أبت خيله أن تقتحم، فكان أمــر الله لها أن تنزل البحر خلف موسى وقومه.

«فدفع الرب المصريين فى وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر لم يبق منهم ولا واحد» (الخروج ١٤ : ٢٧ – ٢٨).

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾ [سورة طه].

وأتبع هنا مطاوع تبع، يقال أتبعتهم إذا تبعتهم وذلك إذا ســبقوك فلحقتهم، فالمعنى: تبعهــم فرعون ومعه جنوده وقيل الباء زائــدة والأصل أتبعهم جنوده: أى أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه وقرئ ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ بالتشديد: أى لحقهم بجنوده وهو معهم. كما يقال: ركب الأمير بسيفه أى معه سيفه[2].

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [سورة يونس] بغياً وعــدوا أى فــى حال ظلم واعتداء، والعدو بفتح العين وســكون الدال تجاوز الحد، وقوله تعــالى ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ فى ســورة الكهف أى لا تتجــاوز إلى غيرهم. وقرأها البعــض ﴿ وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ بضم العين والدال وتشــديد الواو مثــل علا يعلوا علوًّا.

(١) تفسير القرطبى.

(٢) تفسير فتح القدير.

وقال المفســرون بغيا طلبا للاســتعلاء بغير حق في القول وعدوا في الفعل فهما نصب على المفعول له.

«وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر» (الخروج ١٤: ٢٣).

«فإن خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه إلى البحر، ورد الرب عليهم ماء البحر، وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر» (الخروج ١٥: ١٩).

أقبل فرعون فلما أشرف على الماء دخل البحر خلف بني إسرائيل وتبعه الجيش بجميع عرباته، قال أصحاب موسـى: يا مكلـم الله إن القوم يتبعوننا في الطريق فاضرب بعصاك البحـر فاخلطه، فأراد موســى أن يفعل فأوحى الله إليه: أن اتــرك البحر رهواً أى اتركه ساكنا على حاله التي كان عليها حين دخلته، أو اتركه طريقاً يبساً سهلا أو منفرجا فذلك معنى «رهوا»[1].

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الدخان].

دخل فرعون وجنوده البحر خلف بني إسرائيل وما كاد يلحق بهم ممنياً نفسه بإعادتهم إلى مصـر ثانيــة ليكونوا في خدمته وتســخيره، وحتى إذا اســتكملوا دخــولا وخرج آخر أصحاب موســى أوحــى الله إلى البحر: خذ عبدى الظالم وعبادى الظلمة، سـلطاني فيك فإني قد سلطتك عليهم، بدأت قوائم الخيل وعجلات المركبات تغوص في الوحل وأقبلت الأمــواج العاتية هادرة وانطبق البحر عليهم وغشــيتهم الميــاه، وما هي إلا ثوان قليلة حتى ابتلعهم البحر في جوفه.

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ســورة طه]. أى علاهم وأصابهم والتكرار في غشــيهم للتعظيم والتهويل، وقيل غشيهم البعض الذى غشيهم لأنه لم يغشهم كل مــاء البحر بل الذى غشــيهم بعضه، فهذه العبــارة للدلالة على أن الذى غرقهم بعض الماء والأول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم. وقرئ فغشــاهم من اليم ما غشاهم: أى غطاهم ما غطاهم[2].

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الذاريات]. والنبذ هو الطرح أو الإلقاء أما اليم فهو البحر. واليم كلمة أصلها قبطي أى مصرى وتعني بالمصرية القديمة ym «يم»

(١) تفسير الطبرى، وتفسير القرطبى.

(٢) تفسير فتح القدير.

بمعنى البحر أو النهر، وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشر. والمليم كما ترى معظم كتب التفاسير: هو الذى قد أتى ما يلام عليه من الفعل أو هو ملوم جاحد فاجر معاند. وان أرجع د. رمضان عبده[1] هذا اللفظ إلى أصله فى اللغة المصرية القديمة تحت معنى mr مر أو مل أى يشكو أو يتألم وظهرت قبل الأسرة الثامنة عشرة فى البرديات الطبية، وأصبحت فى العربية ململ أى يتقلب من الألم.

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [سورة يونس] .

وهكذا انطبق البحر عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتراكمت المياه فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال، وقد أدركه الغرق وأيقن بالهلكة وأشرف على الموت، آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فآمن حيث لا ينفعه الإيمان. هى إذاً عادة كل مستقو بجبروته وملكه وسطوته يتذكر الله عندما تنسحب الدنيا من تحته وتتلاشى سلطته ويضيع ملكه.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٥) ﴾ [سورة غافر].

وفرعون وهو يدركه الغرق وليس ثمَّ من مفر له فتقل أنفاسه ويخاصره الموت ولا يملك للنجاة طريق وتبلغ الروح الحلقوم، عندها وعندها فقط، يدرك أنه كان على ضلالة وأن الذى جاء به موسى هو الحق، وأنه لم يكن إلها كما يدعى أو كما روَّج له المروجون من السدنة والمتملقين المنتفعين، بل الإله الحق هو إله موسى وبنى إسرائيل وهو رب العالمين فيجهر بذلك:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾[سورة يونس].

تُرى هل تنفع تلك التوبة، وهذا الجهر بالتسليم والإذعان بعد هذا التاريخ الطويل والممتد من الإسراف والظلم والطغيان والتكبر والاستعلاء والفساد والإفساد والضلال والتضليل

---

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، دراسة حول تطور علاقة موسى بالمسئول فى مصر، فى الفترة التى عاش فيها، مجلة التاريخ والمستقبل، العدد الثانى، يوليو ٢٠٠٠.

والعناد والكفر وادعاء الألوهية والربوبية.

إن الوقت قد فات ولا يجدى الآن ما يظهر من تسليم وإيمان ولهذا قال الله له:

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة يونس] أى من المفسدين فى الأرض. إن هذا الاعتراف والإذعان بالإيمان بما آمن به موسى لم يكن سوى وليد القهر والغلبة واليأس من النجاة والإشراف على الهلاك.

وهكذا ألمَّ الغرق بفرعون وجنوده فى لحظة فارقة فى التاريخ، ونجَّى الله موسى ومن معه أجمعين، وكانت آية عظيمة أبصرها بنو إسرائيل جميعاً بأم أعينهم. ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

غير أن البعض من بنى إسرائيل وهم أمام هذه الآية الكبرى جحدوا غرقه، وقالوا: ما غرق فرعون، هو أعظم شأنا من أن يغرق. وسألوا الله تعالى أن يريهم إياه غريقا، فأخرجه الله سبحانه من الماء ونبذه على ساحل البحر حتى نظروا إليه ورأوا جثته طافية ميتة، فذلك قوله:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة يونس].

وننجيك أى نلقيك على نجوة من الأرض أى مرتفع. والمقصود نخرج جثتك ونبقيها عبرة ولتكون آية وعلامة لمن خلفك ولمن وراءك من المصريين والفراعنة، ومن لم يدركه الغرق ولم ينته إليه هذا الخبر، من بنى إسرائيل إذ كان فى نفوسهم من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحا على ممرهم من الساحل[1]

أو تكون آية لمن يأتى بعدك من الأمم إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالاً من الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وغلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وهكذا كانت نهاية الفرعونية الملعونة فى الدنيا والآخرة، وهى النهاية المنطقية والمحتومة لكل هذه البشاعة

(١) انظر تفسير الطبرى والقرطبى وابن كثير والجلالين.

والقبح من خليط الصفات المذمومة.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾ [سورة القصص]. وهكذا أخذ ربك إذا اخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه اليم شديد، وما كان ربك بظلام للعبيد.

فهل على أمثال هؤلاء من الظالمين المكذبين بالآيات الغافلين عنها يمكن أن تبكى السماء لعظم مصيبتهم كما كانت العرب تقول مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء[1]، لا يمكن.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [سورة الدخان].

إن قوم فرعون لم يكن يصعد إلى السماء منهم خير ولم يكن لهم فى الأرض آثار صالحة ولم يعملوا عليه عملاً صالحاً بل كانوا من المفسدين الفاسقين ولهذا لم تبك عليهم السماء والأرض، وما كان الله ليؤخرهم إلى وقت آخر فيتوبوا.

وهكذا كان عقابهم، ولحقته وقومه اللعنة فى الدنيا فهم ملعونون على ألسنة الأنبياء والخلق، ويوم القيامة هم من (المقبوحين) أى من القوم الذين قبحهم الله وشوّه خلقتهم أو المهلكين المقوتين[2].

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾ [سورة القصص].

فترادفت عليهم اللعنتان من الله، لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة.

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ [سورة هود].

وتقول كتب التفسير: إنهم لما هلكوا وأغرقهم الله جعلت أرواحهم فى أجواف طير سود فهى تعرض على النار كل يوم مرتين (غدوا وعشيا) إلى أن تقوم الساعة.

وجميع المفسرين يرون أن هذا العرض يكون فى البرزخ بالإضافة إلى أشد العذاب الذى سيدخله آل فرعون يوم القيامة فيكون العرض على النار غدواً وعشياً نوعاً من عذاب القبر. وفى حديث صخرة بن جويرة عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن

(١) تفسير القرطبى.

(٢) تفسير فتح القدير.

الكافر إذا مات عرضت روحه على النار بالغداة والعشـــي وإن المؤمن إذا مات عرض روحه على الجنة بالغداة والعشـــي[1]، ثم تـــلا: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

ومـــاذا يمكن أن يتوقع من جزاء مع هذا الســـجل الحافل بالاســـتكبار والتكبر والإجرام والتعالى وعدم الإيمان بالآيات الواضحة، وهذا الإجرام السافر، والظلم البيِّن.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

إن هذا الظلم وهذا الإجرام لابد أن ينتهى إلى الهلاك:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة يونس].

وقـــد جعلهم الله ســـلفا لمثل مـــن عمل بعملهم و عبرة للمعتبريـــن وعظة للمتعظين يتعظ بهم من بعدهم من الأمم فينتهوا عن الكفر والظلم والتكبر والاســـتعلاء والاجرام وغيرها من الذنوب والآثام.

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة النازعات].

﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

ولعل من الملفت للنظر خلو الوثائق المصرية من متون ونقوش وبرديات من أية إشـــارة أو خبر أو رســـم يشـــير إلى تلك الأحداث الجســـام فى التاريخ المصرى القديم، على الرغم مما هـــو معروف عن المصريين من حرصهم على دقة تســـجيل وتدوين تاريخهم ونقش لأحداثه على جدران معابدهم ومقابرهم، مقارنة بما وجد فى العهد القديم من تفصيل مســـهب لهذا الحدث الحيوى لبنى إســـرائيل، أو ما ذكره القرآن فى ســـياق قصة موسى مع فرعون. وقد يرجع الســـبب، فى ذلك إلى أن وجود بنى إســـرائيل فى الحيـــاة المصرية كان من الهوان بحيث لا يستحقون أية إشارة تدل على قيمة مادية أو معنوية لهم. ويعلل (جون سميث)[2] ســـكوت الآثار المصرية عن قصة الخروج – أى خروج بنى إســـرائيل من مصر – بأنها من

(١) تفسير القرطبى.

(٢) (J.W. Smith, God & Man in Early Israel, London, 1956, P38.

وجهـــة النظر المصرية الفرعونية حدثاً ثانوياً لا يزيد عن كونها فرار مجموعة من العبيد من ســادتهم المصريين، وما كانت هذه بالحادثة التى تســجل على جدران المعابد أو التى تقام لها الآثار لتسجيلها. إذ كان كل ما يهم المؤرخ المصرى فى عصوره الفرعونية المختلفة كلها هو تدوين انتصــارات الفرعون ومفاخره، وما قام به للآلهة الذين كانوا يؤازرونه وينصرونه فى المواقع كلها. فليس من المتصور إذاً أن تسجل على المعابد دعوة موسى لإله أكبر هو رب العالمين، كما أنه من غير المعقول تسجيل فشل فرعون فى منع خروج بنى إسرائيل، فضلاً عن غرقه أثناء مطاردتهم. إذ إنها أحداث يجب فرض تعتيم إعلامى كامل عليها وعلى كل ما يتعلق بها والعمل على محوها من ذاكرة الأمة وهو أمر غير مستغرب.

وقد يرجع هذا الســكوت لاحتمال آخر هو أن الجيش الفرعونى الذى أصابه الغرق قد ضم كل العناصر الهندسية والكهنوتية التى كانت عماد الحضارة المصرية فى ذلك الوقت، فلمــا بادت هذه الطبقة كلها، خلت البلاد من ذوى الشــأن فيهــا، وأقفرت وتحولت إلى بؤرة صراع على السلطة لم تكد تستقر بعد العديد من السنين حتى كانت هذه الأحداث قد نسيت تماماً ويرشحها للنسيان والإهمال الكامل أنها تتعلق بعبيد الأمس الذين سيصبحون أعداء لمصر.

وقـــد حاول بعض علماء الآثار البحث عن اســم «موســى» عليه الســلام فى النصوص المصرية القديمة وافترض بعضهم العثور على هذا الاسم فى بردية تسمى بردية «أنستاسى الأولى»، غــير أن هــذا لا يمكن الاعتمــاد عليه نظراً لوجود العديد من الأشــخاص الذين يحملون اسم «مس».

وقامت بعثة جمعية الاكتشافات الأثرية المصرية الإنجليزية بعمل حفائر فى شرق الدلتا، وكانت تأمل فى العثور على بقايا أثرية لجماعات الخروج غير أنها لم تعثر على أية أدلة مادية على ذلك.

كمــا أن النتائــج العلمية من الحفائــر التى تمت فى منطقة «جريكو» فى فلســطين عام ١٩٠٧ – ١٩٠٩ لم تعطِ أى دليل أثرى على موضوع الخروج. وكذلك البعثة الفرنسية فى عام ١٩٣٩ التى قامت بعمل حفائر فى تانيس شــرق الدلتا وعثرت على مقابر الأســرة الحادية والعشرين لم تعثر على أى أثر يرجع إلى أحداث الخروج. وبالمثل نتائج الحفائر التى قامت بها بعض البعثات الأثرية اليهودية بالاشتراك مع بعثات أجنبية أخرى فى مناطق مختلفة من شبه جزيرة سيناء خلال احتلال اليهود لها بعد عام ١٩٦٧.

والأثــر الوحيــد الــذى ذكر فيه لفظ «اســرئيل» تلــك اللوحة التى عثــر عليها الأثرى البريطانــى «فلندرز بترى» فى خرائــب معبد مرنبتاح بطيبة (الأقصر) عام ١٨٩٦، وتعرف بأنشــودة النصر أو بلوح إســرائيل، إذ ورد اسم إســرائيل عليه لأول مرة فى التاريخ. وهى لوحة من الجرانيت محفوظة فى المتحف المصرى تحت رقم ٣٤٠٢٥ (صورة ٥).

وتاريــخ هــذه اللوحة يعــود إلى عهد الملك أمنحتــب الثالث أحد ملوك الأســرة الثامنة عشــرة الذى نصبها فى معبده الجنائزى فى البر الغربى فى طيبة، وســجل على وجهها الأمامــى نصاً عــن إنجازاته المعمارية التى قام بها فى فترة حكمه (١٣٩٥ – ١٣٦٣ ق.م). وبعد ما يقرب من مائة وخمســين عاما تقريبا قام الملك مرنبتاح (صورة رقم ٦)، أحد ملوك الأســرة التاسعة عشرة وابن الملك رمســيس الثانى، بنقلها إلى معبده الجنائزى الذى شيده إلى الشــمال من معبد أمنحتب الثالث فى البر الغربى من طيبة. وقام بتســجيل نص آخر علــى وجهها الآخر. ومما ســاعد على عملية نقل هــذه اللوحة إلى معبده هو قربه من معبد أمنحتب الثالث.

ويبــدو أيضــا أن إمكانيات النحت قد قلت كثيرا فى عهــده. ونلاحظ أيضا أن مرنبتاح لم يحــاول أن يمحو ويطمس النص الخاص بأمنحتب الثالث مما يدل على أن هذه اللوحة كانــت قائمة فــى مكان ظاهر فى معبده الجنائزى ولم تكــن ملصقة إلى جدار أو حائط فى المعبد وإلا لأثّر ذلك على سلامة نص أمنحتب الثالث الذى عثر عليه فى حالة جيدة. ولعل وضعهــا فى مكان ظاهــر كان مقصوداً حتى يتمكن من يدخل معبــده الجنزى من أن يقرأ النصــين معــا وربما يقارن أيضا بين ما حققه أمنحتــب الثالث من إنجازات معمارية وبين ما حققه مرنبتاح من فتوحات عسكرية.

ولعل تســمية هذه اللوحــة بـ «لوحة إســرائيل» قد جانبه الصواب، والأولى تســميتها بـ«اللوحــة ذات النصــين» أو «لوحة انتصارات أمنحتب الثالــث ومرنبتاح» أو «نص البر الغربى لأمنحتب الثالث ومرنبتاح».

ويمثل النص، الذى ذكر فيه لفظ إســرائيل، قصيدة يســجل الكاتب فيها النصر الكبير الذى أحرزه مرنبتاح على شــعوب وقبائل البحر المتوسط واللوبيين وما جاء فيها من وصف لمدى هذا الانتصار. وقد وصف فيها الشاعر هزيمة الأعداء المنكرة والأعمال الجسام التى قام بها مرنبتاح للذود عن حياض بلاده وتخليصها من غارات الليبيين وكســر شــوكتهم، وما صارت إليه حالة أمير «لوبيا» وأسرته من بؤس وشقاء.

والقصيدة تزخر بالاستعارات والتشبيهات المختارة مما أسبغ عليها صورة أدبية أكثر من أن تكــون وثيقة تاريخية خالصة. ولم يفت الكاتب أن يصف الفرعون بالعدل والاســتقامة فيقول:

فهو يعطى كل ذى حق حقه، فالثروة تتدفق على الرجل الصالح، أما المجرم فلن يتمتع بغنيمة ما.

ثــم ينتقل الشــاعر إلى وصف الســلام والطمأنينــة والرخاء التى ســادت البلاد بعد هذا الانتصار فيقول:

فحتى الحيوان قد ترك جائلاً بدون راع

فى حين أن أصحابها يروحون ويغدون مغنيين

وليس هناك صياح قوم متوجعين

وفى ختام القصيدة أو الأنشــودة يُعدِّد الشــاعر القبائل والأقاليم التى أخضعها مرنبتاح، وهو الجزء الذى يحظى بالأهمية التاريخية الكبيرة وهذا نصها:

ويقول الرؤساء المطروحين أرضاً: السلام!

ولم يعد يَرفع واحد من بين «قبائل البدو تسعة الأقواس» رأسه. (اسم قديم لجيران مصر المعادين لها).

والتمحو (إحدى القبائل التى كانت تسكن ليبيا) قد خربت.

وبلاد «خاتى» قد أصبحت مسالمة.

وكنعان أسرت مع كل خبيث. وأزيلت «عسقلان».

و «جيزر» قبض عليها. و «ينوم» أصبحت لا شيء.

وإسرائيل خربت وليس لها بذر.

و «خارو» (سوريا) أصبحت أرملة لمصر.

وكل الأراضى قد وجدت السلم.

وكل مــن ذهب جائلاً أخضعه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ابن رع محبوب آمون ابن الشمس مرنبتاح منشرح بالصدق، معطى الحياة مثل رع كل يوم.

وتمثــل هــذه اللوحة المثل الوحيــد الذى ذكر فيه لفظ إسـرائيل وعثر عليــه فى الآثار المصرية، والجملة التى ذكر فيها هى:

«وإسرائيل خربت وليس لها بذر».

وعلى الرغم من تكرار مثل هذا التعبير فى اللغة المصرية القديمة فى مواضع أخرى، فإن استعمالها هنا بالنسبة لبنى إسرائيل كان ذا أهمية كبيرة فى بحث موضوع خروجهم من مصر سواء كان فى هذا العهد أم قبله. أما فيما يتعلق بمعنى العبارة نفسها فقد ترجمها علماء اللغة والآثار بأوجه مختلفة منها:

- وإسرائيل قد أقفروا وبذرتهم قد انقطعت (بريستد J.H. Breasted).
- وقوم إسرائيل قد صاروا قفرا، ومحاصيلهم قد ذهبت. (جرفث F. L. Grifith).
- وقوم إسرائيل قد اتلفوا، وليس لديهم غلة. (بترى F.Petrie)
- واسرائيل قد محى وبذرته لا وجود لها. (نافيل H.E. Naville)

ويذكر سليم حسن[1] أن علماء الآثار واللغة قد ترجموا الجملة التى وردت عن إسرائيل (وليس لها بذر) على وجهين بعضهم قال: إن محاصيلهم قد ذهبت أو ليس لهم غلة. والأصح الوجه الآخر كما قال عالم المصريات الأمريكى جيمس هنرى بريستد (١٨٦٥ - ١٩٣٥): وإسرائيل قد أقفروا وبذرتهم قد انقطعت. أو كما قال نافيل عالم المصريات السويسرى (١٨٤٤ - ١٩٢٦)[2]: وإسرائيل قد مُحى وبذرته لا وجود لها. ويشير إلى أن كلمة (بذرة) تدل على (الخَلَف) وهذا يتطابق مع ما نجده فى اللغات الأخرى بمعنى أن البذرة والنسل واحد. وأنه فى الدول العربية للآن نجد أن كلمة (بذرة) تستعمل بمعنى (النسل) أو (الأولاد)، ويقال لمن لا نسل له (لقد انقطعت بذرته).

ويضيف «سليم حسن» أن فى الأصل المصرى للنقش تفصيلاً فى كتابة إسرائيل له أهميته. فلقد درج المصريون فيما يخطون لغتهم القديمة هيروغليفية أو هيراطيقية أنهم كانوا يلحقون بهجاء اللفظ صورة، أو علامة تدل على المعنى وتخصصه وتعرف باسم المخصص. وكانوا فى ذكر المواضع والشعوب يلحقون بأسمائها رسماً يدل على الأرض السهلة إن كانت مصرية، أو رسماً يدل على الأرض الجبلية الوعرة - ورمزا آخر للأجنبى - أى لغير المصرى. وفى تلك القصيدة ورد ذكر تحنو، وخاتى، وورد ذكر كنعان، وعسقلان، وجيزر، وبانوعام، ثم اسم خارو (سوريا) وألحق بكل منها رسم الأرض الأجنبية الوعرة بغير استثناء. أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذى استثنى من رسم الأرض، حيث لا

---

(١) سليم حسن، مصر القديمة، الجزء السابع، ص ١١١.

(2) Henri Edouard Naville, Archeology of the Old Testament.1915 - The Store-City of Pithom and the Route of the Exodus, London, 1885

أرض محددة لهم يومئذ لا فى فلسطين ولا فى غير فلسطين، وكان الرسم الذى ألحق باسم إسرائيل هو صورة رجل وامرأة دلالة على أنهم مجرد جمع من الناس لا غير. وهذا يدل على أن الشاعر أو الكاتب الذى تغنى بانتصار (مرنبتاح) وصاغ هذا النشيد كان يعنى ذلك جيداً، ولا سبيل إلى التشكيك فى طريقة كتابة القصيدة بما يقال من احتمال خطأ الكاتب المصرى القديم وسهوه، فقد كان واعياً لما يكتب وأورد أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص ١٩ (تسعة عشر) مرة لم يغفل رسم رمز الأرض الأجنبية فى واحدة منها سواء ما سبق اسم إسرائيل أم ما ورد بعده. ويخلص من ذلك إلى أن أنشودة النصر هذه تشير إلى طائفة من (بنى إسرائيل) كانت فى بعض بقاع فلسطين أو تخومها حين خرج مرنبتاح لقمع ثورة هناك. وهذا يعنى أنهم قد خرجوا من مصر قبل عهده.

ويذهب البعض وراء هذا الرأى، ومن هؤلاء عبد العزيز صالح[1] الذى يرى أن لوحة مرنبتاح لم تذكر تتبعه لهم من مصر وذلك يعنى أنهم دخلوا فلسطين قبل عهده، وبالتالى فهم خرجوا من مصر قبل عهده أى فى أواخر عصر رمسيس الثانى. ويوافق هذا الرأى «نافيل» الذى يرى أن اللوحة تدل على أن بنى إسرائيل قد خرجوا من مصر قبل مرنبتاح أو فى أوائل حكمه. غير أن هذا الافتراض الأخير وهو خروج بنى إسرائيل أوائل حكم مرنبتاح يتنافى مع الحقيقة المؤكدة وهى أن فرعون الخروج غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل، فلا يمكن أن يكون الخروج حدث فى أوائل حكم مرنبتاح بل يكون قد حدث فى أواخر حكم رمسيس الثانى الذى غرق أثناء مطاردتهم.

وبالتالى فإن هذه اللوحة قد كتبت بعد غرق فرعون (والمرجح هنا أنه رمسيس الثانى) وكتب نصها خَلَفه (مرنبتاح) تخليداً لذكرى انتصاره على الليبيين، وأضاف إليهم «بذرة إسرائيل قد أبيدت» كنوع من الافتخار الكاذب. فلا يعقل أن يكون الفرعون قد غرق أثناء مطاردة بنى إسرائيل ثم يدعى أنه أبادهم.

نقطة ثانية يقولها «نافيل H.E. Naville»، والذى قام بحفائر فى منطقة تل المسخوطة وفى وادى الطميلات وقدم تقريره عن هذه الحفائر تحت عنوان «قصة مدينة بتوم (فيثوم) وطريق الخروج» عام ١٨٨٥، أنه لا يعتقد أن الإشارة إلى سوريا فى اللوحة تشير إلى حرب حقيقة وقعت فى سوريا. فالحقيقة أنه لا يوجد ما يدل على أن مرنبتاح قد قاد أو سيَّر حملة إلى سوريا أو فلسطين. كما أن ما ذُكر من أن كل أراضى بلاد «خاتى» أصبحت مسالمة

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، الشرق الأدنى القديم، جـ ١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٠ ص ٢٥٥..

هو كما يقال من قبيل تحصيل الحاصل لأنها كانت مسالمة منذ المعاهدة التى وقعها والده رمسيس الثانى مع ملكها. إذ لو كان الأمر كذلك وحارب سوريا ودخل فلسطين لوجدنا إشادة بأعماله العظيمة التى قام بها هناك غير هذه الكلمات القليلة التى جاءت فى نهاية متن هذه اللوحة.

إذاً فالأسطر الأخيرة من هذه اللوحة تدل على أن سلامة البلاد كانت تامة، ففى الجانب الغربى من البلاد ومع اللوبيين كان نصره حاسماً، ومن الجانب الشرقى من جانب «خيتا» كانت فى سلام معه منذ حكم والده، أما الممالك الأخرى التى يصح أن تصبح أعداء له فقد صارت بلا حول ولا قوة.

فلا محل إذا للقول بأن بنى إسرائيل كانوا قد استقروا فى فلسطين لبعض الوقت ثم ذهب مرنبتاح وأباد بذرتهم وأعاد النفوذ المصرى إلى فلسطين ثانية. ويَجُبّ هذا كله أن سنوات التيه ثابتة لورودها فى القرآن الكريم وفى العهد القديم أيضاً فلا محل لإسقاطها أو إنكارها. فإن ذكره لإبادة بنى إسرائيل فى هذه اللوحة لا يعدو أن يكون كما يشير بيومى مهران(1) إلى أنه أحد الاحتمالات التالية:

● أنه ذهب إلى فلسطين ووجد بعضاً من العابيرو، وهم أقرباء لبنى إسرائيل وفرع منهم، فأبادهم، وظن أو ادعى أنه أباد بنى إسرائيل.

● أو أنه ذهب إلى فلسطين ولم يجد بنى إسرائيل وبحث عنهم فى أنحاء فلسطين فلم يجدهم فاعتقد أنهم هلكوا فى الصحراء ونسب هلاكهم إلى نفسه.

● بالإضافة إلى كونه مجرد تفاخر اعتاده الفراعنة منذ أول عهود تاريخهم وأصبح أمراً موروثاً، أو أن مرنبتاح لم يقد أو يرسل حملة إلى فلسطين إطلاقاً. وأنه كما نسب السلام مع «خاتى» لنفسه، فقد أراد أن يؤكد أنه لم يقل عن سلفه فى اهتمامه بأملاك مصر فى آسيا. فكان أن ضمَّن نصره على الليبيين نصراً فى الشرق أيضاً، فأضاف خاتى وجيزر وعسقلان وبالمثل كانت إضافته لاسم إسرائيل وكان ذلك أسهل إذ إنهم لم يكونوا دولة بل قوماً بدون أرض كما هو واضح من طريقة ذكرهم فى هذه اللوحة.

غير أنه يمكن القول أن تاريخ بنى إسرائيل فى مصر لم يذكر فى النصوص المصرية القديمة فيما يعرف حتى الآن غير هذه الإشارة التى جاءت فى هذه اللوحة، هذا إن كانت تدل عليهم. ويرجع هذا إلى أنهم لم يكن لهم مكانة اجتماعية أو سياسية تذكر، فقد كانوا

(1) محمد بيومى مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، جـ ٣، ١٩٨٤، ص ٥٠٠.

فى عهد يوسف عليه السلام كما جاء فى العهد القديم من رعاة البدو، وكان كل راع يعد فى نظر المصرى لعنة.

وفى زمن موسى عليه السلام كان الإسرائيليون فوق ذلك كله عبيداً. ومن ذلك نفهم أنهم لم يكونوا بأية حال من هؤلاء القوم الذين يعنون بتدوين أعمالهم فى السجلات الرسمية، غير أنه وجدت حادثة واحدة تتصل بإقامتهم فى مصر كان لها من الوجهة المصرية أهمية سياسية واقتصادية، وذلك أن قيامهم بعمل مشترك وهو قصة خروجهم جملة من مصر كان يهم الحكومة وقتئذ لما كانوا يقومون به من أعمال السخرة للفرعون فى إقامة مبانية. وعلى ذلك فإن الإشارة إليه فى السجلات الحكومية الخاصة بهذا العصر ممكن، وبخاصة إذا كان هؤلاء القوم يقومون بأعمال جسيمة ومفيدة للبلاد عامة وللفرعون خاصة. من هنا فإن ذكر بنى إسرائيل فى النقوش المصرية المعاصرة لإقامتهم فى مصر لابد أن يشير إلى حادثة خروجهم. وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون الإشارة فى أنشودة النصر هذه تشير إلى حادثة الخروج على أن ذلك يتوقف على أمرين كما يذكر سليم حسن[1]:

أحدهما يتعلق بمعنى الجملة التى جاءت فى الأنشودة خاصة بإسرائيل وهو ما تناولناه من قبل.

والثانى: هو العلاقة بين تاريخ الخروج وتاريخ نقش هذه اللوحة.

أما تاريخ اللوحة فمسجل فى متن النقش نفسه إن هذه القصيدة قد أرخت بتاريخ يوم الانتصار الذى أحرزه مرنبتاح على اللوبيين وهو اليوم الثالث من الشهر الحادى عشر من السنة الخامسة من حكم مرنبتاح. ولكنها ألفت بطبيعة الحال فيما بعد ويظهر أن هذه الحوادث التى ذكرت فى هذه القصيدة قد حدثت فى زمن قبل زمن تاريخ اللوحة، وإذا كانت قد وقعت واقعة بعد انتصاره على اللوبيين لفصل لنا فيها كما هى العادة عند الفراعنة.

أما تاريخ خروج بنى إسرائيل فغير معلوم ولا يمكن تحديده بصفة قاطعة. وعلى ذلك فقد رأت طائفة من المؤرخين والأثريين من هذه اللوحة أن إسرائيل إن كانت قد تعرضت فى فلسطين لهزيمة مرنبتاح، فينبغى أن يكون خروجهم بالضرورة من مصر واستقرارهم بعد سنوات التيه الأربعين فى فلسطين قد حدث فى عصر قبل عصر مرنبتاح وافترضه البعض فى عصر تحتمس الثالث أو امنحتب الثالث. وهناك طائفة أخرى ترى كما ذكر فى العهد القديم أن الفرعون الذى قام باضطهاد بنى إسرائيل وسخرهم فى خدمته هو «رمسيس

---

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٧، ص ١٠٩.

الثانى». وأن الفرعون الذى ينسب إليه الخروج هو ابنه مرنبتاح. ويستدلون بذلك بما ذكر فى العهد القديم سفر الخروج (الإصحاح ١: ١١):

«فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس».

و كما يذكر سليم حسن[1] والذى يشير إلى أن الاسرئيليين أجبروا على السخرة فى إقامة مبانى مدينتى «بتوم» أو كما جاءت فى العهد القديم «فيثوم» ورعمسيس اللتين كانتا تستعملان مخازن. وأن الحفائر التى تمت فى «تل رطابة» (بتوم) و«بررعمسيس»، قد دلت على أن الأولى قد أعيد بناؤها، وأن الثانية قد أقيمت فى عهد «رمسيس الثانى». حيث تم التحقق من اسم كلتا المدينتين فى العهد القديم فردت الأولى إلى تصحيف فى اسمها الأصلى «برتوم» بمعنى «دار أتوم» إله الشمس الأكبر. وردت الثانية، كما هو ظاهر، إلى اسم رمسيس، وعثر على آثار تحمل اسمه هناك. وكان قد اتخذها هو وبنوه من بعده عاصمة لهم باسم برعمسيس بمعنى دار رمسيس.

ومن الأدلة الأثرية التى تمدنا ببعض الإفادة فى هذا الموضوع تلك الوثيقة البردية المعروفة بورقة «أنستاسى السادسة» والمحفوظة بالمتحف البريطانى بلندن. وهذه الوثيقة ذكر فيها أحد الموظفين أنه كتب لرئيسه فى خطاب حكومى ينسب إلى عهد الفرعون الملك مرنبتاح:

(إن بدو (شاسو) إيتام (إدوم) قد سمح لهم على حسب التعليمات التى لديه أن يجتازوا الحصن الذى فى إقليم «سكوت» (تل المسخوطة) فى «وادى طميلات» ليتاح لهم رعى ماشيتهم بالقرب من بلدة «بتوم» (بيت آتوم) فى ضياع الفرعون العظيم.

ووادى طميلات المذكور هو وادى ضيق كانت تجرى على جانبية قناة متفرعة من النيل شرقاً حتى البحيرات المرّة، وهو بمثابة مدخل لمصر من آسيا. وقد كان هذا الوادى موضع اهتمام «رمسيس الثانى» فأقام فيه عدة حصون، ففى وسطه أنقاض مبان فى «تل رطابة». وعلى مقربة منه شرقاً نجد بقايا مدينة «بر آتوم» (بيت آتوم وهى المعروفة باسم «بتوم»). وعلى مسافة منه شرقاً تصادفنا أنقاض «تل المسخوطة» المعروف باسم «سكوت» وبالمصرية القديمة «سكو».

والبردية التى فيها هذا الخطاب قد وجدت ممزقة ولذلك لم يتسن ترجمتها كلها على

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ٧، ص ١١٦ .

الوجه الأكمل وما تبقى منها نص قصير والترجمة الدقيقة له هى:

(أمر آخر يسر سيدى، لقد انتهينا من ملاحظة مرور قبائل «شاسو» التابعين «لأدوم» من حصن «مرنبتاح حتب حر ماعت» له الحياة والفلاح والصحة فى «سكوت» نحو برك «بتوم» لأجل أن يطعموهم ويطعموا قطعانهم فى ضيع الفرعون له الحياة والفلاح والصحة وهو الشمس الطيبة لكل أرض.. ولقد جعلتهم يحضرون..) إلى هنا ينتهى النص الموجود بالبردية[1].

وهذا الخطاب كتب فى السنة الثامنة من حكم الفرعون مرنبتاح. ويظهر منه أن هؤلاء الشاسو (البدو) كان قد سمح لهم بالاستيلاء على بعض أرض الفرعون فى جوشن (وادى طميلات)، ومن البديهى أن هذه الحالة لا يمكن أن تحدث إذا كان الإسرائيليون لا يزالون يقيمون فى أرض جوشن فى السنة الثامنة من حكم هذا الفرعون.

وعلى ذلك فلابد أن تكون حادثة الخروج قد وقعت فى وقت ما قبل هذا التاريخ، وهذا يجعل تاريخ الخروج على أية حال قريباً من تاريخ نقش اللوحة. وهذا الدليل لا يسمح بتقريب زمن خروجهم أكثر من ذلك بل يجوز أنه قد يتقدم به.

وعلى النقيض من ذلك هناك من ينفى صلة بنى إسرائيل بلوحة النصر أو لوحة مرنبتاح السابقة ومنهم د.رمضان عبده[2] الذى يذكر أن أغلب العلماء عندما يتعرضون لهذه الفقرة فى كتاباتهم يترجمون كلمة «يزريل بـ إسرائيل» وهذا ما يخالف فى رأيه قراءة وترجمة الكلمة على هذا النحو. ويرى قراءتها وترجمتها بـ «يسيراو» والمقصود بهذه التسمية سكان أو قبائل سهل «يزريل» أو «جزريل» (Jezreel) - الذى ذكره العهد القديم تحت اسم اسدرالون (Esdraelon)، وهو مرج ابن عامر من الناحية الشرقية الشمالية من جبال الكرمل والذى يمتد من حيفا غرباً إلى وادى الأردن.

ومن ناحية أخرى فإن ترجمة الاسم بـ «إسرائيل» يخالف ما كان سائداً من أوضاع سياسية فى فلسطين فى عصر الأسرة التاسعة عشرة وما قبلها، لأن ترجمة الكلمة بـ «إسرائيل» يعنى وجود أرض مملكة إسرائيل على أرض فلسطين فى بداية هذه الأسرة أو قبل قيامها بفترة، وهذا لم تشر إليه النصوص من هذه الفترة.

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٦، ص ٥٨٧ .

(٢) رمضان السيد عبده (دكتور)، تاريخ مصر القديمة، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، هيئة الآثار المصرية، جـ ٢، ١٩٩٣.

ويبدو أن جيش مرنبتاح قد اتخذ الطريق الدولى القديم الذى يمكن تتبعه من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع إلى مناجم النحاس والفيروز فى شبة جزيرة سيناء، ومن سيناء يتجه الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتى جبال الكرمل على مسافة من البحر. ومن هنا يتفرع إلى طريقين يتجه الواحد إلى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانى الفينيقية. ويسير الأخر إلى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الأردن فى واديه الشمالى ثم يتجه رأساً إلى دمشق فى الشمال الشرقى.

وكما يحدثنا نص مرنبتاح أن جيش الملك بدأ بمعاقبة كنعان ويقصد بها هنا مدينة غزة ثم عسقلان وهما يقعان على الساحل الجنوبى لفلسطين، ثم سار إلى وادى الأردن أو منطقة مرج ابن عامر (Esdraelon) أى اجتاز فلسطين بأكملها وتقابل مع سكان أو قبائل سهل جزريل أى فى المنطقة التى تفصل بين تلال الجليل فى الشمال عن مرتفعات فلسطين فى الجنوب. ويلاحظ أن الكاتب المصرى قد اتبع الترتيب الجغرافى أى ذكر مدن جنوب الساحل ثم الموجودة فى الداخل فى الشمال الشرقى.

ويضيف د. رمضان عبده فى بحث آخر له[1] أن كلمة «يزريل» بها مخصص العصا المعقوفة وهو المخصص نفسه الذى نجده فى أسماء الشعوب الأجنبية. كما أن كاتب النص أضاف إلى الكلمة أو الاسم مخصص الرجل الجالس والمرأة واتبعهما بثلاثة شرط علامة الجمع. مما يؤكد أنه يقصد الأقوام أو الشعوب أو القبائل أو الأشخاص.

ويلاحظ أيضا خلو الكلمة أو الاسم من أية مخصصات للمكان (الجبل أو المدينة) مما يدل على سكان البلاد الأجنبية والذى نجده فى أسماء بعض المدن الفلسطينية مثل كنعان وعسقلان وجزر وينعم. ونلاحظ كذلك أن فى أسماء هذه المدن الأخيرة يوجد مخصص العصا المعقوفة والجبل معا مما يعنى أنها تخص ممالك أو دول وشعوبها أو مدن سكانها. ولهذا فإن غياب مخصص الجبل أو المدينة من كلمة «يزريل» يدل على أن التسمية يراد بها أقوام كانت تعيش فى مناطق الحواف الجنوبية لسهل جزريل شرق شمال جبال الكرمل، ولهذا لم يربطهم النص صراحة بمدينة أو بمنطقة جبلية داخل فلسطين نفسها. وذلك يعنى أيضا أنهم كانوا أقواماً فى حالة ترحال وتنقل دائمين، أو كانوا من سكان مناطق السهل المتاخم للحدود مما تؤكده علامة الحدود فى الاسم. ومما يدل على أن الحديث هنا فى كلمة

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، اللوحة ذات النصين ليست لوحة إسرائيل، مجلة كلية الآداب جامعة المنيا، ١٩٩٠.

«يزريل» عن ســهل، هو المصطلح المصرى القديــم : bnprt.f أى "لم يعد له بذور" حيث إن الزراعة لا تنمو إلا فى مناطق الســهول. كما أن الكاتب المصرى استخدم الضمير المتصل للشخص الثالث الغائب المذكور المفرد للدلالة على الملكية «له» ولم يكتب «لهم».

ويضيف بأنه لم يذكر لنا النص من قريب أو من بعيد أنهم كانوا من نزلاء فلسطين. كما يستدل بنص مؤرخ من العام الثامن من حكم رمسيس الثانى جاء فيه التعبير الجغرافى يزرى (ل) الــذى كان يطلق على المنطقة جنوب فينيقية وهذا التعبير قريب الصلة بكلمة «يزرى» فى نص مرنبتاح حيث يلاحظ وجود مخصص العصا المعقوفة والجبل معاً فى نهاية الكلمة. وهــذا النقش عبارة عن نص موجود على البرج الشــمالى للصرح الأول فى معبد الرامســيوم يســجل فيه الملك رمسيس الثانى اســتيلائه على ٢٨ مدينة فى منطقة الخليل قامت بثورة ضده، واستولى عليها الواحدة تلو الأخرى.

وعلى ذلك فإن كلمة «يزريل» (Jezreel) «مرج ابن عامر» فى شــرق شمال جبال الكرمل يقصد بها سكان هذه المناطق ولا يقصد بها كما فهم أو فسر أغلب علماء الدراسات المصرية بالاســم «إســرائيل». ومما يعزز هذا الرأى هو ما جاء فى نهاية الفقرة: «وخارو أصبحت أرملة لمصر»، وكما نعلم أن كلمة «خارو» كان يقصد بها جنوب فينيقية (أو ســورية) وجزء من فلســطين. ولم يظهر أى من التعبيرين: يزريل الذى جاء فى نص مرنبتاح ويزرى (ل) الــذى جاء فى نص رمســيس الثانى فى المصادر التاريخيــة أو الأثرية المصرية من العصور اللاحقة مما يشــير إلى أن هذين التعبيرين اســتخدما فقط فى الأسرة التاسعة عشرة للتعبير عن معنى جغرافى محدد.

ويشــير إلى أن كل هــذه المعطيات تصب فى خانة أن المقصــود بكلمة «يزريل» فى نص مرنبتاح هم قبائل ســهل جزريل الذين أرادوا أن يحتكوا بجيوش.الملك مرنبتاح فأنزل بهم أشــد العقاب. وإذا نظرنا إلى ترتيب ذكر مدن الساحل فى نص مرنبتاح نجده يذكر كنعان وعسقلان وجزر وينعم مما يدل على أن جيوش الملك بعد أن أخضعت مدن الساحل اتجهت إلى الناحية الشــرقية الشمالية من سهل فلسطين لإخضاع القبائل هناك الذين ربما تعرضوا لسبل التجارة المصرية والدليل على ذلك أن نهاية النص تخبرنا « وبالنسبة لأى من (أقوام) الرحل الخارجين (عن الطاعة) فإنه سوف يقضى (عليه) بواسطة ملك مصر»وتختلف قبائل ســهل «يزريل» عن جماعات البدو المعروفة التى كانت تقطن جنوب فلســطين وتغير على الحدود الشــرقية لمصر وتهدد طرق التجارة مثل العابيرو، والشاســو والبديوشــو. وقد فرق

الكاتب المصرى فى نصوص الدولة الحديثة بين هذه القبائل خارج حدود مصر الشرقية، فهى قبائل رحل.

وتشير الفقرة «لم يعد له بذور» أن المنطقة أصابها دمار شديد، أى لم يصبح لديها ما تستطيع أن تقتات به، على الرغم من أن النص لم يذكر السبب الحقيقى وراء معاقبة هذه الجماعة أو القبائل. ولكن كان من نتيجة هذه الحملة أن أصبحت سورية وفلسطين بدون حماية، وهذا هو المقصود بالتعبير «خارو أصبحت أرملة لتاميرى» أى إن جيوش الملك نجحت فى تأمين الحدود الشرقية وما وراءها.

كما أن اسم إسرائيل لم يرد فى مصادر التوراة إلا فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حين ذكر أن ميشع ملك مؤاب حارب إسرائيل، وأن لوحة مرنبتاح ترجع إلى القرن الثالث عشر ق.م (١٢٣٠ق.م)، فى العام الخامس من حكمه.

ومن هنا يصل إلى أن نص مرنبتاح ليس له صلة بأحداث الخروج وذلك لأننا نعلم أن الظروف التى مهدت للخروج وأسبابه معروفة فى آيات القرآن الكريم وكذلك المعجزة التى وقعت خلال الخروج. فكلمة «خروج» أو «طرد» لم ترد فى نص اللوحة بالنسبة لقبائل سهل «يزريل» ولم يذكر النص كذلك أى تتبع للملك لهذه القبائل من داخل الحدود المصرية نفسها، ولم يذكر النص أيضاً أية معجزة.

وقد عثر على اسم الملك مرنبتاح على أكثر من أثر فى شبه جزيرة سيناء وجزر ورأس الشمرة وتل الدوير فى فلسطين مما يدل على نشاطه واهتمامه بتأميم هذه المناطق الشرقية.

ويبدو أن عهد مرنبتاح كان عهداً لإحياء روح الكفاح الوطنى، ففى عهده كتبت بردية ساليبة رقم ١ التى تعود بالأحداث إلى الوراء وتحدثنا عن بداية حرب التحرير ضد ملوك الهكسوس والتى بدأها «سقنن رع». وكتبت هذه البردية فى ذلك العهد لتبين أن الانتصارات القومية القديمة لم تمح من مخيلة بعض المثقفين والكتبة مهما طال الأمد عليها.

ويبدو أن تسجيل الانتصار على الليبيين وشعوب البحر على أكثر من مصدر، وكتابته فى نص طويل من ثمانين سطراً «نص الكرنك الأثر رقم ٤» يدخل ضمن هذه السياسة لبعث روح الكفاح الوطنى والإشارة إلى حملته على آسيا وبعض المدن الفلسطينية، والمبالغة فى معاقبة هذه المدن وقبائل سهل يزريل ربما كان اتجاهاً معيناً من الكتبة المصريين الذين ربما قد تأثروا بأحداث الخروج المحتمل وقوعه أو حدوثه قبل عهد مرنبتاح؟.

وهناك حقيقة هامة وهى أن آيات القرآن الكريم تؤكد لنا أن فرعون قد غرق هو ومن معه

أو هو وجنوده ثم أمر الله عز وجل بأن ترفع جثته مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة يونس].

وقد قال ابن عباس[1] وغيره من السلف فى تفسيره لهذه الآية: «أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موت فرعون، فأمر الله سبحانه وتعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا من موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى «فاليوم ننجيك» أن نرفعك على نشز من الأرض «ببدنك». قال مجاهد بجسدك، وقال الحسن «بجسم لا روح فيه» وقوله «لتكون لمن خلفك آية» أى لتكون لبنى إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك وأن الله هو القادر. وجاء فى سفر الخروج «أن ملك مصر قد مات وتنهد بنى إسرائيل».

والآن كيف يكون مرنبتاح هو فرعون الخروج كما يدعى البعض طالما أنه قام بحملته على فلسطين فى العام الرابع أو الخامس من حكمه، فلو أنه غرق لما ذكر اسمه على بردية أنستاسى السادسة، والمؤرخة بالعام الثامن من حكمه. كما أن لدينا آثاراً مؤرخة بالعام العاشر من حكم مرنبتاح. وإذا كان الملك قد غرق فى أعقاب طرد بنى إسرائيل لما قيل له فى نهاية السطر ٢٨ على لوحته هذه الدعوة والتى تذكر لكل ملك: «معطى الحياة مثل رع يومياً» والدعوة نفسها ذكرت فى نص الكرنك «الأثر رقم ٤ السطر ٧٩ معطى الحياة مثل رع أبدياً».

كما أن مدة حكم مرنبتاح كانت مدة حكم قصيرة نسبياً فقد حكم حوالى عشرة أعوام أو أقل أو أكثر بقليل، وعندما تولى الحكم كان كبيراً فى السن. وعلى الرغم من كبر سنه إلا إنه كان خبيراً فى شئون السياسة الخارجية وشعر بالخطر الذى كان يهدد حدود مصر الغربية والشرقية. ويبدو أن تأثير مرنبتاح فى أبيه العجوز كان كبيراً وكان هو الموجه الحقيقى للسياسة الخارجية للبلاد لهذا فإن احتمال حدوث الخروج فى عهده مع الظروف التى مهدت له لا يمكن أن تحدث خلال هذه الفترة القصيرة من الحكم وعلى ذلك فهو ليس فرعون الخروج، ولا لحملته على فلسطين أية صلة بأحداث الخروج.

وبناءً على كل هذا فإن تسجيل أحداث الخروج بما فيها من وقائع وتفاصيل ومعجزات يحتاج إلى كثير من الأسطر وربما إلى أكثر من نقش على لوحة واحدة.

ومن المحتمل أيضاً أن أحداث الخروج قد حذفت عن عمد من النصوص لأنها تمس العقيدة ولهذا فلا يجب الاعتماد على فقرة قصيرة أو كلمة مشكوك فى قراءتها فى نص

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير.

مرنبتاح للإدلاء بآراء كبيرة والربط بينها وبين حدث دينى هام مثل حادث الخروج، وتخيل قيام مملكة إسرائيل قبل قيامها الفعلى بأربعة قرون تقريباً يتعارض مع حقائق التاريخ.

كما أن الملك رمسيس الثالث (١١٩٨ – ١١٦٦ ق.م) قد قام بعد العام الحادى عشر من حكمه بحملة للقضاء على ثورة قامت فى بلاد الشام. وقضى الملك على جماعة من البدو كانوا يتنقلون فى الصحراء جنوب فلسطين ولم يكن ذلك سوى غارة حربية لم تتكرر بعد ذلك ولم تذكر نصوص رمسيس الثالث أية إشارة إلى بقايا لأقوام اليسيراريو مما يدل على أن الملك مرنبتاح قد قضى عليهم تماماً.

ومن المحتمل أن يكون هناك نوع من الرقابة قد فرض على تسجيل مثل هذه الأحداث وعدم الإشارة إلى ما تعرض له فرعون موسى من مصير وما حدث فى عهده من معجزات أو كوارث. لأن كل ما كان يعبر عن الفشل والمصائب والكوارث فى حياة الملوك نجده قد انتزع من النصوص الرسمية أو أشير إليه إشارة عابرة.

وإن سير الرسل والأنبياء وما نادوا به من رسالات وما قاموا به من أعمال ومعجزات هى رسالات روحية سماوية مقدسة أسمى من أن تسجل على أثر مادى وأسمى من أن تسجل بواسطة كتبة عاديين أو بواسطة من لهم خبرة فى النقش والنحت. لأن سير هؤلاء الرسل الذين شرفت بهم أرض مصر القديمة منهم سيدنا إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وغيرهم ظلت بدون شك حية فى قلوب من آمنوا برسالاتهم ومن عاصروهم من أبناء مصر القديمة. وظلت ذكرى ما نادوا به تتناوله الأجيال عبر آلاف السنين. فجاء ذكرهم فى آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم وذكرهم وذكر أعمالهم فى آيات القرآن أبلغ من أى مصدر آخر من صنع البشر، وذكرهم إنما هو بمثابة تشريف لتاريخ مصر القديمة.

كما ظلت المصادر التاريخية فى بلاد الشرق القديم على صمتها إيزاء قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم والذين جاء ذكرهم فى آيات القرآن الكريم منهم سيدنا نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى وإلياس وياسين ويونس وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم. فلم نعثر حتى الآن على أية إشارة لهذا القصص فى المصادر الأثرية القديمة بلغة أقوامها فى بلاد النهرين وفلسطين والأردن وشبه الجزيرة العربية أو فى غيرها. ألا يدعونا كل هذا إلى التأمل والتفكير ؟.

وللأسف فإن بعض نظريات علماء الدراسات المصرية القديمة والتفسيرات الخاطئة لبعضهم تلقى قبولاً من البعض، كما يذكر د. رمضان عبده، فيتبناها غير مدرك خطورتها

دون الرجـــوع إلى قراءة النصـــوص الأصلية قراءة صحيحة ، فالتلاعـــب بالكلمات وتزويرها وطمـــس الحقائـــق أو تحريفها أمر متوقع مـــن دعاة بعض التيارات السياســـية كالصهيونية ومؤيديها فى أوروبا لتفســـير التاريخ حســـب أهوائهم وأطماعهم وإعطاء التفسيرات اللغوية الخاطئة بعداً تاريخياً لا يتفق مع حقائق الأحداث.

□□□

الفصل الرابع

فرعون موسى

لقد كانت تقتضى الطقوس والتقاليد المصرية القديمة أن يتم تحنيط جثة المتوفى والحفاظ عليها فى مكان آمن حتى ينعم فى العالم الآخر بما كان ينعم به فى الحياة الدنيا. ويبدو أنه بعد غرق فرعون أثناء مطاردة بنى إسرائيل، قام من نجا من الغرق بانتشال جثته وقام أفراد البيت الملكى وكبار الكهنة بتحنيطها ونقلها فى تابوت إلى طيبة حيث مقبرة الملك بوادى الملوك.

وقد يدعونا الفضول إلى محاولة معرفة أو استنباط كنه هذا الفرعون، فرعون موسى، الذى يختلف فيه القول وتتضارب حوله الآراء، وجميعها آراء لا بينة واضحة على صحتها، وإن كان بعضها تدعمه بعض الأدلة والحيثيات. ونظراً لخلو الآثار المصرية مما يشير إلى حادثة الخروج هذه، كانت التكهنات المختلفة والمتعددة والتى تقوم على افتراضات لا تستند على دليل أثرى يمكن الاعتماد عليه فى تحديد هذا التاريخ، وبالتالى تحديد الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام والذى تناولت الكتب المقدسة صفاته دون البوح باسمه. فرأى البعض أن خروج بنى إسرائيل من مصر قد حدث فى عهد الهكسوس، ورأى آخرون أنهم قد خرجوا فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وبالتحديد فى عهد الملك تحتمس الثالث (١٥٠٤ – ١٤٥٠ ق.م تقريبًا)، وآخرون يعتقدون أن خروجهم كان فى عهد ابنه أمنحتب الثانى (١٤٥٠ – ١٤٢٥ ق.م تقريبًا)، كما أن هناك من الباحثين من يرى أن ذلك قد حدث فى عهد أمنحتب الثالث (١٤١٧ – ١٣٧٩ ق. م تقريبا)، ووصل الأمر ببعضهم إلى القول بأن خروجهم من مصر كان على أثر وفاة أمنحتب الرابع (اخناتون) الذى تولى الحكم فى الفترة من ١٣٧٩ – ١٣٦٢ ق.م تقريبًا، أو أن اخناتون نفسه هو موسى عليه السلام. وظهرت آراء أخرى ترى أن الخروج حدث فى عهد رمسيس الثانى (١٣٠٤ – ١٢٣٧ ق. م)، أما الرأى الوحيد المعتمد على نص مشكوك فى صحة قراءته وتفسيره فإنه يرى أن خروج بنى اسرائيل من مصر كان فى أيام مرنبتاح (١٢٣٦ – ١٢٢٣ ق.م تقريبًا) وذلك استناداً إلى لوحته المعروفة.

ويمكــن اجمــالى هذه الافتراضات التى تناولت هذه الحادثة وفرعون موســى بالدراســة والبحــث جاهديــن من خلال بعض الأدلة الوصول إلى كنه هذا الفرعــون ومن يكون، وفيما يلى مثل هذه الافتراضات وأصحابها.

الافتراض الأول

أصحاب هذا الافتراض يرون أن أحمس الأول (صورة ٧) طارد الهكسوس هو فرعون موسى زاعمين أن الهكســوس هم بنو إســرائيل، معتمدين فى ذلك على أن مانيتون الســمنودى، الكاهــن والمؤرخ المصرى القديم، ذكر أن العابــيرو (أو الخابيرو) الذين ذكروا فى النصوص المصرية القديمة هم أنفسهم العبرانيون أى بنو إسرائيل. وهم أيضاً الهكسوس الذين حكموا مصر وأن طرد الهكسوس من مصر بواسطة أحمس هو نفسه خروج بنى إسرائيل من مصر، وبالتــالى فــإن أحمس هو فرعون موســى!. وأول مــن قال بهذه النظرية المــؤرخ اليهودى يوسيفيوس (يوسف) ابن متى، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى. ونهج نهجه فى ذلك عدد من المؤرخين معظمهم من اليهود.

ولا يمكن تصديق هذا الادعاء لســببين: أن المصدر الذى ينســب إليه هذه المعلومة وهو كتــاب «مانيتون»، المؤرخ المصرى الذى عاش زمن بطليموس الثانى فى مدينة سمنود، قد فقد فى حريق مكتبة الإســكندرية عام ٤٨ق.م. كما أن تســمية الهكســوس فى أصلها لم تعبر عن شــعب معين بقدر ما عبرت عن صفة لمجموعة من الحكام أطلق عليها المصريون القدماء اســم «حقاو خاسوت» بمعنى حكام البرارى. وحوَّر بعض مؤرخى الإغريق وغيرهم هــذه التســمية إلى «هكســوس» التى ترجمها مانيتــون بمعنى «ملوك الرعــاة»، ثم ترجمها يوســيفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى بمعنى «الأســرى الرعاة». وربــط بينهم وبين العبرانيين كطائفة تابعة لهم، وافترض أن النبى يوســف دخل مصر فى عصرهــم، وأنهــم أى العبرانيون خرجوا معهم بعد جلائهم من مصر. وقد يرمى من وراء هذا إلى التدليــل على قدم نشــأة اليهود وأن طائفة منهم أو هم أنفســهم قد حكموا مصر مدة من الزمن وهى فترة حكم الهكســوس والتى وصلت إلى ٢٠٥ أعوام تقريبًا. والمعروف تاريخياً أن أول قدوم بنى إسرائيل كان عند مجىء يعقوب وأولاده بدعوة من ابنه يوسف عليهم السلام والذى كان نائباً لأحد ملوك الهكســوس الذى احتفى بهم وأكرمهم وأنزلهم أرض «جاسان» أو «جوشــن» شــرق الدلتا، حيث أظهروا له ولاءهم على الرغم ممــا ركب فيهم من حب

العزلـة والاعتزال والاعتداد بعصبيتهم وحرصهم على عدم الامتزاج بالمجتمع الذى آواهم.
كما يذكر العهد القديم:

«فأتى يوسـف وأخبر فرعون وقال أبى وإخوتـى وغنمهم وبقرهم وكل ما لهم جاءوا من أرض كنعـان وهوذا هم فى أرض جاسـان. وأخذ من جملة إخوته خمسـة رجال وأوقفهم أمـام فرعون، فقال فرعون لإخوته ما صنعتكم فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعـاً. وقالوا لفرعون جئنا لنتغـرَّب فى الأرض إذ ليس لغنم عبيدك مرعى. لأن الجوع شديد فى أرض كنعان، فالآن ليسكن عبيدك فى أرض جاسان. فكلم فرعون يوسف قائلاً: أبـوك وإخوتك جـاءوا إليك. أرض مصر قدامك فى أفضل الأرض أسـكن أباك وإخوتك، ليسـكنوا فى أرض جاسـان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواش على التى لى» (سفر التكوين ٤٧: ١ - ٦)

ولقد رأى الهكسوس فيهم عوناً لهم خصوصاً أنهم أهل بداوة مثلهم. وأثمروا وتوالدوا كما يقـول العهد القديم، ولعلهم قد كانوا عوناً للهكسـوس عندما خاض المصريون معهم حرب التحرير. المهم أنهم «أثمروا وتوالدوا وكثروا» فمن أين إذاً كان التسـخير والعذاب والتمسك بالبقاء أى إنهم لم يتعرضوا لتسخير الفرعون أحمس وسوء عذابه كما أنه لم يتمسك ببقائهم (إن كانوا هم الهكسوس فعلاً) بل كان يطاردهم ليجليهم عن أرض مصر، وهذا يتعارض مع ما هو معروف من أن فرعون موسى، كما تذكر التوراة، تمسك ببقاء بنى إسرائيل فى مصر لتسـخيرهم فى خدمته. كما أن أحمس كان يحكم من جنوب مصر فى طيبة فى حين أن الهكسـوس كانوا فى الشـمال وأن بنى إسرائيل كانوا يتركزون فى أرض جاسان أو جوشن شـرق الدلتا فكيف يتأتى لأم موسـى أن تلقيه فى النهر فيلتقطه آل فرعون الذين يقطنون الجنـوب! كما أن أحمس لم يَردْ عنه ادعـاؤه الألوهية. والعديد من الأدلة الأخرى تجعل هذا الافتراض فكرة واهية غير قابلة للتصديق والقبول.

الافتراض الثانى

يقول بأن فرعون التسـخير والذى سـخَّر وعذَّب بنى إسـرائيل وقتل أبناءهم واسـتحيا نسـاءهم هو أحمس الأول بينما فرعون الخروج والـذى غرق فى اليم وطفت جثته وصارت لمن خلفـه آية هـو الفرعون تحتمس الأول (صورة ٨). وقائل هـذا الرأى هو الدكتور محمد

وصفـي[1] الذى يـرى أن أحمس إنما قام بما قام به من قتل وتعذيب واضطهاد كان نتيجة لموالاة بنى إسرائيل للهكسوس المحتلين الغزاة، فكان من الطبيعى أن يعمل على استئصال هـذه العناصر الموالية لهم، فكان يذبح أبناءهم حتى لا يكبروا فيصبحوا شـوكة فى ظهره. وكان يستعمل بنى إسرائيل فى بناء المدن فلم يكن من السياسة أن يبيدهم كلهم.

ويقول: إن بنى إسـرائيل ظلوا فى التعذيب منذ أن تولى أحمس الحكم عام ١٥٨٠ ق.م وأن موسـى ولد سنة ١٥٧١، ويقول إن موسـى عاصر ثلاثة فراعين هم بالترتيب: أحمس الأول مدة ١٤عاماً وأمنحتب الأول ١٦ عاماً ثم تحتمس الأول مدة ٣٩ عاماً. وأن موسـى لما قتل المصرى كان عمره ٦١ عاماً وتغرب فى أرض مدين ٨ سـنوات ثم عاد وعمره ٦٩ عاماً ودعا الفرعون سنة واحدة ثم كان الخروج.

ويتعـارض هذا الافتراض أيضا مـع مجموعة من الحقائق التاريخية أولها أن مركز حكم وإقامة أحمس كما قلنا سابقاً كان فى جنوب مصر فى طيبة فلا يعقل أن يتم التقاط موسى فـى الجنـوب حيث مقر الملك، فالنهر يجرى إلى الشـمال لا إلى الجنوب. كما أن السـنة التى قضاها موسى فى دعوة فرعون وقومه قبل الخروج لا تكفى فيما يُعتقد لإظهار الآيات العديدة التى ساقها الله على يد موسى والثابتة فى الكتب المقدسة.

كما أن تحتمس الأول لم يثبت عنه تاريخياً ادعاؤه الألوهية كما تؤكد الكتب المقدسة عن فرعون موسى، بل إنه استولى على الحكم بعد وفاة والده الملك أمنحتب الأول، على الرغم من أن والدته «سنى سنب» لا يجرى فى عروقها الدم الملكى، فلم تكن زوجة رئيسية للملك أو ابنة ملك، ولكنه اسـتطاع أن يستولى على العرش بزواجه من الأميرة أحمس التى كانت أغلب الظن من أصل عريق تنتمى إلى العائلة المالكة. ولعله كان يشعر بنقص من هذه الناحية فحاول أن يزجى لنفسـه ألقاباً ملكية فأطلق على نفسـه (ملك من ابن ملك) محاولاً بذلك الانتساب إلى سلسلة الفراعين ذوى الحق الشرعى. ولما كان الأمر كذلك، وبالكاد وصل إلى العرش فإنه لم يكن ليتجاوز ذلك ويدّعى الألوهية كما هو ثابت فى حق فرعون موسى.

وقد حكم طبقاً لما ورد فى تاريخ مانيتون اثنتى عشـرة سـنة وتسـعة أشـهر. كما أنه لم يرد أن تحتمس الأول مات ميتة فجائية أو غير طبيعية، بل مات ميتة عادية وخلفه ابنه تحتمس الثانى مسـتنداً إلى زواجه من الوريثة الشـرعية أخته غير الشـقيقة بنت تحتمس

(١) محمد وصفى، الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسـل، ترجمة وتحقيق: بسـام عبد الوهاب الجابى، دار ابن حزم، ١٩٩٧ ص ١٥٦.

الأول (حتشبسوت).

كما أن التواريخ التى أوردها فيما يتعلق بمدة الحكم للفراعنة الثلاثة المذكورين «أحمس» وأمنحتب الأول» و«تحتمس الأول» غير دقيقة وتختلف مع كثير من المصادر التاريخية الموثوقة. إذاً هناك من الأدلة ما يتعارض مع هذه الفرضية وينفيها أيضًا.

الافتراض الثالث

يعتمد أصحاب هذا الافتراض على عملية حسابية ترجح مولد موسى قبل خروج بنى إسرائيل من مصر بثمانين عاماً، اعتماداً على ما ذكر فى العهد القديم سفر (ملوك أول: ٦ : ١): «وكان فى السنة الأربع مائة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من مصر فى السنة الرابعة للملك سليمان على بنى إسرائيل فى شهر زيو هو الشهر الثانى أنه بنى بيت الرب». ولما كان حُكم سليمان قد بدأ عام ٩٧٠ ق.م، فالعام الرابع من حكمه هو العام ٩٦٦ ق.م فإذا أضفنا إليها الـ ٤٨٠ سنة لعاد ذلك بنا إلى عام ١٤٤٦ ق.م أى فى أواخر حكم تحتمس الثالث ١٥٠٤ – ١٤٥٠ ق.م. هذا بالإضافة إلى اعتقادهم بأن الملكة حتشبسوت (صورة: ٩) التى كانت ابنة لتحتمس الأول هى التى عثرت على تابوت موسى وتبنته كما تقول التوراة، ثم تزوجت من أخيها غير الشقيق تحتمس الثانى الذى أصبح فرعوناً واستمر يحكم مصر خمس سنوات فقط. وهى بذلك زوجة الفرعون التى انتشلت موسى من الماء كما يذكر القرآن وكان ذلك عام ١٤٢٧ ق. م وأنه تربى فى بلاطها وضمن حاشيتها.

ولما تولى تحتمس الثالث العرش ونظراً لعداوته السابقة للملكة التى اغتصبت حقه فى الحكم فقد فر موسى من مصر إلى مدين خشية انتقامه وقد اختفت حتشبسوت من التاريخ المصرى سنة ١٤٤٢ ق. م وكان عمر موسى وقتها أربعين عاما. ثم عاد إليها وكان الخروج منها عام ١٤٤٧ق. م. وعلى ذلك فإن فرعون موسى أكثر من شخص، تحتمس الأول الذى اضطهد بنى إسرائيل وتحتمس الثانى الذى قام بتربية موسى وتحتمس الثالث الذى جاء له موسى فيما بعد نبيا مرسلا وهو فرعون الخروج. وممن ينادى بهذا الرأى «مراد محمد محمود الدش» ويرى أن العبور كان من بحيرة قارون وذلك فى كتابه «عبور موسى من بحيرة قارون، وتحتمس الثالث فرعون الخروج».

وهناك مجموعة من الحقائق تعارض هذه الفرضية وتدحضها: أولى هذه الحقائق أن المدة المذكورة فى سفر «ملوك أول» السابقة والمقدرة بـ ٤٨٠ عاماً تختلف فى بعض ترجمات

العهــد القديم عن بعض الترجمات الأخرى. فبعضها يجعلهــا ٤٤٠ عاماً فقط، ومنهم من يزيدها الى٥٨٠ عاماً! مما يرجح أن يكون هذا الرقم المذكور كان تخميناً من أحد كتبة العهد القديــم وليس رقمــاً دقيقاً لأن هناك ١٢ جيلاً تقع بين الخروج وبين بناء هيكل ســليمان. وافــترض واضــع هذا الرقم لكل جيل ٤٠ عاماً فيكون ١٢ × ٤٠ = ٤٨٠. ولو اقترضنا لكل جيل ٢٥ عاماً بافتراض أن الأبناء ســيتزوجون فى ســن الخامســة والعشرين وهو افتراض معقــول لكان ١٢ × ٢٥ = ٣٠٠ وهذا يقودنــا إلى تاريخ الخروج فى عام ١٢٧٠ ق.م، أثناء حكم رمســيس الثانى الذى كان حكمه بين ١٣٠٤ – ١٢٣٧ ق. م. هذا بالإضافة إلى أن فرار موســى من مصر إلى مدين كما أشــار القرآن الكريم كان بســبب الخوف الذى تملكه نتيجة قتلــه للمصرى. كما أن تحتمــس الثالث لم يثبت تاريخياً عنه أنــه قد أدعى الألوهية بل على العكس من ذلك كان رجلا قد امتاز بشــفقته وإنســانيته بــل ورحمته بالمغلوبين. فقد رأيناه كما يقول ســليم حســن[1] يتجاوز عن سيئات أمراء الحلف الذين تآمروا عليه بعد أن وقعوا فى قبضته فى موقعة «مجدو» فلم يسلبهم عرشهم، أو يحرمهم متاعهم، وحتى عدوه اللــدود «أمــير قادش» وكذلك أمير «تونب» نراهما قد مثلا فى قبر «مدير أعماله «منخبر رع سنب» وقد أتيا إلى الفرعون أحرارا لم توضع فى أيديهما السلاسل ولا فى رقابهما الأغلال ممــا يدل على أنهما كانا بدورهما قد صفح عنهمــا. وكذلك نلحظ أن رهائن العدو قد لاقوا معاملة حســنة، وأعيدوا فى نهاية الأمر إلى أوطانهم، ولم نســمع مرة أن «تحتمس الثالث» (صــورة ١٠) قد مثّل بأجســام قتلى العدو الذى هزم بصلبهم فى مقدمة ســفينته كما فعل جــده «تحتمس الأول» وابنه «أمنحتــب الثانى». كما أنه كان رجلاً صادقاً متديناً إذا يقول عن نفسه:

«إنى لم أنطق بكلمة مبالغ فيها ابتغاء الفخر بما عملته فأقول إنى فعلت شــيئاً دون أن يفعله جلالتى ولم آت بعمل فيه مظنّة، وقد فعلت ذلك لوالدى الإله آمون لأنه يعرف ما فى السماء ويعلم ما فى الأرض ويرى كل العالم فى طرفة عين».

كما أن بنى إســرائيل لم يكن فى استطاعتهم دخول فلسطين بعد سنوات التيه الأربعين لأن النفوذ المصرى كان قوياً فى فلســطين فلقد أســس تحتمس الثالث إمبراطورية واســعة وطيدة الأركان، واســتمر النفوذ المصرى قوياً فى منطقة الشرق الأدنى وفى فلسطين بالذات أثنــاء حكــم من خلفه من الفراعنة أمنحتــب الثانى ٢٣ عاماً – تحتمــس الرابع ٨ أعوام

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٤، ص ٥٠٩.

- أمنحتب الثالث ٣٧ عاماً أى لمدة ٦٨ عاماً. حتى وإن كان النفوذ المصرى قد ضعف قليلاً أيـام حكـم أختاتون فإنه عاد ثانية بعد انتهاء ثورته الدينية وبلغ أوجه ثانية أيام سـيتى الأولى ورمسيس الثانى.

الافتراض الرابع

وصاحـب هـذا الافتراض هو الدكتـور رمضان عبده(١) والذى يقول عنه أنه ليس سـوى افتراض قابل للمناقشـة يقوم على القول بأن قصة موسـى عليه السلام وقعت أحداثها فى عصر الأسـرة الثامنة عشـرة (١٥٦٧ - ١٣٢٠ ق.م)، دون تحديد دقيق لعصر الملك الذى وقعت هذه الأحداث فى عصره، معتمداً فى ذلك على التأويل اللغوى لمجموعة من المفردات اللغوية التى ذكرت فى القرآن والمتعلقة بقصة موسى عليه السلام وأصولها فى اللغة المصرية القديمة والتى يعود معظمها إلى عصر الأسـرة الثامنة عشـرة والقليل منها إلى تل العمارنة، ومن هذه المفردات:

«امرأة» فى [سورة القصص]: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ ويردها إلى أصلها فى المصرية القديمة بمعنى mrt مرت أى محبوبته وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة.

«الأسباب - أسباب السموات» فى سورة غافر:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ويرى أن أصلها فى المصرية القديمة isbt «اسـبت» بمعنى «قبة السـماء» وظهرت هذه الكلمة فى عصر الأسـرة الثامنة عشـرة (فى نصوص تل العمارنـة) وهى تعنى فى العربية الفصحى «كنه أو سر السموات».

وكلمة «المدينة» فى [سورة القصص - الآيات ١٥، ١٨، ٢٠]:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، دراسة حول تطور علاقة موسى بالمسئول فى مصر فى الفترة التى عاش فيها، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، العدد الثانى، يوليو ٢٠٠٠.

عَدُوِّهِۦ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ويرجــع أصلهــا فى المصرية القديمة الى mdn «مِدن» وظهرت فى عصر الأســرة الثامنة عشر.

وكلمة «الملأ» والتى ذكرت فى [سورة الأعراف – الآيات ١٠٣، ١٠٩، ١٢٧]:

﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

وفى [ســورة الزخرف]: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

ويرجــع أصلها فى المصرية القديمة إلى mr «مِر» والتى حرفت إلى مل أى ملأ وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة.

«اليم» فــى [ســورة الأعــراف]: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ وفى سورة طه الآيات ٣٩ و ٧٨ و ٩٧.

﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ

﴿إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾﴾. وفى [سورة القصص - الآيات ٧ و ٤٠]:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وفى [سورة الذاريات]: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾.

ويرى أن أصلها فى المصرية القديمة ym «يم» وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشر.

وكلمة ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾ فى [سورة البقرة]:

وفى [سورة طه]: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾.

يرى أن أصلها فى المصرية القديمة db3t «جبات» وتعنى تابوت، وظهرت فى عصر الدولة الوسطى وجاءت منها كلمة Tb.t «تبت» فى العصر البطلمى بمعنى «صندوق».

والتابوت هنا فى الآيات يعنى الصندوق الصغير الذى وضع فيه سيدنا موسى رضيعا، والذى وضعت فيه فيما بعد بقايا عصاه وألواحه وما تركه هارون مصداقاً لقول تعالى فى [سورة البقرة]:

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾. ولا تعنى كلمة تابوت هذا التابوت الذى كان أحد القطع الضرورية للدفن فى مصر القديمة.

وفعل «تصطلون» والذى ذكر فى [سورة النمل]:

﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

وفى [سورة القصص]: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

يرى أن أصله بالمصرية القديمة St3 ستا «نار أو قليل منها» أدخلت عليها أداة التعريف T3 «تا» ومنها جاء الاسم الدفىء ، وربما استخدمت أيضاً كفعل بمعنى ينشر الدفىء، وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وفى العربية «اصطلى النار» أى استدفأ بها.

والنهى «لا تنيا» فى [سورة طه]:

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) ﴾، وأصلها فى المصرية القديمة tnj3 ثنيا فعل بمعنى يضعف، وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشر.

وكلمة «ردءا» والتى ذكرت فى [سورة القصص]:

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) ﴾.

وأصلها بالمصرية القديمة rd «رد» بمعنى نوع من الرداء، وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة بمعنى رداء. أى جعل له رداء بمعنى "دعمه وقواه" كما فى المعجم الوسيط، الجزء الأول، ص٣٣٧.

وكلمة "رهوا" التى ذكرت فى [سورة الدخان]:

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ وأصلها بالمصرية القديمة r3 h3w «رهاو» بمعنى فم النيل (بالقرب من بحيرة المنزلة. ومعناها بالعربية "بحر رهو" أى بحر ساكن، راجع المعجم الوسيط، الجزء الأول، ص ٣٧٩.

«صرحا» التى ذكرت فى [سورة غافر]:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) ﴾ وأصلها بالمصرية القديمة Srh «سرخ» بمعنى واجهة قصر أو بوابة معبد، وظهرت فى الأسرة الثامنة عشرة وتعنى بالعربية «البناء العالى الذاهب فى السماء»، راجع المعجم الوسيط، الجزء الأول، ص١٢.

والفعل «عبَّدت» فى [سورة الشعراء]:

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ ويرى أن أصلها فى المصرية القديمة Cbdt «عبدت» بمعنى جعلتهم «أهلاً للاستعباد»، وجاءت من الاسم cbd بمعنى عبد.

«غنمى» فى [سورة طه]:

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾. وأصلها بالمصرية القديمة hnm «غنم» بمعنى «قطيع حيوانات» وظهرت هذه المفردة منذ عصر

الأسرة الثامنة عشرة.

وكلمة «قبس» فى [سورة طه]:

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ وفى [سورة النمل]:

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

وأصلها بالمصرية hbs «خبس» بمعنى «شعلة» وظهرت منذ الأسرة الثامنة عشرة.

وكلمة «وزير» فى سورة طه ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ ﴾، و [سورة الفرقان]:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ويرى أن أصلها بالمصرية القديمة WSr «وسر» أو وزر بمعنى «قويا» وشاعت منذ الدولة الحديثة وربما قبل ذلك.

وفعل «يعقّب» فى [سورة النمل – الآية ١٠]:

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

وأصلها بالمصرية القديمة i3kb أياكب بمعنى «باكيا» وظهرت فى عصر الدولة الحديثة.

ومن خلال هذه المفردات وغيرها والتى ترجع أصولها فى اللغة المصرية القديمة إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة يصل د.رمضان عبده إلى الافتراض القائل بأن الفترة التى ولد فيها موسى عليه السلام حتى خروجه من مصر تقع بين السنوات الأخيرة من حكم تحتمس الثالث وكل فترة حكم أمنحتب الثانى وتحتمس الرابع وأمنحتب الثالث وبداية حكم أمنحتب الرابع (اخناتون) تقريباً.

فأثناء حكم هؤلاء الملوك الخمسة ولد سيدنا موسى وكبر وأصبح ذا شأن كبير، وخرج من مصر للمرة الأولى وكان يبلغ من العمر ٣٢ عاماً. وقضى فى مدين ثمانى سنوات أو عشر، لذا فهو كلف بالرسالة وسنه ٤٠ عاماً تقريباً، وجاء إلى مصر ثانية لتبليغ رسالة التوحيد إلى فرعون. واستقر فيها فترة ربما بلغت ٣٦ عاماً. وخرج مع قومه فى السنوات العشر الأوائل من حكم اخناتون قبل أن يرحل هذا الملك إلى تل العمارنة فى العام السادس من حكمه. أى إنه عاش فى مصر وخرج منها وعاد وخرج منها للمرة الثانية مع قومه خلال الفترة من

١٤٤٧ إلى ١٣٦٧ ق. م تقريباً.

وهو بهذا يغفل كثيرا من الثوابت في قصة موسى عليه السلام مثل مكان التقاط امرأة فرعون لموسى وهو طفل رضيع. ولا يذكر تحديداً الفرعون الذى ينسب إليه استعباد بنى إسرائيل وتعذيبهم وذبح أبنائهم مفترضاً افتراضاً غير مدعم بدليل أن فرعون الذى ذكر فى الكتب المقدسة ليس سوى مسئول كبير وليس ملك مصر، مدعياً أن انشغال الملكين أمنحتب الثالث ومن بعده اخناتون بالمشاكل الدينية التى بدأت تظهر فى حكمهما هو الذى أدى إلى تمادى هذا المسئول- الذى لم يحدد هويته أو مكانته فى الدولة- فى ظلمه وجبروته لبنى إسرائيل. وهو بذلك يتفادى ثابت آخر لم يشر إليه وهو غرق فرعون وطفو جثته لتكون لمن بعده آية.

ويحاول الكاتب أن يدلل على فرضيته هذه بما ينسب إلى اخناتون من أنشودة كان يرددها بنفسه تشهد بوحدانية الخالق وقدرته مؤكداً أن هذا ما هو إلا تأثراً برسالة سيدنا موسى عليه السلام الذى كان موجوداً فى مصر قبل اخناتون.

كما يستدل على أن كثيراً من مزامير داود متشابهة تماماً مع أنشودة اخناتون مما يدفعه القول باحتمالية أن يكون اخناتون كان متأثراً بما نادى به موسى وانتقل هذا التأثير بعد ذلك إلى مزامير سيدنا داوود.

كما يسوق مثالا آخر على ذلك متمثلاً فى النصوص الهامة التى انتشرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وهى فصول من كتاب الموتى منها ما ذكر فى الفصل الـ١٢٥ الذى يسمى بالدفاع الإنكارى والذى ينفى فيه المتوفى فى عالم الآخرة اقترافه لجميع أنواع الآثام والمعاصى، ومنها يقول: «أنا لم اقتل، أنا لم أسرق، أنا لم أسبب نزاعاً، أنا لم أكذب، أنا لم أطمع فى أى شيء (يمتلكه الآخرون)، أنا لم أغضب ..أنا لم أقم بالتسلط على الآخرين، أنا لم أكن متكبراً، أنا لم ألعن اسم المعبود، أنا لم أرتكب أية خطيئة».

مثل هذه المعانى يجدها الباحث فى الوصايا العشر لسيدنا موسى (٥) لا تقتل (٦) لا تزن (٧) لا تسرق (٨) لا تشهد على قريبك شهادة زور (٩) لا تشته شيئاً مما لقريبك.

وفى نظرى أن مثل هذه الوصايا الأخيرة ليست حكراً على دين معين ولا على طائفة أو مجتمع بعينه بل هى من مكارم الأخلاق التى يدعو إليها كل دين قويم وكل مجتمع سليم. وعلى فرض تسليمنا بأصول الكلمات المذكورة فى اللغة المصرية القديمة فلا يعنى ذلك بالضرورة التسليم بكل ما ذهب إليه الكاتب من فرضيات خصوصاً أنها تجد الكثير مما يعارضها وتفتقر إلى كثير من الأدلة والحيثيات التى تدعمها.

يقول بأن توت عنخ آمون (صورة: ١١) هو فرعون موســى. ويتزعم هذه الافتراض عالم النفس اليهودى الشــهير ســيجموند فرويد[١] الذى كان يقول: إنه قرأ فى علم الآثار أكثر مما قرأ فى التحليل النفســى، حتى إن حجرة الاستشــارة الخاصة به كانت متحفاً لآثار جاءت من مصر واليونان وروما والشــرقين الأدنى والأقصى. وكان لمصر جاذبية خاصة فى فكر ووجدان فرويد وظل طيلة عمره مبهوراً بكشــوف المصريين مثل كشف (قام به فلاحون ريفيون فى ثمانينات القرن التاسع عشر) للوحات وتدية الشكل قادت إلى مزيد من كشوف تــل العمارنــة عام ١٨٩١ ثم إلى إعــادة بناء تلك العاصمة المجهولة التى شــيدها اخناتون أو أمنحتــب الرابع (صورة ١٢) لتحل محل طيبة كعاصمة للإمبراطورية المصرية. وكان من بين ٢٣٠٠ قطعة أثرية جمعها فرويد بنفسه أثناء حياته ٦٠٠ قطعة مصرية مصرية، كما أنه اختار صورة للمعبد الصخرى الكبير الذى شيده رمسيس الثانى فى أبى سنبل ليعلقها فوق ســرير الكشف فى عيادته. ورمسيس الثانى هو الفرعون الإمبراطور العظيم الذى شق طريقه محارباً من جنوبى فلسطين حتى سوريا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. واحتفاظه بصورة للمعبد يظهر انشــغال فرويد بالماضى الســحيق. ولقد ادَّعى فرويد أيضاً أن موســى مصرى وليس من بنى إســرائيل، وأن الديانة الموسوية مستقاة من عقيدة اخناتون وأن اليهود ألغوا عبادة الشــمس من الدين الذى أخذوه عن إخناتون. وكان العنوان الأصلى لكتابه «موســى والتوحيد» Moses and Monotheism هو «الرجل موسى: رواية تاريخية». The Man Moses: A Historical Novel.

ويــرى فرويد أن «موســى» كلمة هيروغليفية تعنى «الابن المحبــوب» ونجدها فى كلمة «رع موسى» (رمسيس) و«تحوت موسى» (تحتمس). واستنتج من ذلك أن الأمير المصرى قد أزال الصدر الوثنى من اسمه واســتبقى العَجُز الذى لا يدل على اســم إله فى ذاته. ويقول فرويد إن موســى المصرى (الضمير – الحضارة – الكبت – التجاوز – التوحيد) حاول أن يُدخــل المدنية على العبرانيين الأجلاف بطوائفهم (الليبيــدو ـ الحلولية – الوثنية) ولكنه فشل فى ذلك، بل انتهى به الأمر إلى أن قتله العبرانيون. وهكذا انتصرت الوثنية والبربرية على التوحيد. ولكن كما هو الحال دائماً بعد جريمة قتل الأب (أو المعلم الذى يقوم مقامه)

(١) سيجموند فرويد – موسى والتوحيد، ترجمة جورج الطرابيشى، دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.

شعر العبرانيون بالخطيئة والإثم (والرغبة فى التجــاوز) فجـمعوا بين إلهـهم الوثنى يهـوه وأدوناى/ آتون التوحيدى.

ويدَّعى أن موســـى كان أحد الأمراء المصريين المقربين من اخناتون ولكن لما حدثت الرِّدّة بعد اخناتون تم اســـتبعاد موســـى، ولما انهار أمله فى حكم بلاده أراد أن يوجد لنفسه دوراً ماكزعيم، فتزعم بنى إسرائيل وأعطاهم ديناً جديداً استقاه من عقيدة اخناتون التوحيدية، ثــم قاد بنى إســـرائيل للخروج من مصر خروجاً ســـلمياً – ليس فيه مطـــاردة – إلى أرض فلســـطين التى كان النفوذ المصرى قد انحســـر عنها أيام اخناتون لانشغاله بأفكاره الدينية. وكان الخروج فى عهد توت عنخ آمون، ونجح فى الخروج ببنى إســـرائيل من مصر وذلك بأن خادعوا الفرعون وهربوا إلى صحراء سيناء.

ويوافـــق على هذه الفرضية آرثر ويجال[1] ويحدد تاريخ الخروج بالعام ١٣٤٦ ق. م ويرى أنه تم فى آخر عهد توت عنخ آمون. ويســـير على غرار هذا الرأى أحمد عثمان فى كتابه «موســـى واخناتون ، التاريخ الســـرى لمصر فى زمن الخروج»[2] وهو الإصدار المعدل لكتابه الأول «موســـى فرعون مصر، وكشـــف غموض اســـطورة اخناتون»[3]، الذى يرى أن موسى واخناتون ما هما إلا شـــخصية واحدة. وأن تعاليم موســـى عليه الســـلام ما هى إلا تعاليم اخناتون فى الديانة المصرية القديمة، وتوحيد موســـى هو توحيد اخناتون. ويســـتدل على ذلك بما فى كتاب الموتى والتشابه الواضح بين ما فيه وخاصة فى التعويذة أو الفصل ١٢٥ والوصايا العشر لموسى عليه السلام.

وهـــذه النظرية أيضاً يدحضهـــا العديد من الحقائق التاريخية منهـــا أنه من الثابت كما فى الكتب المقدســـة أن موســـى من بنى إسرائيل وليس مصرياً، وإن كان قد تربى فى قصر الفرعون.

كمـــا أن هذه النظرية تتجاهل النصـــوص الدينية فى القرآن والعهد القديم وتغفل ما نزل ببنى إســـرائيل من ســـوء العذاب على يد الفرعون وملئه، وهذا لم يرد تاريخياً عن اخناتون أو توت عنخ آمون إذ إن طبيعة اخناتون المسالمة لا تتفق مع ذلك.

---

(١) آرثر ويجال ، تاريخ مصر القديمة، باريس ، ١٩٨٦، ص ١٤٦.

(2) Osman, Ahmed, Moses and Akhenaten: The Secret History of Egypt at the Time of the Exodus, London, Paladin.2002.

(3) Osman, Ahmed, Moses: Pharaoh of Egypt, The Mystery of Akhenaten Resolved, London, Paladin. 1994.

فضلاً عن بُعد مكان إقامتهم فى شرق الدلتا عن العاصمة التى عاش فيها اخناتون، طيبة فى أول أيامه ثم بعد ذلك فى عاصمته الجديدة فى تل العمارنة.

كما أن التوحيد الذى نادى به اخناتون يختلف فى طبيعته عما كان ينادى به موسى عليه السلام، فتوحيد اخناتون هو توحيد تجسيدى وثنى وليس التوحيد الخالص الذى دعا إليه أنبياء الله ورسله من قبل موسى ومن بعده. فالتوحيد الذى نادى به موسى فى قومه كان عقيدة بنى إسرائيل أخذوها عن يعقوب أبيهم وإبراهيم جدهم عليهم السلام.

وتدعى هذه النظرية أن الخروج تم بسلام وبدون مطاردة فى حين أن الثابت فى الكتب المقدسة أن فرعون الذى طارد موسى قد مات غرقاً، وقد أثبت الفحص الطبى لجثة توت عنخ آمون أنه مات مقتولاً بضربة على الرأس، أو نتيجة لحادثة أدت إلى كسر ساقه وأودت بحياته.

كما لا يعقل أن يخرج بنو إسرائيل من مصر فى عهد توت عنخ آمون ويستقروا فى فلسطين دون أن يكونوا عرضة لحملات من جاء بعده من الفراعنة مثل «حور محب» و «سيتى الأول» أو «رمسيس الثانى».

وكما يذكر د. رشدى البدراوى[1] أنه لما رأى فرويد المعارضة الشديدة لنظريته هذه تراجع عنها وقال إنه من المحتمل أن موسى قد عاش فى عصر لاحق لاخناتون وتوت عنخ آمون! ! ويضيف بأن فرويد وهو عالم يهودى كبير بنى رأيه على هدف سياسى مبنياً على أساس أنه ما دام موسى مصرياً فإن لبنى إسرائيل حقوقاً تاريخية فى مصر! كما فعل سلفه المؤرخ اليهودى يوسفيوس ابن متى عندما زعم أن الهكسوس الذين حكموا مصر هم أنفسهم بنو إسرائيل.

الافتراض السادس

يقول بأن موسى قد عاش وجهر بدعوته ثم خرج من مصر كل ذلك خلال مدة حكم حور محب (صورة ١٣) وأربعة من الفراعنة اللاحقين ليكون فرعون الخروج هو مرنبتاح.

والقائل بهذه النظرية هو نيكولاس جريمال[2] الذى يقول بأن موسى تربى وتلقى تعليمه فى سنواته الأولى فى قصر الفرعون «حور محب» و «رمسيس الأول» (صورة رقم ١٤)، ثم

---

(١) رشدى البدراوى، أستاذ بجامعة القاهرة وباحث وكاتب إسلامى عن كتاب موسى وهارون عليهما السلام من هو فرعون موسى؟.

(2) Nicholos Grimal, A History of Ancient Egypt, Blackwell, 1994, P.259.

عرف أنه من بنى إســرائيل وانضم إليهم فى عهد «سـيتى الأول»، ثم فر من مصر إلى مدين بعد مقتل المصرى، ثم كان تلقيه الوحى والرسالة والأمر بالعودة إلى مصر فى السنوات الأولى من حكم «رمســيس الثانى» (ســورة رقم ١٥)، ثم هو يوافق على ما يقوله كثير من المؤرخين من أن فرعون الخروج هو «مرنبتاح».

فلو افترضنا أن حور محب، والذى حكم فى المدة بين (١٣٤٨-١٣٢٠ق.م) أى ٢٨ عاماً، قد تبنى موسى فى منتصف مدة حكمه ورباه ١٤ عاماً يضاف إليها عامان مدة حكم رمسيس الأول (من ١٣٢٠ - ١٣١٨ ق. م) و ١٤ عاماً مدة حكم سيتى الأول (من ١٣١٨ - ١٣٠٤ ق. م) و٦٧ عاماً مدة حكم رمســيس الثانى (من ١٣٠٤-١٢٣٧ق.م) و ١٣ عاما مدة حكم مرنبتاح (من ١٢٣٦ - ١٢٢٣ ق. م) فيكون مجموع هذه السنوات والتى تعتبر عمر موسى الذى قضاه حتى الخروج ببنى إســرائيل هى ١١٠ أعوام. فإذا أضفنا إليها ســنوات التيه الأربعين فى ســيناء ثم المســيرة حول أرض أدوم لبلغ عمر موسى عند وفاته أكثر من ١٥٠ عاماً فى حين أن عمر موسى لم يزد عن ١٢٠ عاماً.

وبالتالى فإن هذا الافتراض لا يمكن قبوله ليس لهذا السبب فقط بل للعديد من المعارضات التى تتعارض معه ولا تقبله.

ويكاد يشــترك مع هذا الافتراض فى مرحلة منه افتراض آخر لأحمد عثمان[1] وذلك فى كتابه «الفراعنة العبرانيين مصر، النســب الســرى للنبى يوســف» والذى يحاول فيه من خلال تأويلات لنصوص قرآنية وتوراتية ومصادر تاريخية أثرية أن يثبت أن النبى يوسف عليه الســلام والوزير «يويا» (صــورة ١٦) وزير الملك تحتمس الرابع (١٤٢٥ - ١٤١٧ ق. م) من الأسرة الـ١٨ هما شخصية واحدة. ليلقى افتراضاً جديداً بأن الصعود المفاجىء للتوحيد مــا هو إلا بفعل أخت «يويــا» الملكة «تى» وابنها اخناتون. ويدعى بأن يوســف أو «يويا» عندما كشــف عن هويته لإخوتــه قال لهم إن الله منَّ عليه وجعلــه «والد الفرعون» ويذكر أنه خلال العصر الفرعونى الطويل لم يكن هناك شــخص يحمل هذا اللقب «والد الفرعون» سوى «يويا» وزير الملك تحتمس الرابع من الأسرة الـ١٨. مشيراً إلى أن علماء المصريات ظلوا فــى حيرة فترة طويله لكون «يويا»، وهو «وزير» وليس من البيت الملكى، مدفوناً فى وادى الملوك، وأن مومياءه التى عثر عليها فى حالة جيدة ذات مظهر وملامح «ســامية» واضحة

(1) Osman, Ahmed, The Hebrew Pharaohs of Egypt: The Secret Lineage of the Patriarch Joseph, Bear & Company, London, 2003.

كما أن مظاهر دفنه تبدو مختلفة عن التقاليد المصرية في الدفن مما يرجح ألا يكون من الدم المصرى. ليخلص من خلال بعض الأدلة التى يسوقها إلى أن الخروج حدث في عهد الملك رمسيس الأول الملك الأول من الأسرة الـ١٩، وأن حور محب هو الملك الذى اضطهد بنى إسرائيل وسامهم سوء العذاب.

بل إن البعض[١] يذهب أبعد من ذلك حين يقول بأن الشعب المختار أو شعب الخروج لم يكونوا عبيداً في بلد أجنبى ولكنهم كانوا من كهنة مصريين ذوى رتبة عالية ومن المناصرين لإخناتون، وقد تعرضوا للطرد والخروج من مصر إلى المقاطعة المصرية أو الواقعة تحت النفوذ المصرى في كنعان وأجبروا على ذلك إبان الثورة المضادة بعد موت اخناتون.

مثل هذا الرأى والذى يسبقه لا يمكن قبوله وذلك لأنه يتعارض مع كثير من الثوابت في القرآن والتوراة والمصادر التاريخية والأثرية.

الافتراض السابع

وهذا الافتراض قائم على أساس أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى، فرعون المولد وفرعون الخروج، وأصحاب هذا الرأى كثيرون.

ويتفق هذا الرأى مع حقيقة مكان معيشة بنى إسرائيل في أرض جاسان أو جوشن شرق الدلتا وعاصمة رمسيس الثانى الجديدة في الشمال التى تتيح التقاط موسى من النهر، كما تحقق تسخير بنى إسرائيل في بناء مدينتى «بررعمسيس» و«فيثوم» المذكورتين في العهد القديم (سفر الخروج ١ : ١٤). وقد اعترض البعض بأن فرعون موسى ادَّعى الألوهية في حين أن رمسيس الثانى كان يؤمن بأربعة آلهة هم «آمون» و «رع» و «بتاح» و «سوتخ»، وسمَّى فرق جيشه الأربع في معركة قادش بأسماء هذه الآلهة[٢]. غير أن هذا القول يمكن الرد عليه بأن معركة قادش كانت في السنة الخامسة من حكم رمسيس الثاني، في حين أن عودة موسى لمصر كانت في السنة ٦٢ من الحكم أى بعد معركة قادش بـ ٥٧ عاماً وهى فترة طويلة من الحكم المطلق والمديح المستمر من وزرائه ورجال البلاط ومن الشعب، وتمجيد لأفعاله ولابد أن كل ذلك قد أحدث أثره، وخاصة أنه كان عنده نزعة تعاظمية منذ صغره فكان أن نتج عن ذلك شعور بالكمال وظن نفسه مخلداً كالآلهة وانتهى به الأمر

(1) Messod Sabbah, Roger Sabbah, Secrets of the Exodus: The Egyptian Origins of the Hebrew People, Allworth Press, 2004

(٢) د. محمد وصفى، الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل، ص ١٥٤.

أن ادَّعى الألوهية.

وهذه حقيقة يمكن الاستدلال عليها مما سجل أو وجد فى كثير من المعابد التى بناها. ولهذا فإن هذه النظرية – أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى– تتفق وكثير من النقاط التى يجب توفرها فى ذلك الفرعون:

١ - أنه الفرعون الذى ادعى الألوهية كما جاء فى القرآن الكريم:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة النازعات].

وكان تأليه فرعون بعد وفاته أمراً عادياً فى عقيدة القوم، إذ يصير بعد وفاته روحاً وينضم إلى آبائه، ويجوز عندئذ عبادته والتضرع له والتوسل به لقضاء الحاجات. على أن صورة الملك نفسه فى هذه الحالات لا تظهر فى الرسم، بل يستدل عليها من النقوش التى كانت تدون خلف الآلهة وتدل على روح الملك (كا)، وجاء ذلك فى رسوم عديدة على جدران المعابد. إلا أن رمسيس الثانى مضى فى هذا الاتجاه لدرجة أبعد من سابقيه. فقد كان شديد الفخر بنفسه لدرجة تقرب من جنون العظمة فلم يكتف بأن يكون ابناً للآلهة مثل الملوك السابقين وحسب بل كان يعد نفسه إلها، فزعم أنه هو نفسه إله وكان هذا سبقاً له. فأقام لنفسه معابد جعل إهداءها لنفسه، والقرابين تقدم فيها لشخصه باعتباره أحد الآلهة وليس بشراً من نسل الآلهة، بل زاد على ذلك وزعم أنه من كبار الآلهة!

وربما يكون لشخصية رمسيس الثانى وإشراك والده له فى الحكم فى سن العاشرة وإعلانه وليا للعهد فى سن مبكرة، والمديح الذى كان المحيطون به يكيلونه له بلا حساب وفى كل وقت كما يرى البعض، كل هذا خلق فى نفسه شعوراً بالتعاظم. فإذا أضفنا إلى ذلك طول مدة حكمه التى بلغت حتى ذلك الوقت ٦٣ سنة لأدركنا لماذا ظن نفسه إلهاً، فالآلهة هم المخلدون.

وفيما يلى أمثلة على تأليه رمسيس الثانى لنفسه:

● هناك مجموعة من النصب التذكارية فى متحف «هلدسهايم Hildesheim تصور «رمسيس الثانى» كملك مؤلّه فى شكل تمثال على هيئة إله الحرب «مونت Mont» وقد

عثـر عليها أصلاً فـي «هوربيط» وفى «قنطير». والأولى تقع فى شـرق الدلتا إلى الغرب من الثانية، وهى المستعمرة العسكرية التى أقامها الرعامسة فى شرق الدلتا، وفيها كان الفرعون الحى المؤله يعبد أيضاً فى شكل إله الحرب الشهير بواسطة جنوده المقيمين فى هذا المركز العسكرى بالقرب من حدود مصر الشرقية.

● وفـى معبد «الدر» والذى أقامة «رمسـيس الثانى» وأهداه كمـا فى نص الإهداء إلى والده المعبود «حور آختى»، وفى قاعة الأعمدة المربعة المنحوتة فى الصخر نشـاهد على جدارها الخلفـى صور الآلهة الذين كانـوا يعبدون فى هذا المعبد، وهم «بتـاح» و«آمون رع» والملك «رمسيس الثانى» و«حور آختى». وهكذا كان يؤله رمسيس الثانى فى هذا المعبد أيضا.

● وفى معبد «جرف حسين» الذى يقع على الضفة اليمنى من النيل الذى سماه مؤسسة رمسـيس الثانى «بر بتاح» أى بيت بتاح والذى أقامه «سـتاو» حاكم بلاد النوبة فى تلك الفترة باسـم رمسـيس وأهداه للإله «بتاح» رب «منف» وزوجه «سخمت» وابنهما «نفرتم». ففى القاعة العظيمة المنحوتة فى الصخر فى هذا المعبد مُثِّل على جدرانها رمسـيس الثانى بين «آمون رع» و «موت»، وبين «حور» سـيد كوبان و «حور» رب بوهن، وبين «بتاح تنن» والبقرة «حتحور»، وبين «بتاح» و «سـخمت»، وكذلك نشـاهده بين «خنوم» و «عنقت»، وبين «نفرتم» و «ساتت»، وفى قاعة أخرى مثل فيها الفرعون أمام آلهة أخرى وكان فيها مؤلهاً أيضاً.

● فى معابد بلاد النوبة يظهر رمسـيس الثانى مؤلهاً فى صورة إله كأى إله آخر وليس فـى صـورة تمثال. فمثلاً فى معبد أبى سمبل فى قـدس الأقداس الذى يحتوى على قاعدة منحوتـه فى الصخر ليوضع عليها القارب المقدس، وخلفها نشـاهد تماثيل الآلهة الأربعة الذين يقدسـون فى هذا المعبد وهم : «بتاح» و «آمون» و «رمسـيس الثانى» فى صورة إله ثم «حور اختى»، صورة (١٧).

● كما تظهر بنفس المعبد صورة رمسـيس الثانى مؤلها برأس صقر. أى إنه فى هذه الحالة يمثل إله الشمس، ومكتوبا بجوارها: (رمسيس الإله الأكبر) ويظهر فى رسم آخر فى صورة إنسان ولكن على رأسه قرص الشمس ومكتوبا تحتها (رمسيس الإله الأكبر رب السماء).

● ومنظر ثان يظهر فيه رمسـيس الثانى وفى يده السـيف ممتطياً عربته ومعه جيش يسير فى ركابه وبجانبه جواده، وأسـده الأليف يتبعه، وسبقه صفان من الأسرى السود مكبلين فـى الأغلال، والمتن المفسـر لهـذا المنظر يقـول: «الإله الطيب يضـرب الجنوب ويحطم

الشـمال، والملك المحارب بسـيفه، والطارد إلى أبعـد مدى أولئك الذيـن يتعدون أماكنه الحصينة......».

● وفى منظر ثالث نشـاهد رمسيس وبيده القوس يقود صفين من الأسرى السود يقدمهم إلى ثالوث طيبة وهم آمون وموت وابنهما «خنسـو»، وقد كتب المتن التالى فوق صورة رمسـيس والأسرى السود: «إحضار الجزية بواسطة الإله الطيب لوالده آمون رع رب طيبة...».

● وفى معبد أكشـة ببلاد النوبة مثل فى صورة إنسـان ولكن الكتابة بجواره تقول «وسر ما عت رع ستبن رع (اسم رمسيس الثانى) الإله الأعظم رب النوبة».

● وفى معبد «سـره» وقد أقامه رمسـيس الثانى فى جنوب بلدة «سـره» على الضفة اليمنى للنيل على مسافة عشرة أميال شمال حلفا، وجد نقش مكرر على أحد الأبواب يقول: الباب العظيـم للفرعون «وسـر ماعت رع سـتبن رع» قد عمله بمثابة أثـر لصورته الحية فى بلاد النوبة، واسمه الجميل الذى وضعه جلالته هو «وسـر ماعت رع» سـامٍ فى قوته» ومن ذلك نعلم أن رمسيس الثانى كان نفسه رب هذا المعبد.

● وفـى قاعة الأعمدة الرئيسـية بمعبد الكرنك: ومن بـين النقوش التى تخلد نص الإهداء الذى ينسـب فيه رمسيس هذه القاعة لنفسـه: نجد نقشا مكتوبا فى النهاية: يعيش الإله الطيب الذى يقيم آثاراً لوالده «آمون رع».

● وفى زيارة لمعبد الكرنك لفت نظرى وجود نقش مكرر على جميع إحدى صالات الأعمدة (صورة ١٨)، فسـألت عن معنى هذا النقش فكانت الإجابة أنه يعنى بالهيروغليفية (نب ريخيت دوا رع مسـس، أوسـرماعت رع) فكانت ترجمته «كل الناس أو كل الشـعب (أى الشعب المصرى) يتعبد إلى رمسيس الثانى».

ويـدل ما بقى من نقوش وآثار فى معبد «رمسـيس الثانى» الذى أقامه بالعرابة على أنه رفع بنيانه فى هذه البقعة المقدسة لعبادة والده «أوزير» ولعبادته هو بوصفه إلهاً.

● وفى أحد المنحوتات الجدارية بالمتحف المصرى بتورين بإيطاليا نراه صور نفسـه واضعاً على رأسه الرمز الإلهى ويجلس بين الإله (آمون) والإلهة (موت) ويداه متشابكتان معهما، صورة (١٩).

● نقش على تمثال لابنه الأمير «خع ام واس» وهو موجود بالمتحف البريطانى بلندن ويمثله واقفاً يمسـك بعلمين فى يده اليمنى ويده اليسـرى. ولقد نقش على العلم الذى باليد اليمنى «الإله الطيب، رب الأرضين «وسرماعت ستبن رع» محبوب التاسوعين اللذين فى العرابة.

● وهنـــاك لوحة للوزير «رع حتب» وزير رمســيس الثانى محفوظة الآن فى متحف ميونخ تمثل الوزير يتجه نحو تمثال رمســيس الثانى ويقول: الصلاة لروحك (أى تمثال رمســيس الثانى) الإله الأكبر الذى يســمع.... الرجال، ليته يعطى الحياة والصحة والفطنة والمديح و.... إلى الأمــير الوراثــى وحامل المروحة على يمين الفرعــون، وعمدة المدينة، الوزير «رع حتب» فى «بررعمســيس» محبــوب «آمون». ولقد نقش على هذا التمثال «رمســيس حاكم الحكام، والإله الأكبر وســيد السماء مخلداً». وهذا يدل على أن الوزير فى هذه اللوحة كان يتعبد لرمســيس الثانى كما يتعبد أى موظف لأى إله. وفى الجزء الأعلى من نفس اللوحة نشاهد رمسيس الثانى يقدم البخور ويصب الماء لتمثاله. وفى هذا دليل على عبادة رمسيس الثانى لنفســه بوصفه إلهاً مدة حياته والحث على هذه العبادة فى صورة تمثاله كالتماثيل التى كانت تنحت للآلهة.

● وما هو موجود بمعبد «الســبوعة» والذى سمى بهذا الاســم لأن الردهة الرئيســية للمعبد يحتل الممر بها ســتة تماثيل «أبو الهول» فى صورة أســد يرتــدى كل منها التاج المزدوج. ويقع هذا المعبد على الضفة الغربية للنيل، ويسمى بالمصرية «بر آمون» أى بيت آمون. وقد أهداه رمســيس الثانى لكل من الإله «آمون» وإله الشــمس «رع حور اختى»، وكان رمسيس ضمن الآلهة الذين كانوا يعبدون فيه. وفى قاعة جانبية لقدس الأقداس مثل على جدرانها الفرعون مع آلهة متعددة، ولكن ما يلفت النظر فى هذه النقوش صورة رمسيس الثانى يقدم قرباناً لصورته هو (أى أن رمسيس الثانى كان يتعبد لتمثاله).

● وجد جعل منقوشاً عليه «ليت الشمس» «وسر ماعت ستبن رع» (اسم من أسماء رمسيس الثانى) يفلح أرواح كل الأرض» وقد استعمل لفظة الشمس فى هذه الحالة لتعبر عنه.

● وفى نقوش جبل السلسلة رسم لوزير يصلى لروح الإله (بتاح) ويرى الملك رمسيس الثانى واقفا بين الوزير المتضرع والإله بتاح. بما يفهم منه أن الملك كإله حى ينقل التضرع إلى الإله بتاح. وقد كتب تحت رسم الملك: الإله الطيب (رمسيس الثاني) ابن الإله (بتاح).

ومن هذه الأمثلة نستدل على أن رمسيس الثانى قد ألّه نفسه أثناء حياته مختلفاً فى ذلك عن كل من سبقه أو لحقه من الفراعنة فى ذلك مما قد يرجح أن يكون فرعون موسى هو رمسيس الثانى.

٢ ـ أنه الفرعون الذى كان وزيره وكبير مستشاريه يدعى «هامان».

وتذهب كثير من التفاســير إلى أن هامان هذا كان وزيراً للفرعون، وإن لم يكن فقد يكون

مستشاراً خاصاً له أو رجلاً مقرباً من البيت الملكى[1]. ويرى آخرون أن هذا الاسم – لو رد إلى أصله بغير تصحيف– نجده من الأسماء المصرية التى كانت شائعة فى ذلك الزمان وهو حورمين أو حارمين. وقد عرف بهذا الاسم رجل من عهد سيتى الأول وآخر من عهد ابنه رمسيس الثانى. كان أولهما كاتب الملك وحامل الأختام والمشرف على حريم الملك، وكان ثانيهما كاتب القصر أو بلغتنا الحديثة رئيس الديوان الملكى أو كبير الأمناء[2][3]، وربما كان مدير قطاع المبانى فى حاشية فرعون. كما أدرج اسم هامان تحت وظيفة رئيس عمال مناجم الأحجار وذلك فى نقش على لوح حجرى محفوظ بمتحف فيينا بالنمسا[4]. وقد كلف هذا الوزير ببناء صرح من الطين المحروق للفرعون كما ذكر القرآن:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

ومما يذكر أن المبانى – حتى ذلك الوقت – كانت تقام من الطوب اللبن غير المحروق أو الحجارة. فكانت كل المدن مبنية بالطوب اللبن ما عدا المعابد والقصور فكانت من الحجر، والذى كانت أنواعه متعددة ما بين الحجر الجيرى الأبيض الناصع وغير الناصع، والحجر الرملى الأحمر والأصفر، والحجر الجرانيتى الوردى والأسود، والبازلت الأسود والرخام والمرمر وغيرها، هذا بالإضافة إلى وفرته فى محاجر مصر المختلفة.

ومن الملفت للنظر أن المصريين القدماء لم يتخذوا الآجر المحروق فى البناء قبل العصر الرومانى، وقد أول البعض من المفسرين أمر فرعون إلى هامان أنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة.

ويمكن القول بعبارة أخرى أن البناء بالآجر قد كان يومئذ فى بدايات استعماله. ففى أواخر عهد رمسيس الثانى تم اكتشاف أن حرق اللبن يجعله أكثر صلابة وأطول عمراً، ولا توجد آثار بنيت بالطوب الأحمر قبل عصر رمسيس الثانى. فقد عثر (بترى) – عالم

---

(١) تفسيرالقرطبى، تفسير الجلالين، تفسير بن كثير.

(٢) سليم حسن، مصر القديمة، ج٦، ص ١٦٨، ٥٦١.

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف، مصر فى القرآن والسنة، ٢٠٠١، ص ١٠٤.

(٤) د. عبد الصبور شاهين وإصلاح عبد السلام الرفاعى، مصر قبل الإسلام الدين والنبوة، دار الزهراء، ٢٠٠٠. ص ١٣٤.

الآثار – على عدد من الطوب المحروق بنيت به قبور وأقيمت به بعض أساسات المنشآت ترجع إلى عصر الأسرة التاسعة عشرة، عصر رمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الثانى، عثر عليها فى نبيشة ودفنة غير بعيدة عن عاصمتهم مدينة قنتير أو برعمسيس شرق الدلتا، وقال فلندرز بترى فى ذلك: «إن حرق اللبن قد ظل نادراً حتى عصر الرومان»(١).

ولعل السرد القرآنى لبناء الصرح فى سورة القصص، والنص على طريقة صنع الآجر بحرق الطين فيه إشارة إلى أن الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام هو أول من اكتشف هذه الطريقة ويكون ذلك دليلاً آخر على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

وهكذا قال رمسيس الثانى لوزيره هامان أن يبنى له برجاً عالياً حتى يرى الإله الذى يقول موسى إنه إلهه وإله العالمين، وقال له إنه يعتقد أنه لو فعل ذلك فلن يجد شيئاً لأنه يظن موسى كاذباً فى قوله:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة غافر].

وقالوا إنه وقد وصل إلى هذه النتيجة فإن الصرح لم يبن، وهذا ما نعتقده، إذ إن أى بناء فى عصرنا الحالى يبنى بالطوب والإسمنت – حوائط حاملة – أى بدون أعمدة خرسانية لا يجب أن يزيد عن ٦ أو ٧ طوابق على الأكثر أى ٢١ متراً فهو لن يكون مرتفعاً بالنسبة لبعض المسلات التى كانت تبلغ ٢٩ متراً أو تمثاله الذى وجدت بقاياه فى صان الحجر (تانيس) والذى كان يبلغ ارتفاعه ٢٨ متراً والمعروض الآن بمتحف ميت رهينة (صورة ٢٠). وكان الطين هو المادة اللاصقة فى المبانى، فلا يزيد ارتفاعه بالطوب الأحمر والطين عن ٥ طوابق أى ١٥ متراً فلا يعتبر بناء هائلاً يقنع الناس بعدم وجود إله إذا صعد عليه.

وقيل إنه بنى فعلاً بناء عالياً وصعد عليه ثم نزل فقال للناس، لم أجد الإله الذى يقول به موسى، وقال لهم ما علمت لكم من إله غيرى.

٣ - أنه الفرعون الطاغى المستعلى المتكبر كما ذكر القرآن

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة طه].

(١) د. محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية فى القرآن الكريم، جـ ٢، ص ٣٢٥.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [سورة القصص].

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [سورة يونس].

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [سورة الدخان].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) ﴾ [سورة غافر].

وإنه الفرعون الذى أذاق بنى إسرائيل العذاب واستعبدهم وقتّل ابناءهم واستحى نساءهم. وهو ما يثبت فى القرآن كما يشير القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [سورة القصص].

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) ﴾ [سورة البقرة].

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) ﴾ [سورة غافر].

وكما ورد أيضاً فى العهد القديم فى سفر التكوين (١٥ : ١٣) إذ ذُكر كنبوءة لإبراهيم عليه السلام:

«فقال لإبرام: اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم ويُستبعدون لهم فيُذلونهم أربعة مائة سنة». كما ذكر عدة مرات فى سفر الخروج: «فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف، ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفاً» (خروج ١ : ١٤).

«وتنهد بنو إسرائيل من العبودية » (خروج ٢ : ٢٣).

وكما يرجح الكثيرون أن موسى عليه السلام قد ولد فى عهد رمسيس الثانى والذى قد

تورط فى سياسة من القتل وسفك الدماء. ففى ربيع عام ١٢٨٧ ق.م كانت معركة قادش مع الحيثيين أو الخيتيين فى سوريا، والتى كانت بدايتها فى غير صالح رمسيس الثانى فقد تعرض لخدعة كان بطلاها جسوسين من «الشاسو» أى البدو.

فقد زحف رمسيس الثانى بجيشه حتى إذا بلغ بلدة شابتوتا (ربلة الحالية) على نهر الأورنت (نهر العاصى) وعسكر على ربوة تشرف على الوادى الفسيح التى تقع مدينة قادش فى شماله. دخل معكسره اثنان ادّعيا أنهما يتكلمان باسم إخوانهم رؤساء قبائل البدو وأنهم يعرضون الولاء والتحالف مع مصر بدلاً من الاستعباد الحيثى. وأخبرا المصريين بأن حاكم خيتى ما إن سمع بمقدم فرعون حتى ارتعد وتقهقر بجيوشه إلى ما حول حلب فى الشمال. فعبر رمسيس الثانى نهر العاصى ثم سار إلى مرتفع شمال غربى قادش وأقام معسكره هناك فى انتظار وصول باقى فيالق الجيش ليتابع السير فى أثر جيش «خيتا» الذى كان يظن أنه فى الشمال حسبما أخبره الجاسوسان. وهنا أكتشف أنه وقع فريسة لخدعة كبيرة، فقد وقع فى أيدى فرق استطلاعه جنديان من جيش العدو كانا فى مهمة لاستكشاف موقع جيش المصريين وعدده.

وبتعذيبهما اعترفا أن جيش الحيثيين فى مكان شرقى قادش وهو فى طريقه ليعبر نهر العاصي، وأن الجاسوسيين كانا خدعة من ملك خيتا. وأدرك رمسيس الثانى هول الكارثة المتوقعة، وراح يوبخ ضباطه على إهمال فرق الاستطلاع. وأعاد ترتيب الفيلق الذى يرأسه (وهو فيلق «ست» من مدينته (برعمسيس) استعداداً لهجوم العدو، كما أرسل الرسل على عجل إلى بقية فيالق جيشه ليسرعوا السير، وهم فيلق «بتاح» الذى كان جنده من منف ومصر الوسطى، وفيلق «آمون» وجنده من طيبة. وفى هذه الأثناء كان نصف الجيش الحيثى قد عبر مخاضة نهر العاصى وهاجم الفيلق الموجود هناك وهو فيلق رع بينما الجنود يسيرون فى استرخاء غير متوقعين القتال، وتشتت الفيلق ودمر تماماً، ثم تابع جيش «خيتا» تقدمه حتى أصبح فى مواجهة فيلق آمون، وبدأ فى مهاجمته ورأى جنود فيلق آمون بقايا الجنود من فيلق رع يجرون مذعورين تتبعهم عاصفة التراب التى تثيرها عربات العدو وهى تلاحقهم فدب الذعر فى قلوبهم ولم يدروا ماذا يفعلون حتى أحاط جنود العدو بهم. ثم اندفعت فرقة من جنود العدو تهاجم الجناح الغربى من الفيلق، وهنا أظهر رمسيس الثانى شجاعة فائقة، إذا اندفع على عربته وقاتل الفرقة المهاجمة بشراسة اليائس والغاضب من تخاذل قواته. وبهت ضباط الفرقة المهاجمة من هذه الشجاعة وقدروا أن كل جنوده

ســيحاربون مثله فضعفت عزيمتهم وارتبكوا. وفى نفس هذه اللحظة كان فريق الفتوة (وهم الفيلق الذى اختاره رمسيس ليحمى ظهره) قد وصل من الغرب وبدأ فى مهاجمة العدو من الخلــف. وظن الحيثيون أن فريق الفتوة هذا مقدمة جيش كبير فتخاذلوا فى القتال كما أن الغبار الذى كان يثيره فيلق «بتاح» بدأ يظهر فى الأفق من ناحية الجنوب. وشدد رمسيس الثانى عليهم القتال ففروا هاربين عبر النهر يلقون أنفســهم فيه طلباً للنجاة، ووصل فيلق «بتاح» أرض المعركة وبدأ يشترك فى المطاردة وفى جمع الأسرى.

وذهل ملك «خيتا» لما آلت إليه نتيجة المعركة مع أن جزءً كبيراً من جيشه كان لا يزال فى الشــرق ولم يشــترك فى المعركة ولو تقدم واشــترك فيها لكان النصر حليفه، ولكن ملك «خيتا» ارتد بباقى جيشــه لما رأى فرار جنوده وأرســل يطلب وقــف القتال والصلح وكان التعب قد حل بجيش رمسيس أيضاً فقبل الصلح.

ولا شــك أن رمســيس الثانى بعد المعركة قد شــعر بأنه قد تعرض لخدعة كبرى كادت أن تكلفــه حياتــه، وقد كلفته فيلقاً كاملاً من جيشــه وهو فيلق «رع» بأكمله. كما فقد فيلق «آمــون» عدداً كبيراً من الجنود، ولم يتمكن رمســيس الثانى من النصر الذى كان يرجوه، وكل ما حصل عليه هو وقف القتال وبقاء الحال كما هو. إذ لم يتمكن من الاســتيلاء على قادش ولا على أرض أمورو. ولعله فى قرارة نفســه أضمر أن يحقق ذلك فى معركة أخرى فى المستقبل، وبدأت مسيرة العودة إلى أرض الوطن. وأخيراً وصل فى عربته اللامعة يتبعه طابور طويل من الأسرى ليدخل السرور على شعبه! وهناك جزء من نقش جدارى بالمتحف المصــرى بالقاهرة يصور رمســيس الثانى وهو يأخذ بزمام أســرى مــن أجناس مختلفة يهم بقتلهم ببلطته (صورة ٢١).

ويرى البعض أن الخدعة التى ســلبت الفرعون انتصاره فى معركة قادش كان لها صلة ببنى إســرائيل، وأن جنود رمسيس الثانى – بعد المعركة – أخذوا الأسيرين اللذين خدعا الفرعون وضربوهما كما هو مســجل بالصورة على الآثار، ولعل الأســيرين اعترفا بأنهما من (العبــيرو) وأنهمــا فعلا ذلك بتدبير من العبــيرو الذين كانوا فيما يبــدو طائفة من طوائف اليهود. و «العبيرو» أو «الخبيرو» لم يكونوا طائفة لها لغتها الخاصة أو جنسيتها الخاصة، بــل كانــوا على ما يظهر قوماً رُحل يتألفون من ســلالات مختلفــة ويحمل معظمهم أسماء سامية.

ويذكر سليم حسن[1] أنه من الصعب أن يضع الإنسان تعريفاً يحدد به هذه الطائفة قبل رقيهم فيما بعد ووصولهم إلى مرتبة طائفة قومية هى طائفة اليهود. ولا ننس أن إبراهيم عليه السلام وهو جد اليهود هو «هاعبرى» أى البدوى.

وكانت الكتابات المصرية تشير إليهم بوصفهم (العابيرو فى أرض كنعان). ثم أصبح بعد ذلك لفظ (العابيرو) يطلق على بنى إسرائيل المقيمين بمصر أيضاً. وقد عثر على خطاب من رئيس عمال يقول فيه: «لقد أرسلت الطعام (للعابيرو) الذين يسحبون الأحجار للصرح العظيم لمعبد رمسيس محبوب آمون».

كذلك فإن الحرص على تسجيل ضرب الأسيرين بالصورة على جدران معبد أبى سمبل يمكن أن يكون له دلالة غير مجرد تسجيل الواقعة، ففى كل الحروب يوجد جواسيس. كما كان الأليق أن تخفى واقعة خداع الفرعون لا أن تعلن على الملأ هكذا، إلا أن تكون رسالة موجهة إلى المصريين لأخذ جانب الحذر من (العابيرو) المقيمين بمصر وهم بنو إسرائيل.

ولو نظرنا إلى ما رُكِّب فى بنى إسرائيل من ميل إلى العزلة وكراهية الاختلاط مما قد يحجب نفوسهم وولاءهم عن ذلك البلد الذى آواهم وأطعمهم، أو النظر إلى ما طبعوا عليه من المكر والدهاء والسعى إلى المصلحة غير النزيهة، وتطلعهم إلى الخروج من مصر إلى (الأرض الموعودة)، ونبحث كيف يمكنهم تحقيق ذلك، فليس عندهم الأسلحة ولا الجند المدرب الذى يمكنهم من اقتحام الأرض وإخراجها من دائرة النفوذ المصري، لوجدنا أنه ليس أمامهم إلا صفقة يعقدونها مع ملك «خيتا» بأن يساعدوه على هزيمة الجيش المصرى، فينحسر نفوذ مصر عن فلسطين، وتعطى لهم بذلك الأرض الموعودة وتخلص الشام والساحل الفينيقى وأرض أمورو لملك «خيتا».

ويمكن أيضا الاستدلال على ذلك أيضاً من الإشارة التى ساقها العهد القديم فى سفر الخروج (١: ٧-١٠) على لسان فرعون:

«هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لئلا ينمو فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض».

ولعل رمسيس الثانى قد توصل إلى هذا الاستنتاج وشعر أنه قد طعن فى ظهره ممن آوتهم مصر وأطعمتهم وأكرمتهم على مدى عدة قرون، ومن هذا كان سوء العذاب الذى صبه فرعون دونما رحمة أو شفقة على بنى إسرائيل. ولم يكتف بإنزال العذاب بهم بل وضع خطة

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٤، ص ١٩٦.

لاستئصال شأفتهم، فأعطى الأوامر إلى قتلهم عاماً وتركهم عاماً فيقل عددهم فلا يخشى بأسهم، وفى نفس الوقت تبقى المنفعة من تسخيرهم فى أعمال البناء، كما أشار إلى ذلك سفر الخروج (١: ١١ - ١٤):

«فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينة مخازن فيثوم ورعمسيس، ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بنى إسرائيل فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن، وفى كل عمل فى الحقل، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا».

من هنا كان تسخير بنى إسرائيل فى أعمال البناء والأعمال الشاقة وتكبره واستعلاؤه عليهم.

كما يمكن القول بأن تعذيب بنى إسرائيل وتسخيرهم وما يفترض من شدته على عهد رمسيس الثانى ومن بعده، ربما يكون له علاقة بكثرة ما قام به من معابد ومنشآت ومدن وقصور وقبور مقارنة بقلة ما قام به خلفاؤه، حيث وجد فى بنى إسرائيل (كما نفهم من سفر الخروج ٥ : ٦ - ١٨) وغيرهم من الأسرى الأيدى العاملة والقوى البشرية التى تساعده على تنفيذ ما يصبو إليه، والتى تحتمل عن المصريين الأعمال الدنيا والأعباء الثقيلة من اقتطاع الحجر وضرب اللبن ونقله إلى موضعه من البناء.

وتذكر بردية ترجع إلى عهد رمسيس الثانى بمتحف ليدن بهولندا أنه استخدم بإشراف الشرطة فى جر الحجر لبناء صرح ضخم فى معبد له طائفة سميت «عبر» والتى تقترب فى منطوقها من العبرانيين أو أنه العبيرو تلك الطائفة التى تنسب إلى العبرانيين، وإن تردد بعض العلماء فى القطع بانتساب أولئك إلى هؤلاء.

٤ - **أنه الفرعون صاحب الأوتاد**، فهو الفرعون الذى وصفه الله تعالى بأنه:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة ص].

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الفجر].

وهو وصف يوحى فى النفس بإحساس الهول والشموخ لما يحمله لفظ الأوتاد من دلالة على الجبال الشاهقة كما ورد فى ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [سورة النبأ] وقد ينسحب هذا على الصروح الراسية والمعابد الشاهقة والأعمدة الضخمة والمسلات العالية المدببة التى إذا نظرنا إلى إحداها وهى مقلوبة لوجدناها أقرب ما تكون إلى شكل الوتد. ولو شمل مُلك

فرعـون أرض مصر بما عليها ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ [سـورة الزخرف] لأدخلنا الأهـرام وهى كالجبال فى علوها فيما يوصف على الأسـلوب القرآنى بالأوتاد. وأوتاد جمع وتد، وهو ما يثبت فى الأرض أو الحائط من خشب ينتهى بطرف مدبب[1].

وإن كان ثمة خلاف عند أهل التأويل فى معنى الأوتاد هذه، فمنهم من يرى فى الأوتاد أنهم الجنود الذين يشـدون لـه أمره ويقوون مُلكه أى فرعـون ذو الجنود، أو مجاز للزوم الأوتـاد لخيام الجند[2]. ولقد كان لرمسـيس الثانى أجناد كثيرون خاض بهم مع المشـرق حروباً وحافظ بهم على إمبراطورية عظيمة امتدت من الفرات فى أقصى الشمال إلى الشلال الرابع على النيل فى أقصى الجنوب، واسـتغلهم فى حملاته التأديبية الكثيرة للوبيين فى الغرب.

أو هـى أوتاد حقيقية من خشـب وحديد كانت تسـتخدم فى التعذيـب مثلما فعل مع امرأته آسـية وماشـطة ابنته، فكان يشد المعذّب بضرب وتد فى كل من أطرافه الأربعة فى الأرض، يدقها فى الأرض ويرسـل عليه العقارب والحيـات، ويتركه حتى يموت، وقيل ترفع صخرة فتلقى عليه فيموت[3]. غير أنه لم يسـجل عن المصريين مثل هذه الوسـيلة من التعذيب وإنما كان الضرب بالعصا هو وسـيلة التعذيب البسـيط أما القتل فكان يتم ببلطة الحرب أو بالخوزقة.

أو أن هـذه الأوتـاد كانت بنايات ضخمة كان يعذب النـاس فيها[4]. وقيل[5] إن القرآن الكريم شـبه فرعون هنا فى ثبات ملكه ورسـوخ سـلطته ببيت ثابت أقيم عماده وتثبتت أوتاده، على سبيل الاستعارة وكما قال الشاعر العربى الأعشى:

والبيت لا يبنى إلا علـى عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد.

وإذا أخذنا بأن هذه الأوتاد يعنى بها الأعمدة الشـاهقة فى هذه الحالة نجد أن رمسيس الثانى، كما يذكر د. رشدى البدراوى، كان أكثر الفراعنة إقامة للأعمدة.

---

(١) المعجم الوسيط جـ ٢، ص ١٠٢٠.

(٢) تفسير الطبرى.

(٣) ابن كثير، والقرطبى.

(٤) تفسير الجلالين.

(٥) تفسير الألوسى.

ففى معبد سيتى الأول فى أبيدوس والذى كان رمسيس الثانى قد بدأ بناءه فى صباه عندما أوكل إليه والده إقامة المنشآت والمبانى وهو فى سن العاشرة، ثم أكمل بناءه بعد أن تولى الحكم منفرداً. نرى أن المعبد به ما لا يقل عن ١١٢ عموداً. وبمعبد رمسيس الثانى فى أبيدوس ٥٠ عموداً. وفى معبد الأقصر الذى بدأه أمنحتب الثالث وأضاف إليه رمسيس الثانى فناءين بهما عدد كبير من الأعمدة يصل إلى ٩٠ عموداً (صورة ٢٢).

وفى قاعة الأعمدة بالكرنك (صورة ٢٣): قام رمسيس الثانى بإقامة معظمها، وبها ١٢٤ عموداً مرتبة فى ١٦ صفاً وتشغل مساحة ٥٠٠٠ متر مربع.

ويضيف أنه إذا أخذنا بهذا التفسير – وهو أن الأوتاد تعنى الأعمدة – لكان رمسيس الثانى هو صاحب أكبر عدد من الأعمدة فى المبانى التى أقامها. إلا إنه يرى أنه لو كان المقصود بالأوتاد أنها الأعمدة لذكرها القرآن بذلك، فقد سبق ذكر وصف المدينة التى أقيمت فى أرض عاد قوم هود بذات العماد أى ذات الأبنية المرفوعة على العمد وكانوا ينصبون الأعمدة فيبنون عليها القصور:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ ﴾ [سورة الفجر].

فلو كان المقصود هو الأعمدة لقيل: وفرعون ذى العماد أو صاحب العماد تمشياً مع وحدة الاسم إذا توحد المعنى، وإن كانت بعض التفاسير تقول بأنه المقصود بالعماد وقيل معنى ذات العماد ذات الطول.

ولو كان المقصود بالأوتاد البنايات الضخمة والصروح العالية فسنجد أن رمسيس الثانى أيضاً هو صاحب أكثر الصروح والمبانى.

فقد كان رمسيس الثانى أعظم ملك أقام مبانىَ من حيث الضخامة والروعة. ويذكر سليم حسن[1] أنه ليس من المبالغة أو الإسراف القول بأنه لا يكاد يوجد مبنى أثرى فى البلاد من الشلال الثانى حتى مصب النيل إلا عليه اسم رمسيس الثانى يضاف إلى ذلك المبانى والآثار التى خلّفها فى «فلسطين» وغيرها من البلاد التى فتحها فى آسيا.

وعلى الرغم من أنه قد جار على أسلافه كثيراً باغتصاب كثير من آثارهم ونسبتها إلى نفسه مدة حكمه الطويل الذى قارب السبعة والستين عاماً، فإننا لو تفحصنا كل الآثار التى تنسب إليه وحده لوجدناه على الرغم من ذلك أعظم الفراعنة المشيدين للآثار فى مصر

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٦، ص ٣٣٣.

وغيرها من أملاك الإمبراطورية فى آسيا وبلاد النوبة.

أو أن هذه الأوتاد قد يراد بها تلك المسلات المرتفعة الباسقة ذات الطرف العلوى المدبب (صورة ٢٤) والتى نحتت من كتلة واحدة من الصخر والتى إن قلبت تشابهت إلى حد كبير مع ذلك الوتد الشائع استخدامه لتثبيت أركان الخيام وهو ما يذكره د. رشدى البدراوى ونميل إليه. وعدد المسلات التى أقيمت قبل عصر رمسيس الثانى تبلغ حوالى ٣٠ - ٣٢ مسلة وكانت كالتالى:

سنوسرت الأول: ٢ مسلة، تحتمس الأول: ٢ مسلة، حتشبسوت: ٦ مسلات، تحتمس الثالث: ٩ مسلات، أمنحتب الثالث: ٢ أو ٦ مسلات، اخناتون: واحدة أو لا شيء، حورمحب: مسلات صغيرة، سيتى الأول: ٢ مسلة. فى حين أن رمسيس الثانى وحده أقام ما لا يقل عن ٣٥ مسلة. فى هليوبوليس: أقام ٤ مسلات على الأقل ثلاث نقلت إلى روما والرابعة إلى فلورنسا.

وفى حطام أتريب (بنها) وجدت بقايا مسلتين وقاعدتاهما، وكانت أجزاء بعض المسلات قد استعملت فى بعض المبانى، ونقلت قاعدة إحدى المسلات إلى متحف برلين والثانية موجودة بالمتحف المصرى.

وفى تانيس: توجد أجزاء من ٢٣ مسلة محفور عليها اسم رمسيس الثانى كانت كلها فى المعبد الكبير عبارة عن خمسة أزواج (١٠ مسلات) و١٣ مسلة فرادى وإحدى هذه المسلات كانت سليمة وهى التى نقلت إلى القاهرة وأقيمت فى جزيرة الزمالك بجوار برج القاهرة.

وفى الأقصر أطول مسلات رمسيس الثانى ففى الجزء الذى أضافه إلى معبد الأقصر أقام مسلتين إحداهما نقلت إلى باريس والثانية لا تزال باقية فى مكانها إلى اليوم، ولعلها هى المسلة الوحيدة المقامة فى مكانها منذ عهد رمسيس الثانى إلى اليوم (صورة ٢٥). وكل من هاتين المسلتين كان يبلغ ارتفاعهما ٢٥ متراً، وهى على ذلك تعتبر من أطول المسلات. وتوجد بقايا عدد من المسلات فى الكرنك كلها محطمة وتوجد قاعدة مسلتين عند البوابة الشرقية بالإضافة إلى أجزاء من مسلات أخرى.

وفى أبى سمبل: أقام فى المعبد مسلتين: الشرقية عليها نقوش تُمثّل رمسيس الثانى بتعبد إلى «حور اختى» والغربية تصف الملك بأنه (محبوب آمون).

ويتضح لنا أن رمسيس الثانى هو صاحب أكبر عدد من الأوتاد وبذلك ينطبق عليه الوصف

الذى أطلقه القرآن الكريم على فرعون موسى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة ص]. وهذا يضيف برهاناً آخر على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

٥ - أن الله دمر ما كان يصنع وما كان يعرش

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة الأعراف]. فكلمة يعرشون تعنى أعمدة عليها عريشة، والعريش ما يُستظل به[1]، وكما سبق ذكره كان رمسيس الثانى أكثر الفراعنة رغبة فى تخليد اسمه وذكراه فأقام هذا العدد الهائل من معابد بها مئات الأعمدة، وأقام من المسلات عدداً يفوق ما أقامه الفراعنة الآخرون مجتمعين وصنع لنفسه عدداً كبيراً (حوالى ١٠٠) من التماثيل. منها حوالى ٣٠ بالغة الضخامة منها تماثيله الضخمة بأبى سمبل (صورة ٢٦) ومنها تمثاله الضخم من الحجر الجيرى بمنف ويبلغ طوله ١٣ متراً ولا يزال فى الموضع الذى أقيم فيه، وتمثاله الآخر الذى أقامه أحد ضباط ثورة يوليو عبد اللطيف البغدادى فى ميدان محطة مصر بالقاهرة والذى سمى الميدان باسمه فيما بعد (ميدان رمسيس) ثم انتقل أخيراً ليكون فى المتحف المصرى الجديد المزمع إنشاؤه بالقرب من الهرم.

ولا ينافس رمسيس الثانى فى ضخامة تماثيله من ملوك مصر القدماء سوى أمنحتب الثالث كما فى تمثالى ممنون وتمثاله الضخم بالمتحف المصرى. كما وضع رمسيس نفسه بين الآلهة فيما لا يقل عن ١٥ تمثالاً. هذا بخلاف ما تحطم وما لم يستدل عليه، وبخلاف مئات بل آلاف الصور والنقوش التى تمثله فى عربته وحروبه أو يستعرض الأسرى أو يعاقبهم أو تمثله فى مواقف يتعبد فيها للآلهة أو يتعبد الموظفون له.

ولكننا لو فحصنا هذه الآثار، كما يذكر د. رشدى البدراوى، لوجدنا معظمها قد تهدم ولم يبق منه إلا بعض قطع من الحجارة عليها اسم رمسيس الثانى تدل على أن أثراً ما كان له فى هذا المكان، ولعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يبقى عدد قليل من هذه الآثار سليماً بعض الشىء لندرك عِظَم ما شيّد وضخامة التماثيل التى صنعها. إذ لو دمّرت بالكامل لاندثر ذكره ولم يستدل عليه ومن هنا كان الإبقاء على معابد النوبة سليمة، بل وقيض الله لها من يعمل على إنقاذها من الغرق فى بحيرة السد العالى لتظل شاهداً على

(١) المعجم الوسيط، جـ ٢، ص ٥٩٩.

أعمال هذا الفرعون.

ولئن كان هذا الدمار قد حدث بعد وفاة رمسيس الثانى فقد كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يريه – حال حياته – بعض الدمار فى آثاره وهو ما لم يحدث لأحد من الفراعنة قبله أو بعده، وحدث الدمار فى أثرين كان رمسيس الثانى يعتز بهما أيما اعتزام وهما معبد أبى سمبل الكبير ومعبد الرمسيوم.

والأول يعتبره البعض أعظم بناء ضخم أقامه إنسان فى زمانه. وكان رمسيس الثانى قد بدأ فى إقامته فى السنة العاشرة من حكمه واحتفل بافتتاحه رسمياً فى السنة الرابعة والعشرين من حكمه، وتمر الأعوام ويحتفل رمسيس الثانى بالعيد الثلاثينى الأول وأقيمت احتفالات ضخمة فى المعبد بهذه المناسبة. ولم تمر بعد ذلك بضعة أشهر حتى حدث زلزال شديد ضرب منطقة النوبة واهتزت المنطقة.

وما حدث بمعبد أبى سمبل الكبير كان مأساة مفجعة كما يقول العالم كتشن[1] Kitchen إذ تشققت الأعمدة الضخمة وتكسر بعضها وانهار. وكذلك انهار العمود الثانى والتمثال الملكى فى الجانب الشمالى من الحجرة الأولى وتحول إلى حطام، وكذلك أصاب الدمار الواجهة ذاتها إذ انهارت الدعامة الشمالية لباب المدخل الرئيسى وسقطت ذراع التمثال الأول من الناحية الشمالية والمجاور للباب.

ولكن الخسارة الكبيرة كانت فى سقوط النصف العلوى بأكمله للتمثال الجنوبي: الرأس والذراعين والأكتاف، وتكسرت اللوحات على الحوائط وكان المنظر قظيعاً والموقف حرجاً بالنسبة لنائب الملك على منطقة النوبة (باسر) ولم يكن فى وسعه أن يقف مكتوف اليدين أمام هذا الدمار. وبدأ على الفور خطوات الإصلاح التى كللت بالنجاح إلى حد كبير، وأعيد بناء الأعمدة التى سقطت أو تصدعت. وتم تدعيم أعمدة القاعة الكبرى بمبانى، وهذه أتاحت مساحة إضافية لنقش مباركة من الإله (بتاح) مؤرخة بالعام ٢٣ من حكم رمسيس الثانى. وأعيدت ذراع التمثال التى سقطت وتم سندها بقطعة من الحجر كتب عليها اسم رمسيس الثانى وأعيد بناء دعامة الباب ولكنها تركت خالية من النقوش. وكان هذا أقصى ما أمكن للوزير (باسر) عمله، ولعل ذلك الترميم لم يلق قبولاً تاماً لدى رمسيس الثانى فعين بدلاً منه نائباً آخر للنوبة.

---

(1) Kitchen, Kenneth. Pharaoh Triumphant: The Life and Times of Ramesses II, King of Egypt. London: Aris & Phillips(1983), p.35.

وكان هـذا النائـب الجديد هو المبعوث الحيثـى هوى huy الـذى كان مرافقاً للأميرة الحيثية عند حضورها إلى مصر للتزوج من رمسـيس الثاني. وقد عينه نائباً له على النوبة لمدة ٤ سـنوات (٢٤ - ٢٨) ولكنه لم يفعل الكثـير فى ترميم معبد أبى سمبل ثم تولى بعده هذا المنصب «سـيتاو» Setau وظل فيه لمدة ربع قرن تقريباً (من السـنة ٢٨ إلى السـنة ٦٣ من حكم رمسيس). وكان «سيتاو» نشطاً ومثابراً وكتب على لوحة: «لقد عُينت نائباً للملك على النوبة، وقد وجهت الفلاحين بالآلاف وعشرات الآلاف ومن النوبيين مئات الآلاف، وقد أوكلت إلى مهمة بناء معبد رمسـيس الثانى فى الضفة الغربية (وهو معبد أبى سمبل)، وقـد أعدت بناء معابد النوبة كلها تقريباً والتى كانت قد سـقطت إلى حطام، وقد أعيدت كأنها جديدة باسم جلالته العظيم»، ودوّن ذلك تذكاراً ليبقى إلى الأبد. وبالرغم من ذلك لم يسـتطع إعادة الرأس إلى مكانه فبقى ملقى على الأرض، وحتى لما قامت منظمة اليونسـكو برفع المعبد إلى مكان أعلى من مكانه الأصلى حتى لا تغرقه مياه بحيرة السـد العالى فإنها حافظت على حاله وتركت أجزاء التمثال المهشمة كما كانت، (صورة ٢٧).

وفى العام ٤٤ قام النائب «سـيتاو» ببناء باقى المعابد التى فى الضفة الغربية وهى معبد السـبوعة ومعبد جرف حسـين، وسخّر فى بنائها أسـرى ليبيين. إذ وجدت لوحة كتبها ضابـط اسمه «راموس» يقول فيها: السـنة ٤٤: أمر جلالتـه - نائبه فى النوبة، المخلص «سـيتاو» بالإضافة إلى وحدة من جيش رمسـيس الثانى - يحميه والده آمون - بأن يأخذ أسرى من أرض الليبيين لبناء معبد رمسيس الثاني، وقد أمر جلالة الملك الضابط «راموس» بتجريد حملة من الجنود لهذا الغرض.. وهكذا أغارت فرقة الجيش على جنوب ليبيا فى الصحراء الغربية وقامت بتسـخير هؤلاء الأسرى فى ترميم ما تهدم وفى بناء معبد السبوعة وجرف حسين.

كان معبد الرمسيوم (صورة رقم ٢٨) أسوأ حظاً، إذ لمّا أصابه الزلزال لم يمكن إعادته إلى حالته الأصلية كما حدث فى أبى سمبل.

وقد أقيم الرمسـيوم كمعبد جنزى على الضفة اليمنى من النيل ليكون مكاناً فاخراً لحياة أخرى لرمسـيس الثانى، حيث تقام الشـعائر لتبجيله وتعظيمه إلى الأبد. وكان يسـمى فى المصرية القديمة (بيت ملايين السنين المتحدة مع طيبة) ولكن الأمور لم تسر كما كان يهوى الفرعون فقد سـقط النصف العلوى من التمثال البالـغ الضخامة الذى كان مقاماً فى الردهة الأولى. سـقط الرأس والأذرع والكتفين والصدر كتلة واحدة وتهدمت البوابة تماماً، ولا يزال

نصف التمثال هذا ملقى على الأرض منذ سقوطه صورة (٢٩). إذ يبدو أنه كانت هناك صعوبات فنية تحول دون إعادته إلى مكانه فوق الرجلين. وحالته تشبه إلى حد كبير حالة التمثال الضخم الآخر الموجود بجوار معبد الأقصر (صورة ٣٠)، كما سقطت كذلك رؤوس التماثيل الأصغر حجماً التى كانت مقامة فى الردهة الثانية بالمعبد الأخير (صورة ٣١). ولا شك أنها قد رممت وأعيدت إلى مكانها ولكنها بمضى الوقت سقطت ثانية.

ومعبد الراسيوم الآن فى حالة من الحطام.

ويذكر سليم حسن[1] أنه لم يبق من المناظر التى كانت تزين جدران هذا المعبد والتى كانت سجلاً تاريخياً عظيماً إلا نحو سُبع ما كان منقوشاً فى الأصل. وهذه البقية الباقية لا تعطينا إلا فكرة ناقصة عن المعبد ومحتوياته. وقد استعمل هذا المعبد بمثابة محجر منذ تاريخ لا يمكن معرفته على وجه التأكيد، غير أننا نعلم أن رمسيس الثالث قد نقل منه بعض أحجار إلى معبده بمدينة «هابو».

ومن المحتمل أنه اقتفى أثر هذا الملك ملوك آخرون منذ عاد النشاط إلى إقامة هذا المعبد فى عهد الأسرة الرابعة والعشرين. فنرى أنه لم يمض خمسون عاماً على موت «رمسيس الثاني» حتى بدىء بتخريب معبده فى الرمسيوم. وبعد ذلك بألف عام لم يبق من هذا المعبد قائماً إلا نصفه. وفى أيامنا لا نرى منه إلا بقايا أعمدة، وتماثيله الشامخة منها المحطم طريح الأرض ومنها ما فقد رأسه وجل أجزاءه.

وهذه ترجمة النقوش التى قرأها «ديودر الصقلى» على تمثاله الضخم:

«إنى «أرسيمانديا س» (أى رمسيس الثانى باليونانيه) ملك الملوك فاليفوقُنى فرد ما فى عمل من أعمالى..».

ولقد كان من ضمن ألقاب رمسيس الثانى فعلاً أنه كان يُدعى «حاكم الحكام» أو بعبارة أخرى «ملك الملوك» فى بعض نقوشه.

أما معبد رمسيس الثاني بالعرابة فقد وصل إلى حالة سيئة من التخريب والتدمير ولو حكمنا على مكانة هذا المعبد من بقايا جدرانه ونقوشه فلا يسعنا إلا الاعتراف بأنه كان على جانب عظيم من الفخامة ودقة الصنع والجمال مما لا يضارعه فيه مبنى آخر من المبانى التى تركها لنا رمسيس الثانى. إذ لم يستعمل فى إقامته الحجر الجيرى الأبيض فحسب بل كذلك الجرانيت الأحمر والجرانيت الأسود والحجر الرملى والمرمر.

وفى عاصمته التى أنشأها وسماها «بررعمسى» أى «دار رمسيس حبيب آمون» والتى

(١) مصر القديمة، جـ ٦، ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

أنشـأ فيها قصوراً فخمة مزخرفة بكل مهارات المصريين وحولها أنشـأ دوراً لأعضاء الأسرة المالكة والموظفين العظام من حاشيته، أقيمت في مختلف أنحائها ثكنات ومصانع. وجاهد رمسـيس الثانـي لجعل مدينته وعاصمته الجديدة منافسـاً لمدائن مصـر العظمى بل لطيبة ذاتها. وقد حفظت أوصاف لمدينة بررعمسـي تتحدث بجمالها واتساعها ورخائها، ومنها ما انحدر إلينا عن كاتب يدعى «بيبسا» في رسالة منه إلى رئيسه يقول:

«بررعمسـي مقام طيب للسـكن: ريفها حافل بكل طيب، وبهـا الأطعمة والأغذية كل يوم، وفي بركها السـمك وفي غدرانها الأطيار، وروابيها مخضرة بالكلأ.. والرمان والتفاح والزيتون وتين الحدائق ونبيذ كانكيمي المعتق الذي يفضل العسل.. تبحر سفنها وترسو فإذا الأطعمة والأغذية فيها كثيرة، أقبل ولتحتفل من أجلها بأعيادها السـماوية وأيام أعيادها ..اسكن واسعد وتجول حراً عندئذ بغير اضطراب»[1].

على أن الغريب في مدينة بتلك المنزلة كمدينة «بررعمسي» عاصمة مصر أمداً يربو على قرنين أن يصعب تحقيق موقعها على يقين. فقد حددت المدينة في أطلال تانيس بحكم ما في هذه الأخيرة من آثار ضخمة، وان كان كثير من ذلك قد أُتيَ به من مدن أقدم، إذ كان الحجـر فـي الدلتا نادراً وكان للكثير من الآثار أكثـر من موطن واحد. فقد كانت المحاجر بعيدة وكان أيسر أن يتم استغلال أحجار المواقع القديمة بدلاً من جلب حجر جديد. ولئن كانت أطلال «تانيس» تشمل آثاراً بنيت يوماً في «بررعمسي» فإن هذه الأطلال لا تقع فوق مدينة «بررعمسي». إذ تقع المنطقة التي يسلم أكثر العلماء بأنها بقايا «بررعمسي» من تحت القرية المتواضعة «قنطير» وما حولها، وذلك على بعد ثلاثين كيلومتراً من «تانيس».

وعلى الرغم من أن ما كشف عنه من ذلك الموقع لم يتجاوز قلة من أشياء وكتل الحجر، فإن البقايا إنما تجلو دلائل لا تنكر على قيام قصور لرمسيس الثاني في هذه المنطقة. ويبدو يقيناً كأنما قوضت آثار الرعامسـة في «قنطير» حيث أعيد اسـتعمال أحجارها في تزيين منشـآت تالية وبخاصة في «تانيس». وهكذا كان مصير تلك المدينة الضخمة فائقة الجمال في زمانها والتي بناها رمسيس الثاني لتكون عاصمة ملكه، حيث تحولت إلى أطلال بالية ومحجر لأخذ الأحجار منها لبناء المعابد والمباني في المدن الأخرى.

ومما يروى عن الخليفة المأمون العباسي عندما أقبل على مصر، فأقام فيها أياماً لم تعجبه فقـال: ألا قبَّح الله فرعون ماذا أعجبه في مصر حيث يقول ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ

---

(١) لبيب حبشي، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، مسلات مصر، ناطحات السحاب في الزمن الماضي، ١٠٨.

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الزخرف - الآية ٥١]، فقال له أحد جلسائه: "يا أمير المؤمنين ولقد قال الله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة الأعراف]، فإذا كان هذا هو ما بقى مما دمر الله فكيف كانت مصر قبل ذلك؟

٦- وهو الفرعون الذى كان مصيره الغرق وصارت جثته عبرة لمن جاء بعده.

وقد أشار القرآن إلى ذلك فى أكثر من موضع:
﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة يونس].

وهكذا غرق فرعون ونجى ببدنه ليكون لمن خلفه آية. ولم تكن آية لمن خلفه جيلاً أو جيلين بل بقيت لعشرات الأجيال ومئات السنين. ويمكن استنتاج أن يكون حادثة الغرق لم يشاهدها غير عدد محدود من رجال البلاط وبعض القادة والكهنة ممن كانوا مع فرعون فى مطاردة بنى إسرائيل ونجوا من الغرق. كما يمكن القول بأن الكثير من العوام لم يسمع بها، فقد كان الأمر عندهم فيما يبدو أن الفرعون قد توفى كما توفى غيره من الفراعنة، فهو كما فى حالة رمسيس الثانى قد بلغ من العمر عتيا حيث بلغ ٩٠ عاماً وحكم مصر ٦٧ عاماً ولذلك لم يستغرب الناس وفاته.

ومما لا شك فيه أن التقاليد المصرية القديمة كانت تقتضى بأن يتم الحفاظ على الجثة وتحنيطها ذلك أن الفرعون يجب أن يدفن وينعم بالطقوس الجنزية التى تكفل له مثوى طيبا ليحيا فى العالم الآخر حياة طيبة. حيث كان المصريون القدماء يعتقدون أن الخلود بعد الموت لا يتحقق إذا تحلل جسد الميت، وقالت عقيدتهم بأن الموت لا يقطع الصلة بين الروح والجسد فكل منهما يعتمد على الآخر، وكلُّ تآكلٍ فى الجسد بعد الموت يسرق من الروح جزءا، وتحلل الجسد يعنى فناء الروح، ومن هنا نشأ فن التحنيط.

وقد يكون أفراد البلاط الملكى ممن نجا من الغرق قد قاموا بتحنيط جثة الفرعون ونقل التابوت إلى طيبة ليدفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه فى وادى الملوك.

فقد أعد رمسيس الثانى لنفسه مقبرة حفرت فى وادى الملوك - وتعرف بالمقبرة رقم

٧ – إلى عمق أربعمائة قدم فى الصخر وممرها يبلغ نحو مائة وخمسين قدما، ويؤدى هذا الممر إلى قاعة عظيمة تبلغ مساحتها أربعة وأربعين قدما مربعا، كما تحتوى على أربع حجرات أخرى.

وليس للمقبرة شهرة مقبرة والده سيتى الأول (صور ٣٢ – ٣٤) من جهة النقوش وجمالها والرسومات وروعتها على الرغم من كبر مساحتها، ويرجع ذلك كما يذكر سليم حسن[1] إلى أنها مملوءة بالرمال والطين وقد نهبت فى الأزمنة القديمة.

ولقد كان من المألوف قديماً انتشار ظاهرة سرقة المعابد والمقابر وخاصة المقابر الملكية ومقابر الأمراء والأثرياء ونهب ما فيها وزادت جماعات اللصوص وشجعهم على ذلك ما كانت تحويه من كنوز ثمينة ومن أثاث جنزى وحلى وأدوات الحياة اليومية والاستعمال المنزلى.

ولقد تراخت سلطة الدولة فى عصر الأسرتين الـ ٢٠ والـ ٢١ وأصبح العرش ضعيفا، فانتهز كبار الموظفين الفرصة وصار الحراس متهاونين. ووجد اللصوص الفرصة لسرقة المقابر ولم يحترموا قداسة الموتى، ولم يخشوا الملوك فنظموا العصابات، ولم تستطع لجان التحقيق التى شكلت الوصول إلى الجرائم أو الحد منها. وفى سجلات المحاكم القديمة وجد ما يقطع بأن قبور أمنحتب الثالث، وسيتى الأول ورمسيس الثانى قد نبشت ونهبت.

ونظراً لاستمرار نهب المعابد واستمرار التعدى على المقابر وامتداد هذا التعدى إلى مقابر الملوك المنعزلة فى وادى الملوك، استقر رأى رجال الإدارة وكهنة آمون على الحفاظ على مومياوات الفراعنة فحسب. حيث وضعت مومياوات ثمانية من الملوك فى حجرة جانبية من مقبرة الملك «أمنحتب الثانى» (صورة ٣٥).

ولنفس هذا السبب فإن مومياء رمسيس الثانى قد أعيد لفها فى كفن خارجى جديد ووضعت فى تابوت خشبى عادى للتمويه، ونقلت إلى مقبرة والده سيتى الأول مع مجموعة أخرى من جثث الفراعنة السابقين. وسُجِّل على الكفن أن ذلك تم فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثالث فى السنة ٢٤ من حكم رمسيس الحادى عشر. ولما كان رمسيس الحادى عشر هو آخر فراعنة الأسرة العشرين وحكم ٢٧ سنة فإن العام الذى أعيد فيه تكفين ودفن جثة رمسيس الثانى كان فى عام ١٠٨٩ ق. م أى بعد وفاته بـ ١٢٧ سنة.

ولكن العبث بالمقابر الملكية لم يتوقف، فنقلت جثته فيما بعد إلى مقبرة «أمنحتب الأول». وأخيرا فى نهاية الأسرة الثانية والعشرين صممت السلطة الإدارية على صيانة المومياوات

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٦، ٣٥٦.

الملكيــة من العبث بها مرة أخــرى، فدفنوها معاً حيثما اتفق مع ملوك الكهنة المنتســبين للأســرة الحادية والعشــرين فى مقبرة قديمة يرجع تاريخها إلى عهد هذه الأســرة بالقرب من الدير البحرى. وســجلوا أن ذلك قد تم فى الســنة العاشرة من حكم الملك «سيامون» فى عــام ٩٦٩ ق.م. وردم المدخل تماماً وبقــى القبر الجديد بعيداً عن عبث اللصوص لأكثر من ٢٨٠٠ سنة.

وهكــذا بقيــت جثة أو مومياء رمســيس الثانى مع الملوك الآخرين فى أمان حتى ســنة ١٨٧٥م عندما كشــف فلاحو هذه الجهة هذا المدفن الجماعى للمومياوات والذى سمى فيما بعــد بـ«خبيئة الدير البحرى» وتحتوى على جميع المومياوات ومن بينها مومياء رمســيس الثانــى. حيث عثر فلاح مصرى هو وإخوته مصادفة على مدخل المقبرة وأخفوا اكتشــافهم وظلوا يترددون على المقبرة سراً يأخذون منها ما خف وزنه وغلا ثمنه مثل الجواهر والحلى وأوانى الأحشــاء حتى اختلفا فذهب أحدهم إلى قسم الشرطة واعترف بالأمر بعد أن كانت قد مرت ١٠ سنوات على اكتشافهم لها.

وفــى ٦ يوليو عــام ١٨٨١م تم نقل كل محتويات خبيئة الديــر البحرى من مومياوات وأثــاث جنائزى فى باخرة إلى القاهرة حيث أودعــت فى المتحف المصرى فى بولاق. غير أن نقل المومياوات من مكان إلى آخر قد سبب بعض العطب لها، وبخاصة مومياء رمسيس الثانى حيث نقلت إلى ضريح «ســعد» ثم نقلت بعد ذلك إلى بيت مدير مصلحة الآثار قبل أن تستقر فى النهاية فى الطابق العلوى بالمتحف المصرى.

٧ - وأنه الفرعون الذى التقت امرأته وابنته موسى وربتاه

وكما سمتها السنة النبوية الشريفة ومفسرو القرآن الكريم بـ «آسيه» وآمنت بموسى عليه السلام. فقد قال ﷺ:

« كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسيه امرأة فرعون ومريم بنت عمران.. وإن فضل عائشــة على النســاء كفضل السريد على الطعام» رواه مسلم والبخارى وابن ماجه والإمام أحمد.

وآســيه هو اســم كما يرى الدكتور أحمد يوسف[1] لا شك مصحوفاً عما يكاد يكون أشهر أسماء المصريين الأقدمين وهو إيســت وآست، ومن أشهر من انتقل إلى الإغريق والرومان ثم إلينا مصحوفاً فى «إيزيس».

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، مصر فى القرآن والسنة، دار الشروق، ص ١٠٨.

ولقد كان من كبريات أزواج رمسيس الثانى من تسمت باسم «آست نفرت» أى «آست الجميلة». ولقد كانت «نفرتارى» كما يذكر كثير من المؤرخين هى الزوجة الأولى الرئيسية للفرعون «رمسيس الثانى»، غير أن بعض المؤرخين الذين فحصوا الموضوع عن كثب قد وضعوا أمامنا حقيقة هامة تستدعى الفحص من جديد وهى أن «آست نفرت» كانت أم الأمراء الذين كان لهم حق وراثة العرش. فلقد كان من أولادها «رمسيس» الابن الثانى للفرعون، و «خع ام واس الثانى» الابن الرابع والوارث للعرش حتى مماته فى السنة الخامسة والخمسين من حكم والده، ثم «مرنبتاح» الابن الثالث عشر وخليفة والده على العرش، ويضعها البعض الزوجة الرئيسية لرمسيس الثانى. غير أنها لم تحظ فى الآثار بما حظيت به نفرتارى ولم يكن لها مقبرة مثل مقبرة نفرتارى فى الفخامة والجمال والتى كانت أجمل وأفخم مقابر ذلك العصر (صور ٣٦ - ٣٨). بينما تكاد تحظى هذه الملكة بكثير من التجاهل فيما وصل إلينا من هذا العصر مقارنة بباقى زوجات رمسيس أيضاً.

وكذلك حملت نفس الاسم الأميرة «آست نفرت» ابنته والتى تزوجت من أخيها «مرنبتاح» الذى أصبح فيما بعد ملكاً على مصر بعد والده، فكانت كذلك امرأة فرعون وكانت أم ابنه الفرعون «سيتى الثانى» (صورة ٣٩)، والتى يرى البعض - هؤلاء الذين يرون فى مرنبتاح فرعون موسى - أنها المقصودة بتربية موسى عليه السلام.

٨ - ذلك الفرعون الذى أشار العهد القديم إلى قتل ابنه البكر أو هلاكه:

«فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابنى البكر، فقلت له أطلق ابنى ليعبدنى فأبيت أن تطلقه، ها أنا ذا أقتل ابنك البكر». سفر الخروج (٤: ٢٢ - ٢٣).

«فيموت كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحى وكل بكر بهيمة».

سفر الخروج (٥: ١١).

«فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة، فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت»

(الخروج ١٢: ٢٩ - ٣٠).

وتذكر كتب التاريخ أن رمسيس الثانى قد فقد ولده البكر الأمير «آمون حر ونمف» ثم

بعد ذلك الأمير «خعمواســت» في طفولتهمــا كما تثبت ذلك النقوش التى على معبد «بيت الوالى». وقد كان الأول يعد الوارث للعرش، ولا يستبعد أن يكون الاثنان بكرين حيث يكون للملك أكثر من زوجة واحدة وأنجب من كل منهن ولدا بكرا.

وأخــيراً، ومع كل هذه التوافقات المؤيدة لأن يكون رمســيس الثانى هو فرعون موســى والحقائــق التــى تثبت صحة هذه النظرية إلا أن عدة اعتراضــات حالت دون القبول التام لهذه النظرية وهى:

الاعتراض الأول يتمثل فى أن ذلك يختلف مع ما ذكر فى العهد القديم بســفر الخروج ٢ : ٢٣ «وحــدث فــى تلك الأيــام الكثيرة أن ملك مصــر مات» والذى يعنــى أن الفرعون «رمسيس الثانى» قد مات وتولى ابنه «مرنبتاح» العرش. غير أنه يمكن القول أن كاتب العهد القديم اضطر لهذا القول لسببين.

الســبب الأول: أن يتمشــى ذلك مع عمر موسى الذى قرروه فى الإصحاح السابع الفقرة الســابعة من سفر الخروج: «وكان موســى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلّما فرعون»، الفرعون الجديد. ولما كان موســى قد فر من مصر وعمره ٤٥ ســنة كان معنى ذلك أنه أمضى فى مدين ٣٥ ســنة، وهى مدة طويلة جداً لا يســتقيم معها أن يفكر موســى بعد ذلك فى العودة إلى مصر. ويكون بنو إســرائيل فى هذه الفترة قد نســوا بطلهم ولا يعود لهم الحماس لقيادته لهم بعد أن غاب عنهم هذه الفترة الطويلة.

والســبب الآخر أن القول بموت الملك يتمشى مع ما جاء بسفر الخروج (٤: ١٩) «وقال الرب لموسى فى مدين، اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك». مع أن كلمة «جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» لا تعنى فرعون بقدر ما تعنى أهل المصرى القتيل، فهم الذين كانوا يطلبون نفس موسى وكان الفرعون ينفذ طلبهم بالثأر لهــم والأخذ بدمهــم، فلما ماتوا لم يعد لدى الفرعون دافع قوي. لهذا قد يســتقيم القول: «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن القوم الذين كانوا يطلبون نفس موسى ماتوا» وليس «ملك مصر مات» فى (الخروج ٢: ٢٣) ليتفق مع ما ذكر فى الخروج (٤: ١٩).

الاعــتراض الثانــى: يتمثل فــى تلك اللوحة المعروفة باســم «لوح إســرائيل» أو «لوح مرنبتــاح» والتى كتبت على الأرجح فى العام ١٢٢٠ ق. م وفيه يقول مرنبتاح: إنه قد أباد بذرة إســرائيل من فلسطين، ولما كان الخروج قد حدث فى العام ١٢٢٥ ق.م فهذا لا يترك فترة بين الخروج من مصر ودخول أرض فلســطين ســوى ٥ ســنوات، وهذا ما جعل كثيراً

من المؤرخين – وخاصة الإسـلاميين يرفضون الرأى القائل بأن رمسـيس الثانى هو فرعون الخروج لأن القرآن الكريم ينص صراحة وبوضوح على أن فترة التيه أربعون سنة.

ولم يتصد أحد لتفسير ما جاء بلوح مرنبتاح تفسيراً يسمح بفترة التيه، كما لم يفطنوا إلى ما قد يكون فى هذا اللوح من مبالغة، وهو أمر مألوف لدى الفراعنة عند تسجيلهم لما قاموا به من أعمال وخاصة نتائج حروبهم، بل تشبثوا بحرفية ما جاء فى هذا اللوح.

والاعتراض الأخير ضد هذه النظرية يرى أن رمسيس الثانى كان له ما لا يقل عن مائة ولد ما بين ذكر وأنثى، فى حين أن البعض يفهم من السياق القرآنى فى [سورة القصص – الآية ٩] أنه قد تبنى موسى بناء على رغبة زوجته ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ۝٩﴾ لأنه لم يكن له ولد أو أنه كان عقيماً. وهذا فهم خاطىء فلم يكن التبنى بسبب عقم الفرعون أو عقم نسائه، بل كان حرماناً مؤقتاً من الولد بوفاة الأبناء وهم صغار حتى تنفذ إرادة الله فى تبنى الفرعون لموسـى، فقد أنجب رمسيس الثانى ولدين فى بداية حياته وهما: «آمون حر ونمف» و«خعمواست الأول» وأنهما ماتا فى طفولتهما كما تثبته النقوش التى على معبد «بيـت الـوالى». ثم بعد ذلك زالت هذه العلة وعاش أبنـاؤه حتى بلغوا أكثر من مائة، وقد ثبت أن رمسـيس الثانى – فى عشـر السنوات الأولى بعد زواجه – كان أبناؤه يموتون وهم رُضَّع، وهذا هو سبب قبوله لتبنى موسى.

الافتراض الثامن

يرى أن فرعون الميلاد والتسـخير هو رمسيس الثانى وفرعون الخروج هو مرنبتاح. وعلى رأس المنادين بهذه النظرية موريس بوكاى(*) الذى قام بفحص مومياء كل من رمسيس الثانى (صورة ٤٠) ومرنبتاح (صورة ٤١) فى السبعينات من القرن الماضى.

وفى دراسـات له[1][2]، قام بعمل مقارنة بين الكتب السماوية الثلاثة كان ملخصها: أن القرآن لا يذكر أسماء أماكن سواء كان ذلك بالنسبة للمدن التى بناها بنو إسرائيل فى مصر أم بالنسبة لخط سير خروجهم منها. بينما يذكر العهد القديم أسماء كثير من الأماكن والمدن فى تفصيلية أكثر. والقرآن لا يذكر موت أحد الفراعنة أثناء مكوث موسـى فى أرض مدين

(*) جراح ومستشرق فرنسى.

(١) موريس بوكاى، دراسـة الكتب المقدسـة فى ضوء المعارف الحديثة، مكتبة النافذة، دراسـة وتقديم خالد محمد عبد، ١٩٧٧.

(٢) موريس بوكاى، القران الكريم و والتوراة والإنجيل والعلم، دار الملتقى للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣.

وأشار العهد القديم إلى ذلك.

والقرآن لا يحتوى على تحديدات عددية خاصة بجماعة موسى عليه السلام بينما يضخم العهد القديم عددهم ويصل بهم إلى عدد بعيد عن القبول وهو ٦٠٠ ألف رجل بأسرهم يكونون جماعة أكثر من مليونيين من السكان. ويشير القرآن إلى العثور على جثة فرعون موسى بعد موته وهو مالم يشر إليه العهد القديم.

ثم يذهب بوكاى إلى القول بأن النقاط المشتركة بين العهد القديم والقرآن هى:

- تأكيد القرآن والعهد القديم لاضطهاد فرعون لبنى إسرائيل.
- تأكيد القرآن والعهد القديم على موت فرعون - عند خروجه لمطاردة موسى وبنى إسرائيل - غرقا.

ودراسات بوكاى عن فرعون موسى تنتهى الى القول بان فرعون موسى ليس واحداً بل اثنين! . فرعون قام بتسخير بنى إسرائيل واضطهدهم وعذبهم وهو الذى نشأ موسى وترعرع فى كنفه، ومات أثناء هروب موسى وإقامته فى أرض مدين.

وفرعون آخر هو فرعون الخروج الذى طارد موسى وجماعته ومات غرقا. ويذكر أن الأول هو رمسيس الثانى ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشر والذى استمرت فترة حكمه ما يقرب من ٦٧ سنة والثانى هو ابنه مرنبتاح ثالث ملوك الأسرة التاسعة عشرة والذى استمر حكمه عشر سنوات أو ١٣ تقريبا.

كما كشف أيضاً(١) عن تطابق ما ورد فى القرآن الكريم بشأن مصير فرعون موسى بعد إغراقه فى اليم مع الواقع المتمثل فى وجود جثته إلى يومنا هذا آيةً للعالمين حيث قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢) ﴾ [سورة يونس]. حيث يقول:

«إن رواية العهد القديم بشأن خروج اليهود مع موسى عليه السلام من مصر تؤيد بقوة الفرضية القائلة بأن مرنبتاح خليفة رمسيس الثانى هو فرعون مصر فى زمن موسى عليه السلام، وإن الدراسة الطبية لمومياء مرنبتاح قدمت لنا معلومات مفيدة أخرى بشأن الأسباب المحتملة لوفاة هذا الفرعون. إن العهد القديم يذكر أن الجثة ابتلعها البحر ولكنها لا تعطى تفصيلا بشأن ما حدث لها لاحقاً. أما القرآن فيذكر أن جثة فرعون سوف تنقذ من الماء كما جاء فى الآية السابقة، وقد أظهر الفحص الطبى لهذه المومياء أن الجثة لم تظل فى الماء

---

(١) موريس بوكاى، العبرانيون فى مصر، بحث فى مؤتمر ماليزيا للإعجاز العلمى، ١٩٩٤.

مدة طويلة، إذ أنها لم تظهر أية علامات للتلف التام بسبب المكوث الطويل فى الماء».

ومن أنصار هذه النظرية من يختلف مع بوكاى بعض الشيء، فمنهم من يرى أن خروج بنى إسـرائيل من مصر كان خروجاً سـلمياً ليس فيه مطاردة، وأن مرنبتاح تعقبهم بعد أن وصلوا فعلاً إلى فلسطين، ومن أصحاب هذا الرأى جان يويوت[1] الذى يرى أن بنى إسرائيل انتهزوا فرصة انشـغال جيش مصر فى صد غزوة الليبيين لحدود مصر الغربية فى السـنة الخامسة من حكم مرنبتاح فهربوا من مصر، ثم بعد أن فرغ مرنبتاح من حربه مع الليبيين جرد حملة إلى فلسطين وأباد بنى إسرائيل هناك. وحول هذه النظرية نقاط تستحق البحث والتمحيص يمكن أن نوردها فيما يلى:

قـد يؤيـد هذه النظرية ما ورد فى العهد القديم (خـروج ٢: ٢٠٣) من أن ملك مصر قد مات، أى أن رمسيس الثانى مات وتولى الحكم بعده ابنه مرنبتاح. مما قد يتفق مع ما تقول به هذه النظرية، غير أنه يمكن القول كما قد قلنا من قبل أنه قد يستقيم القول «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن القوم الذين كانوا يطلبون نفس موسـى ماتوا» وليس «ملك مصر مات» فى (الخروج ٢: ٢٣) ليتفق مع ما ذكر فى الخروج (٤: ١٩).

كما قد يؤيد هذا الافتراض أو هذه النظرية أن نفهم من الآية الكريمة ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء] ما يشير إلى أن فرعون القائل هنا يريد بقوله «فينا» أى فى البيت الملكى أو أنه قد يشير بذلك إلى والده رمسيس الثانى الذى تربى موسى فى كنفه. غير أنه لا يمكن التسليم بهذا الفرض تسليماً قاطعاً فقد يكون الفرض الآخر (بأن يكون رمسيس هو نفسه القائل بذلك) على نفس القدر من القبول ويكون رمسيس الثانى هو الذى يمن على موسى بحق الربابة. بل إن هذا الفرض الثانى له ما يعضده إذا أخذنا فى الاعتبار ما يمكن أن يكون أكثر إيلاماً للنفس وأدعى إلى الحزن عندما يجد فرعون أن ما كان يأمله وزوجته من تربية موسى ومن كانت ترجى منفعته ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة القصص] صار هو نفسه سبباً فى هلاكه فكأنه التقطه ليكون له عدواً وحزناً، كما قرر القرآن الكريم:

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

---

(١) جان يويوت، مصر الفرعونية، مترجم، القاهرة ١٩٦٦ ص٤٠ .

وبالرغم من كل أسـباب الحيطة والحذر الذى اتخذها رمسـيس الثاني. وهذا أبلغ فى العـبرة من أن يكون الذى سـخر وتكبر وتجبّر قد مات فى سـريره ميتة طبيعية فى حين يكون الغرق من نصيب ابنه. وخاصة أن مدة حكم رمسـيس الثانى طويلة تسـمح بوقوع كل الأحداث فى عهده. وتكون الآية بلفظ البحر لجثته تمثيلاً به لأفعاله.

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً (٩٢) ﴾ [سورة يونس].

فالذى يُقبل هو أن يكون فرعون موسـى – الذى رباه وهو طفل ثم هرب منه وهو شـاب ثـم عاد له ليبلغه برسـالة ربه بترك اليهود يخرجون من مصـر وقت أن صار كهلا – هو فرعونا عاش على الأقل خمسـين عاما وهى التى فيها عاصر موسـى طفلا فشابا فكهلا ثم مات غرقا.

كما أن ما يعضد هذه النظرية تلك اللوحة التى ذكر فيها بنى إسرائيل وهى لوحة مرنتاح أو لوحة بنى إسرائيل والتى كتبت فى العام الخامس من حكمه. والتى تذكر أن مرنبتاح قد قضى على بنى إسرائيل وأبادهم وبالتالى يكون هو فرعون الخروج.

غير أن هذا يتنافى مع الحقيقة المؤكدة وهى أن فرعون الخروج غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل، فلا يمكن أن يكون الخروج حدث فى أوائل حكم مرنبتاح بل يكون قد حدث فى أواخر حكم رمسـيس الثانى الذى غرق أثناء مطاردتهم. كما أنها بهذا تغفل سـنوات التيه التى عاش فيها بنو إسـرائيل فى صحراء سـيناء والتى وردت فى القرآن الكريم. مما يدل على أن الاعتماد على لوحة مرنبتاح كسـند فى نظرية أن يكون مرنبتاح نفسـه هو فرعون الخـروج هو فى حد ذاته ينفى هذه النظريـة ويثبت عدم صدق الفقرة الواردة بها والمتعلقة ببنى إسرائيل تصبح هذه اللوحة فى حقيقتها دليلاً على أن الخروج تم قبل عصر مرنبتاح. وقد علق جيمس بيكى[1] عالم الآثار الشـهير إلى ذلك فى إشـارة مقتضبة بقوله: «وإن مركز مرنبتاح كفرعون الخروج قد اهتز بسبب كشف لوحة النصر أى لوح إسرائيل».

ولقد تناولنا طبيعة هذه اللوحة والاختلاف حول ما فيها فيما سبق.

كمـا أن البعض ذهب فى اعتقاده فى صحة هـذه النظرية مذهباً بعيداً ليقول أن فرعون الخروج لم يمت وإنما نجاه الله ببدنه (أى نجا ببدنه من الغرق) ليكون آية للناس على قدرة الخالق. ومن هؤلاء سـليم حسـن[2] الذى يرى أن موضوع غرق فرعون فى الكتب السماوية

(١) جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل جـ٣، ص ١٧١.

(٢) سليم حسن، مصر القديمة جـ ٧، ص ١٣٥.

قـد فهم خطأ، حيث يقول: الواقع أنه لا يمكن للإنسـان أن يتصور غرق الفرعون وعربته فـى ماء ضحضاح لا يزيـد عمقه عن قدمين أو ثلاثة، بل المعقول أن خيل الفرعون وعرباته قد ساخت فى الأوحال وسقط بعض ركابها وهذا يفسر ما جاء فى سفر [الخروج ١٤: ٢٥] «وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقله». أو «وخلع دواليب المراكب فساقوها بمشقة».

ويسـتمر قائلاً: هذا فضلاً عن أن ما جاء فى القرآن الكريم لا يُشـعر بأن الفرعون الذى عاصر موسى وطارده قد غرق ومات، بل على العكس نجَّاه الله ببدنه ليكون آية والتعبير: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴿٩٢﴾ ﴾[سـورة يونس] تعـادل التعبير العامـى (خُلُص بجلده)!! وفى رأى الشـخصى أنه لا يمكن تأويل أو تفسـير آيات القرآن اعتمادا على مفهوم العوام أو التعبير العامى.

الافتراض التاسع

ويكاد يكون معارضة لما أورده الافتراض السابق من أن فرعون الخروج هو مرنبتاح ليضع لنا فرضية جديدة تقول بأن سيتى الثانى هو فرعون الخروج. وقد أورد هذا الرأى د. أحمد عبد الحميد يوسـف فى كتابة «مصر فى القرآن والسـنة». وقبل أن نستعرض حيثيات هذا الرأى ينبغى أن نشـير أولاً إلى أن مرنبتاح كان الابن الثالث عشـر من أبناء رمسيس الثانى الذكور. وقد اختاره والده ولياً للعهد فى السـنة الخامسة والخمسين من حكمه، وذلك بعد موت الأمير «خع ام وست» الذى ظل ولياً لعهد المملكة المصرية مدة طويلة. ولم يتول عرش الملك إلا وهو فى نحو الستين من عمره ومن ثم نرى ملكاً طاعناً فى السن قد خلفه آخر بلغ أرذل العمر. ولعل الفترة التى قضاها مرنبتاح فى الحكم لم تكن طويلة فإن آخر ما عثر عليه مـن آثاره ترجع إلى السـنة الثامنة من حكمه مما يـدل على أنه لم يمكث على عرش الملك أكثر من ثمانى إلى عشر سنوات وليس هناك حتى الآن ما يثبت انه حكم عشرين عاماً كما ذكر لنا مانيتون.

ويقول د.أحمد عبد الحميد يوسـف أنه قد طعن فى السن وتقدمت به الأيام، إذ بدا من فحص موميائه تصلب الغضاريف من حنجرته فإذا هى عظام كلها، وفى ذلك ما يدل – فى رأى الطب والأطباء مع صلعه وما تبقى من بياض شعره الأشيب – على أنه بلغ من الكبر ما يقعد به أو يوشك أن يقعد به عن الخروج فى حملات الحرب والقتال.

ولئـن كان لا يخرج فى الحملات الخطيرة التى تتعـرض فيها مصر للعدوان والغزو من

قبَل الغرب فلم يخرج عند هجوم الليبيين فى العام الرابع. ولا ثبت خروجه فى الزحف الأكبر الذى وجهوه على مصر فى العام التالى، فأحرى به لو وقع خروج بنى إسرائيل أواخر حكمه ألا يخرج لإدراك هؤلاء الهاربين، الشرذمة القليلون. ولذلك فأحرى بحكم السن أن تكون نهايته وفاة بحكم الشيخوخة فى ختام العمر.

ويرجح الكاتب أن يكون فرعون الخروج شاباً أو رجلاً مكتمل الصحة موفور النشاط حيث الموت المفاجىء بغرق أدنى إلى العقل والاقتناع، ويرى أن ذلك ينطبق على «سيتى الثانى» والذى توجد موميائه بالمتحف المصرى بالقاهرة.

كما يستدل على ذلك بأن ما ورد فى القرآن الكريم بين موسى وفرعون من جدل كان يعنف حتى يبلغ حد التراشق اللفظى دليل آخر على شخص فرعون الخروج. فما كان لموسى بأدبه الربانى ليتحدث بهذا العنف إلى رمسيس الأكبر الذى تربى فى كنفه ولا إلى ابنه مرنبتاح. وظاهر إذاً أن موسى إنما كان يتحدث إلى ترب أصغر من أترابه من بنى رمسيس أو أحفاده تربى موسى معه أغلب الظن، وارتفعت بينهما من قبل الكلفة وزالت الرهبة بحيث يقول موسى له:

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء].

والظن هنا بمعنى التحقيق ومثبوراً كما تذكر كتب التفسير أى ملعونا أو مغلوبا أو خاسرا أو مخبولاً لا عقل له أو هالكاً أو مسحوراً ليرد عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ. ولم يكن رمسيس الثانى ولا كان مرنبتاح باللذين يوصفان بالمثبور. وهناك اختلاف كبير كما تثبت الشواهد التاريخية بين شخصية أوائل فراعنة الأسرة التاسعة عشر وأواخرها، فشتان بين سيتى الأول ورمسيس الثانى وما بين مرنبتاح، ثم ما بين مرنبتاح وابنه سيتى الثانى.

وفضلاً عن ذلك فإن ما تبين من لوحة النصر الأكبر من تمتع الناس أيام مرنبتاح بأمن ورخاء من بعد خوف واضطراب وما تحدثت به أخباره بعد، فقد عرف عن عصر مرنبتاح من سعة وفيض من رزق مكناه من غوث الحيثيين فى مجاعتهم. وما عرف من عهد سيتى الثانى من فوضى واضطراب، وما ورد من عهد صاحب الخروج من نوازل الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف]، وإن كل هذا فى نظر الكاتب يرجح أن يكون سيتى الثانى هو صاحب الخروج. ولعل سيتى الثانى كان حين ولى العرش قد اتبع سياسة السماحة واللين متبعاً سياسة والده مرنبتاح الذى كان أرحم من أبيه رمسيس الثانى ببنى إسرائيل. وآية ذلك أن موسى حين

جاءه بالبينات إذا بالملأ من حوله يحرضونه على استئناف سياسة جده فيهم من القتل والتعذيب وأنه أوعد بها على التحديد، كما يدل ذلك على ما وصلت إليه حاشيته من مكانة وتأثير فى شخصية الفرعون.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ويخرج د. عبد الحميد يوسف من ذلك إلى أن حياة موسى قد شهدت أطواراً ثلاثة:

كان الأول حين مولده تحت فرعون يضطهد بنى إسرائيل ويعذبهم، يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم فدفع ذلك بأمه بوحى من الله تعالى أن تلقيه فى اليم.

والثانى حين بلغ أشده واستوى على عهد توقف فيه ذبح البنين وخف العذاب. وتمتع فيه بنو إسرائيل بقدر من السماحة واللين أغرياهم بشىء من جرأة وتبجح، فلم يكن لاسرائيلى أن يقتتل مع مصرى فيستنصر عليه موسى فيقتله، ثم يعود إلى قتال آخر بعد مقتل الأول إلا فى ظل سماحة تمتعت بها طائفته وأمن استمرأته شيعته. وقد كان محتملاً أن تتعرض الطائفة كلها لنقمة فرعون والناس بعد مقتل المصرى والشروع فى قتل الآخر. ومع ذلك فقد بلغت السماحة يومئذ بحيث لم يطلب غير موسى بدم ذلك القتيل، وبما عسى أن يكون فتنة وفساداً فى الأرض.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة غافر].

وكان الطور الثالث حين عاد موسى إلى مصر برسالة ربه يثير فى قوم فرعون مكامن العداوة والبغضاء فيحرضون مليكهم كما سبق على استئناف ما كان قد انقطع من التعذيب لبنى إسرائيل.

وقد يؤيد تغير لهجة حوار موسى مع فرعون، نتيجة لاختلاف من يحدثه الآن عن سابقه، ما ذكره القرآن من خوف موسى وأخيه من طغيان فرعون وبطشه عندما كلفا بالرسالة والذهاب إلى فرعون فى قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة طه].

ولعلنا نستشعر مدى ما كان فى نفس موسى من رهبة اللقاء، لسابق معرفته بجبروت هذا

الفرعون وطغيانه، وذلك من دعائه إلى ربه:
﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)
وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا
(٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ [سورة طه].

وانتشرت القلاقل داخل البلاد بسبب الثورات التى قامت من أجل عرش الملك والتطاحن عليه بين أفراد أسرة هذا العاهل. والواقع أن البلاد بعد عهد «مرنبتاح» كانت فى حالة من الفوضى والاضطراب. فبوفاته تفجرت أزمة وراثة العرش، وكان ذلك متوقعاً بالنظر إلى طول مدة حكم رمسيس الثانى والتى بلغت ما يقرب من ٦٨سنة. فوفاة أولياء العهد تباعاً، واختيار مرنبتاح لتولى السلطة رغم ترتيبه الثالث عشر كانا سبباً فيما احتدم من صراع بين أفراد الجيل اللاحق من الأسرة المالكة.

وقد نتفق معه فيما ذهب إليه من أن عصر مرنبتاح كان عصراً مستقراً إلى حد ما، ونعمت فيه البلاد ببعض الهدوء وتحسن الوضع المالى لها، بعد أن ابتلعت النهضة العمرانية والبنائية الكبيرة التى قام بها أبوه «رمسيس الثانى» كل موارد الدولة. وكذلك مع ما كان من اضطراب وفوضى فى عهد خلفه «سيتى الثانى» الذى تولى الحكم وهو فى سن السادسة والخمسين من عمره تقريباً. وكانت الأمور مهيأة لقيام الاضطرابات وتأليف الأحزاب التى نجدها تنمو وتترعرع فى مثل هذه الأحوال لانعدام الشخصية القوية التى تضرب على أيدى العابثين والنفعيين، ولم يبق هناك حاكم يرد الحق إلى نصابه، وسقطت مصر فى أيدى أمرائها وحكام مدنها، وأصبحت البلاد فى إعياء وفقر داخلى بالغ.

ويذكر نيقولا جريمال فى كتابه تاريخ مصر القديم[1] أنه جاء فى بردية «هاريس»: سادت مصر الاضطرابات، وأصبح كل شخص يضع قانونه الخاص، وعلى امتداد عدة سنوات لم تعرف مصر حكومة...وتحكّم الأعيان وعُمَد القرى فى البلاد».

وبردية «هاريس» المذكورة هى أطول بردية مصرية قديمة عثر عليها حتى الآن وتشتمل على ١٥٠٠ سطر. وقد عثر عليها فى مقبرة بالقرب من مدينة هابو بالأقصر، واشتراها جامع التحف أنتونى تشارلز هاريس (١٧٩٠ – ١٨٦٩) فى عام ١٨٥٥، ودخلت ضمن مجموعة المتحف البريطانى عام ١٨٧٢. وتشمل قائمة بأوقاف المعبد وموجز مختصر عن فترة حكم رمسيس الثالث من الأسرة الـ ٢٠. وتذكر البردية اسم «ست نخت» والد الملك

(1) Nicholos Grimal, A History of Ancient Egypt, Blackwell, London, 1994, p.355.

رمسيس الثالث وسلفه فى الحكم الذى أعاد الاستقرار إلى مصر بعد صراع داخلى ونزاع أهلى. ورمسيس الثالث هو الذى نظم الجهاز الإدارى وجيش الدولة. والبردية نفسها كتبت فى عهد الملك رمسيس الرابع ابن الملك رمسيس الثالث.

ومع اتفاقنا مع ما ذهب إليه من أن هذه الفترة كانت فترة اضطرابات وفوضى، إلا أن كل هذا لا يعنى بالضرورة أن يكون ذلك العهد هو عهد نزول الآيات التسع الواردة فى العهد القديم والقرآن الكريم، وأن ذلك الفرعون (سيتى الثانى) هو فرعون الخروج.

كما أنه فى تقسيمه لحياة موسى للأطوار الثلاثة لم يحدد أى الفراعنة أقرب وجوداً لكل مرحلة وإن نوه قبل هذا بصورة عامة إلى أن موسى قد عاصر الفراعنة الثلاث «رمسيس الثانى» وثم «مرنبتاح ثم «سيتى الثانى» وأن الأخير هو فرعون الخروج.

وهناك من الباحثين من يقترب من هذه النظرية ويؤيدها، ومنهم الباحث محمد عزة دروزة[1] الذى يربط بين اضطهاد بنى إسرائيل على يد فرعون، والذى ثبت فى الكتب المقدسة، وبين ما ورد فى برديات مصرية من حديث عن اضطهاد رمسيس الثانى للعبرانيين. وذلك اعتماداً على ما ذكر جيمس هنرى بريستد فى كتابه «تاريخ مصر منذ أقدم العصور» الذى تحدث عن تسخير رمسيس الثانى للعبرانيين فى جنوب بلاد الشام. وقد ذكر بريستد خروج بنى إسرائيل من مصر فى عهد مرنبتاح الثانى فى ظروف الاضطراب وعدم الاستقرار التى حدثت فى مصر وقتها، وأن السحرة والمنجمين نصحوا مرنبتاح بتعذيب بنى إسرائيل. وظهر فيهم موسى ثم كلف برسالة التوحيد ونبذ ألوهية فرعون وتحرير بنى إسرائيل من العبودية التى يرزحون تحت نيرها. وانتهى الأمر بخروجهم من مصر ومطاردة مرنبتاح لهم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وقد اعتمد بريستد فى معلوماته على المدونات اليونانية القديمة والمؤرخ المصرى القديم «مانيتون السمنودى» الذى عاش فى العصر البطلمى. ويقول بريستد أنه قرأ نصوصاً مكتوبة فى الأقصر يفتخر فيها مرنبتاح الأول بتنكيله ببنى إسرائيل وباقى سكان فلسطين.

غير أن هذا القول ربما يقصد به ما ذكر بلوحة النصر لمرنبتاح أو لوحة إسرائيل وليس نصوصاً بعينها فى مقبرته مثلاً. ويحاول «دروزة» ان يجمع بين تلك الروايات فيقول: إن بنى إسرائيل خرجوا من مصر على دفعتين: دفعة صغرى فى عهد رمسيس الثانى أوابنه مرنبتاح ودفعة كبرى فى عهد من جاء بعده «آمون مس» الذى اغتصب الحكم لنفسه

---

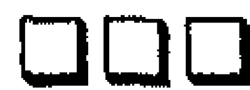
(١) محمد عزة دروزة، تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٦٩.

وحكم فترة تصل إلى خمس سنوات أو سيتى الثانى وهو ابن مرنبتاح وحكم سبع سنوات، والأخيرة هى التى قادها موسى.

مثل هذه الفروض التسع التى تناولت فرعون موسى، والتى تم إيرادها فى هذا الكتاب تقوم على اجتهادات فكريه وكل منها له حيثياته التى قد تقترب من المنطق وقد تجدف بعيداً عنه. وهناك مجموعة أخرى من الافتراضات لم نوردها فى هذا العرض لكونها فروضا واهية لا تعتمد على أساس ولا يمكن عرضها للنقاش، كمن يدعى أن فرعون وجنده الذين طاردوا موسى عليه السلام من قوم موسى وليسوا من المصريين. أو من يقول بأن فرعون موسى هو أوزير أو أوزوريس وأن إيزيس زوجته (أو إيست بالمصرية) هى «أسيه بنت مزاحم» امراءة فرعون التى ورد ذكرها فى القرآن. وأن «ست» المعبود الشرير الذى قتل أوزير ما هو إلا النبى موسى عليه السلام! !، مستقياً فكره من الأسطورة المصرية القديمة «إيزيس وأوزوريس». ومثل هذه الآراء تحتاج إلى كثير من الحقائق حتى تقف على قدميها كافتراض يمكن مناقشته.

وخلاصة هذا السرد أو هذا التناول للآراء والافتراضات المختلفة أنه لا يمكننا الجزم بصحة أى منها، وإن كنا نميل إلى أحدها دون الآخر فلا يعنى ذلك أننا نجزم بهذا الرأى ونقطع به.

ولعلنا نكون أكثر حيادية وأكثر صدقاً ونسير وفق ما تناولته الكتب المقدسة القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكذلك العهد القديم، إذا ما سلمنا بصحة كل ما كتب عن قصة فرعون فيه حيث لم تكتب التوراة إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد، هذه الكتب لم تصرح باسم الفرعون وإنما أشارت فقط إلى ما كان منه تجاه دعوة موسى عليه السلام، وما وقع لبنى إسرائيل على يديه من تعذيب وتسخير وقتل للأبناء واستحياء للنساء، وكيف كان مصيره. كما أن النصوص الأثرية والمخلفات المادية للتاريخ والتى تحت أيدينا حتى الآن لم تشر إلى كنه هذا الفرعون ومن يكون ، وقد يكون فى باطن الأرض ما قد يغير كل هذه الافتراضات والتخمينات.



المراجع

أولاً: المراجع العربية

١ - ابن كثير، قصص الأنبياء، دار العقيدة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢.
٢ - أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى، القاهرة، ١٩٥٤.
٣ - أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة، دار الشروق، طبعة خاصة ضمن مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.
٤ - أحمد فخرى (دكتور)، مصر الفرعونية، ١٩٧١.
٥ - أحمد قدرى (دكتور)، المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية، ترجمة مختار السويفى ومحمد العزب موسى، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٥.
٦ - ألن شورتر، الحياة اليومية فى مصر القديمة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، ومحرم كمال، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.
٧ - بيير مونتيه، الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرعامسة، ترجمة عزيز مرقص ومراجعة عبد الحميد الدواخلى، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥.
٨ - تحفة حندوسة (دكتور)، الزواج والطلاق فى مصر القديمة، مطبعة المجلس الأعلى للآثار، ١٩٩٨.
٩ - ت. ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨.
١٠ - جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، القاهرة ١٩٩٦.
١١ - جلال زكى، موسى على أرض مصر، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٧.
١٢ - جون ويلسون، الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة، ١٩٥٦.
١٣ - جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.
١٤ - جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد، ومراجعة جمال الدين مختار، الجزء الثالث، القاهرة، ١٩٨٧.
١٥ - جيمس هنرى بريستد، تاريخ مصر منذ أقدم العصور، ترجمة د. حسن كمال، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢٩.

١٦ – جيمس هنرى بريستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.
١٧ – رشدى البدراوى (دكتور)، موسى وهارون عليهما السلام من هو فرعون موسى؟ أستاذ بجامعة القاهرة وباحث وكاتب إسلامى.
١٨ – رمضان السيد عبده (دكتور)، تاريخ مصر القديمة، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، هيئة الآثار المصرية، جـ ٢، ١٩٩٣.
١٩ – رمضان السيد عبده (دكتور)، اللوحة ذات النصين ليست لوحة إسرائيل، مجلة كلية الآداب جامعة المنيا، ١٩٩٠.
٢٠ – رمضان السيد عبده (دكتور)، دراسة حول تطور علاقة موسى بالمسئول فى مصر، فى الفترة التى عاش فيها، مجلة التاريخ والمستقبل، العدد الثانى، يوليو ٢٠٠٠.
٢١ – سعيد ثابت، فرعون موسى، دار المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٩٢.
٢٢ – سعيد أبو العينين، الفرعون الذى يطارده اليهود بين التوراة والقرآن – كتاب اليوم، ١٩٩٧.
٢٣ – سليم حسن، مصر القديمة، الأجزاء ١، ٢، ٦، ٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة خاصة ضمن مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠.
٢٤ – سيد توفيق (دكتور)، معالم وتاريخ حضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، ١٩٩٠.
٢٥ – سيجموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة وتحقيق جورج طرابيشى، دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.
٢٦ – عبد الصبور شاهين (دكتور) وإصلاح عبد السلام الرفاعى، مصر قبل الإسلام، الزهراء للإعلام العربى، ٢٠٠٠.
٢٧ – عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ ١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٠.
٢٨ – فيليب حتى (دكتور)، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ ١، ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة ببيروت، ١٩٥٨.
٢٩ – فوزى مكاوى (دكتور)، الناس فى مصر القديمة، مطابع المجلس الأعلى للآثار، ١٩٩٥.
٣٠ – قلينى نجيب، فرعون موسى، دار حورس، ١٩٩٢.

٣١ – كنت أ. كتشن، رمسيس الثانى فرعون المجد، ترجمة: د. أحمد زهير أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨.
٣٢ – لبيب حبشى، مسلات مصر، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف. ناطحات السحاب فى الزمن الماضى، مطابع المجلس الأعلى للآثار، ١٩٩٤.
٣٣ – محمد بيومى مهران (دكتور)، اخناتون عصره ودعوته، الإسكندرية، ١٩٧٩.
٣٤ – محمد بيومى مهران (دكتور)، دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، الحضارة المصرية، الإسكندرية، ١٩٨٤.
٣٥ – محمد بيومى مهران (دكتور)، دراسات تاريخية فى القرآن الكريم، بيروت، جـ٢، ١٩٩٨.
٣٦ – مراد محمد محمود الدش، عبور موسى من بحيرة قارون، وتحتمس الثالث فرعون الخروج، دار الحكيم، ١٩٩٩.
٣٧ – محمد السيد الداودى، من كنوز القرآن، بحوث لغوية منوعة، دار المعارف ١٩٧٣.
٣٨ – محمد وصفى، الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل، ترجمة وتحقيق: بسام عبد الوهاب الجابى، دار ابن حزم، ١٩٩٧.
٣٩ – محمد عزة دروزة، تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٦٩.
٤٠ – منال محمود محمد محمود، الجريمة والعقاب فى مصر القديمة، مطبعة المجلس الأعلى للآثار، ٢٠٠٤.
٤١ – موريس بوكاى، العبرانيون فى مصر، بحث فى مؤتمر ماليزيا للإعجاز العلمى، ١٩٩٤.
٤٢ – موريس بوكاى، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة مكتبة النافذة، دراسة وتقديم خالد محمد عيد ١٩٩٧.
٤٣ – موريس بوكاى، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دار الملتقى للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣.
٤٤ – نجيب ميخائيل إبراهيم (دكتور)، مصر والشرق الأدنى القديم، مصر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٦٢.

٤٥ – نيقولا جريمال: تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتى، القاهرة، ١٩٩٣.
٤٦ – وهيب كامل، ديودور الصقلى فى مصر، القاهرة ١٩٤٧.
٤٧ – القرآن الكريم.
٤٨ – تفسير الطبرى.
٤٩ – تفسير بن كثير.
٥٠ – تفسير القرطبى.
٥١ – تفسير فتح القدير.
٥٢ – تفسير البيضاوى.
٥٣ – تفسير الجلالين.
٥٤ – تفسير البغوى.
٥٥ – تفسير الدر المنثور.
٥٦ – الكتاب المقدس.



ثانياً: المراجع الأجنبية

1. Assmann. Jan. Moses the Egyptian: The Memory of Egypt in Western Monotheism. Harvard University Press, 1997
2. Fast, Howard. Moses, Prince of Egypt, Crown Pubs., New York, 1958.
3. Freud, Sigmund. Moses and Monotheism. New York: Vintage, 1967
4. Gardiner. A., Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1976.
5. Grafton Elliot Smith, The Royal Mummies, Cairo, 1912, pp. 65 - 70.
6. Henri Daniel Rops, Israel and the Ancient World, London, 1964.
7. John Argubright , Bible Believer's Archaeology, Volume 1, Historical Evidence That Proves the Bible, USA, 1997.
8. Kenneth A. Kitchen, The Physical Text of Merenptah's Victory Hymn (The "Israel Stela"), The Journal of the Society for the Study of Egyptian Antiquities 24 (1994): 71-76
9. Kitchen, Kenneth. Pharaoh Triumphant: The Life and Times of Ramesses II, King of Egypt. London: Aris & Phillips(1983)
10. Messod Sabbah, Roger Sabbath, Secrets of the Exodus: The Egyptian Origins of the Hebrew People, Allworth Press, 2004.
11. Naville، Archeology of the Old Testament, 1913
12. Nicholos Grimal, A History of Ancient Egypt, Blackwell, London, 1994.
13. Osman, Ahmed, Moses: Pharaoh of Egypt, The Mystery of Akhenaten Resolved, London, Paladin. 1994.
14. Osman, Ahmed, Moses and Akhenaten: The Secret History of Egypt at the Time of the Exodus, London, Paladin.2002.
15. Osman, Ahmed, The Hebrew Pharaohs of Egypt: The Secret Lineage of the Patriarch Joseph, Bear & Company, London, 2003.
16. Petrie, H. I. C., Hykoses and Israelite Cities, London, 1906.
17. Smith, J.W., God & man in Early Israel, London, 1956.
18. Weigal, A., A History of the Pharaohs، London، 1986
19. htt://en.wikipedia.org/wiki/Musa (Prophet)
20. htt:// en wikipedia.org/wiki/Moshe_Rabbein

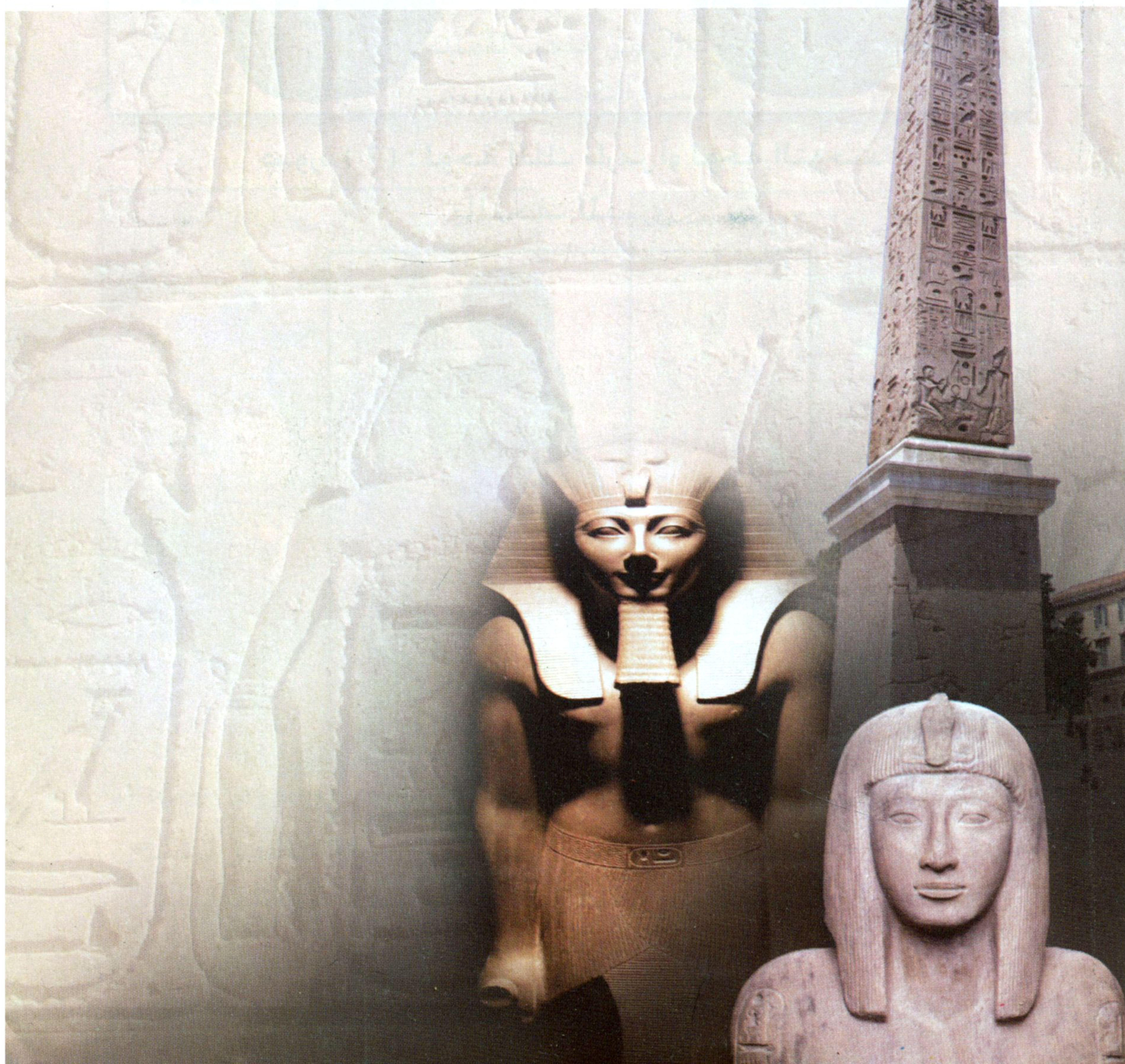
21. http://allanturner.com/pharaoh.htm.
22. http://www.55a.net

❑❑❑

الفهرس

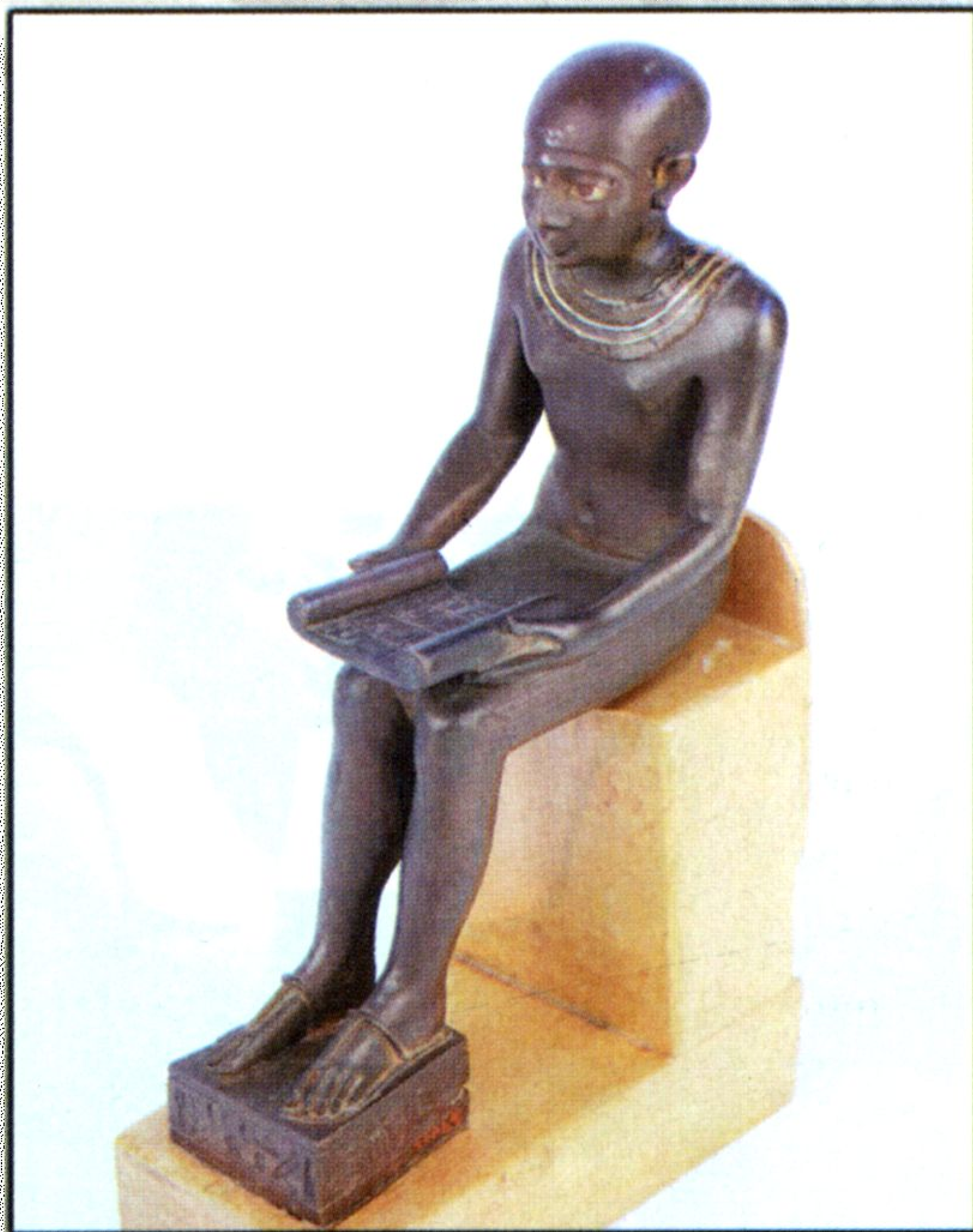
□□□

صور الكتاب





صورة (١) : لوحة الملك نارمر أو لوحة التوحيد بالمتحف المصرى .



صورة (٢) : تمثال صغير من البرونز لايمحتب ، المتحف المصرى .





صورة (٣ - ٤) : سواران من الذهب للملك رمسيس الثانى .
الأسرة التاسعة عشرة .



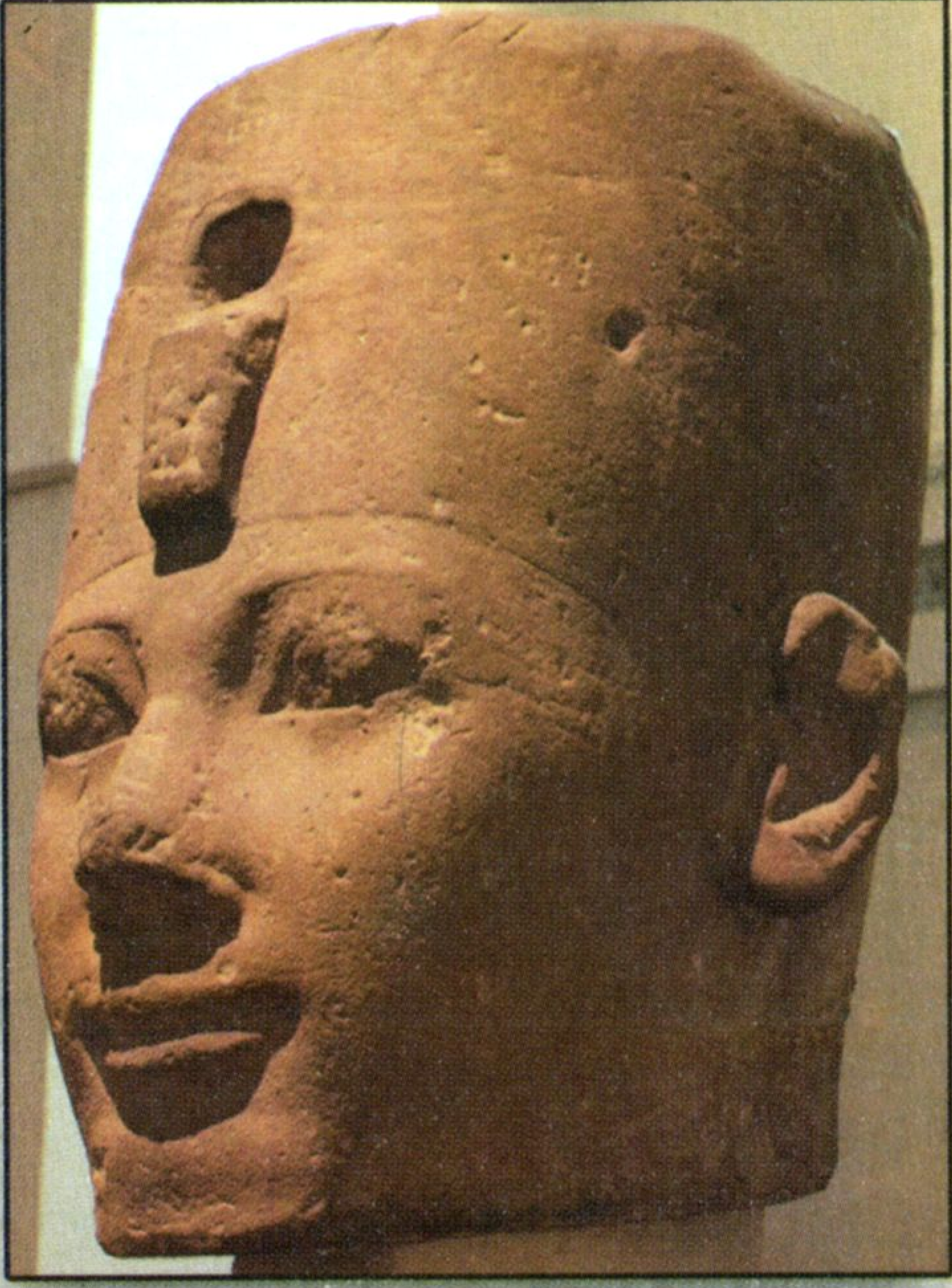
صورة (٥) : لوحة النصر لمرنبتاح المسماه بلوحة إسرائيل . جرانيت المتحف المصرى بالقاهرة .



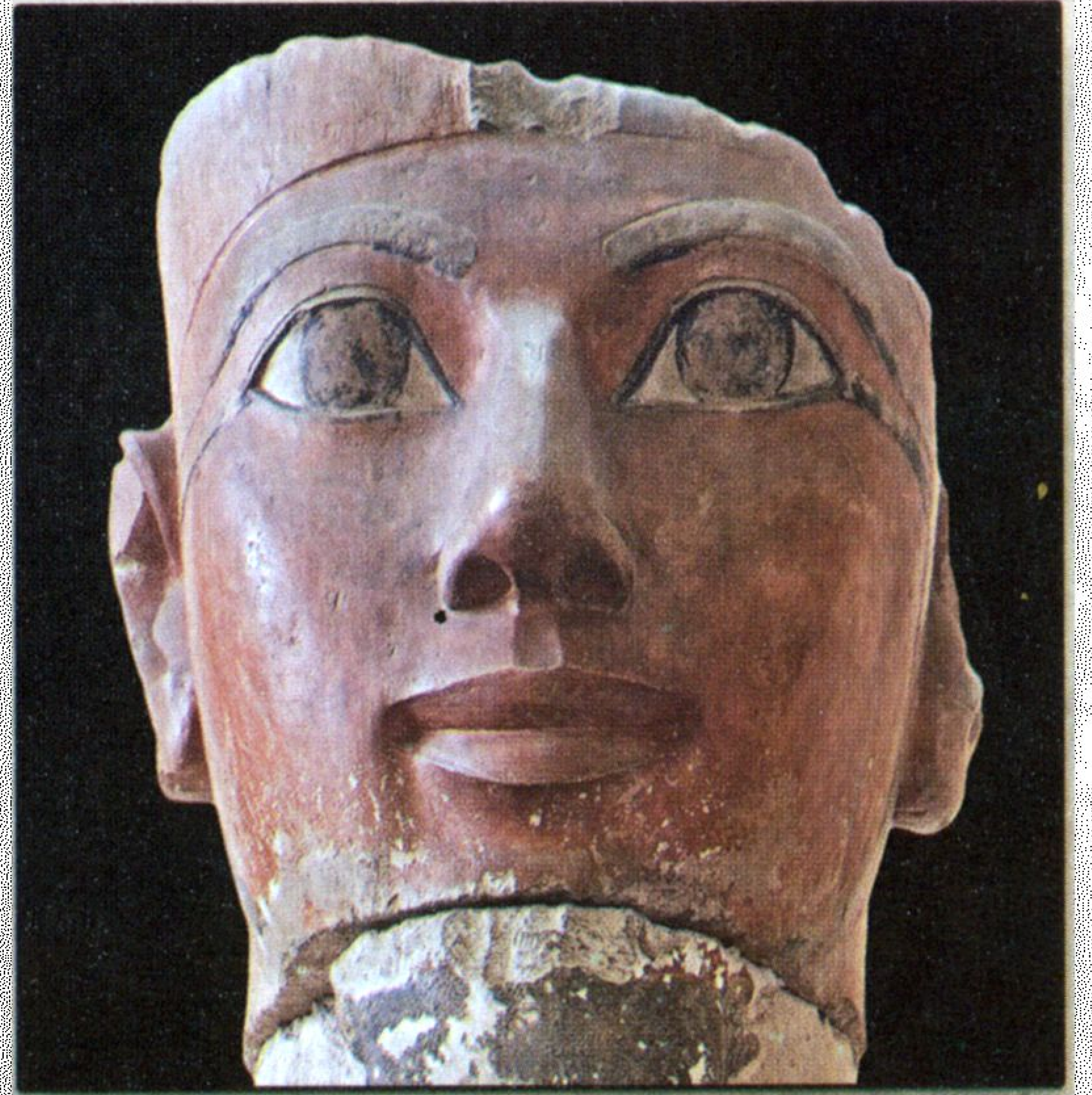
صورة (٦) : تمثال نصفى لمرنبتاح المتحف المصرى بالقاهرة .



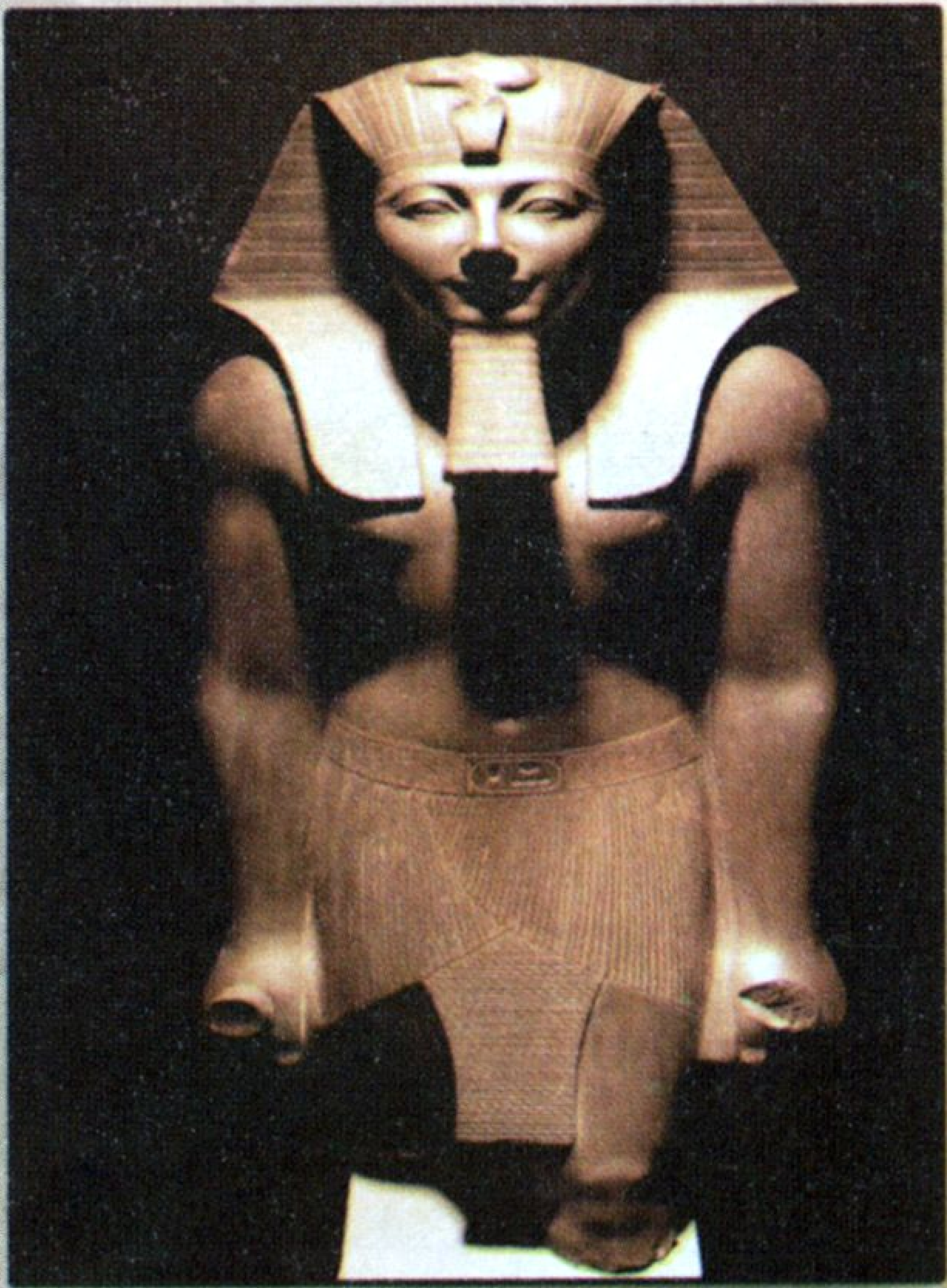
صورة (٧) : أحمس الأول . رأس من الحجر الجيرى . متحف المتروبوليتان بنيويورك .



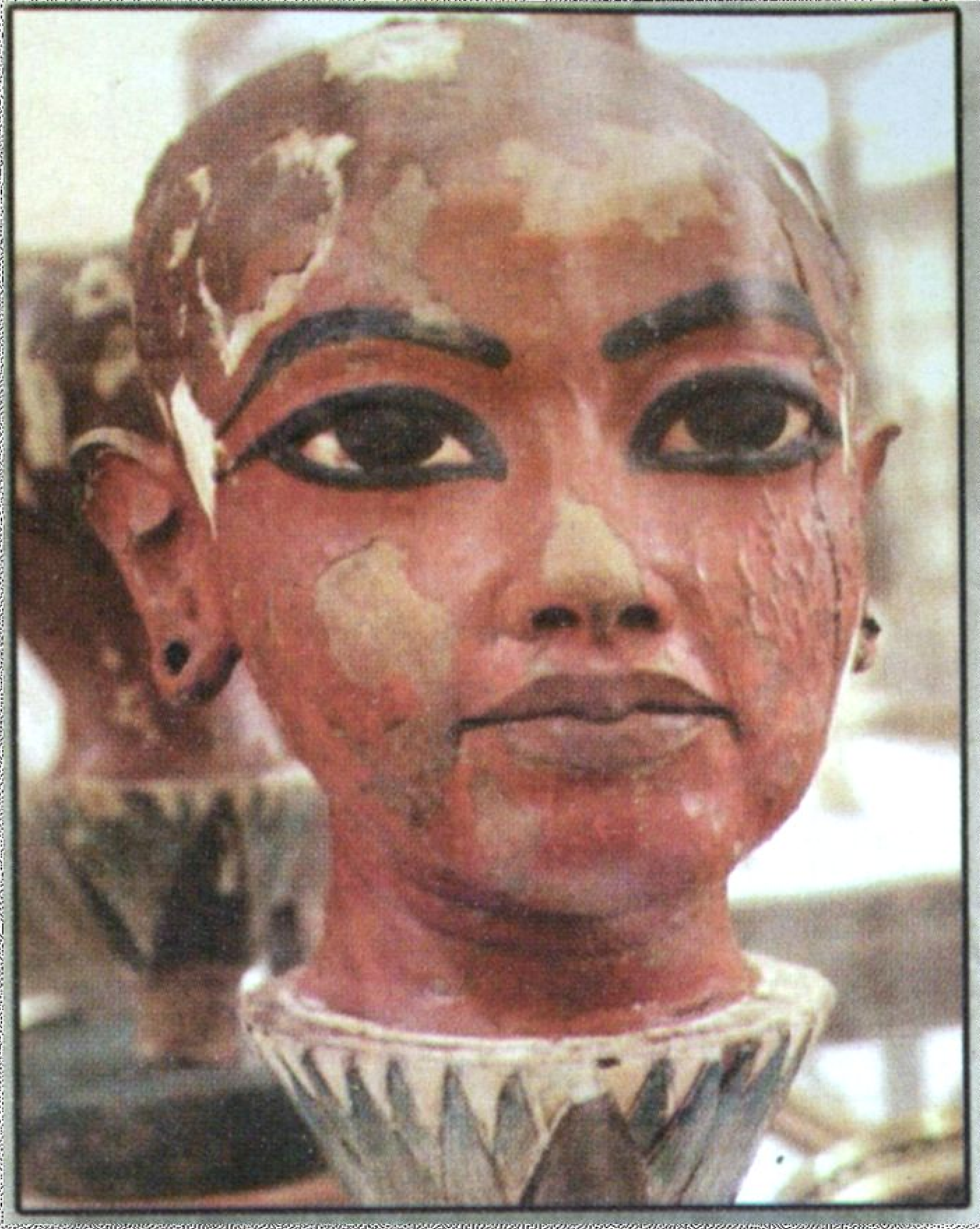
صورة (٨) : تحتمس الأول . رأس من الحجر الرملى . المتحف البريطانى بلندن .



صورة (٩) الملكة حتشبسوت . رأس من الحجر الجيرى الملون . المتحف المصرى بالقاهرة .



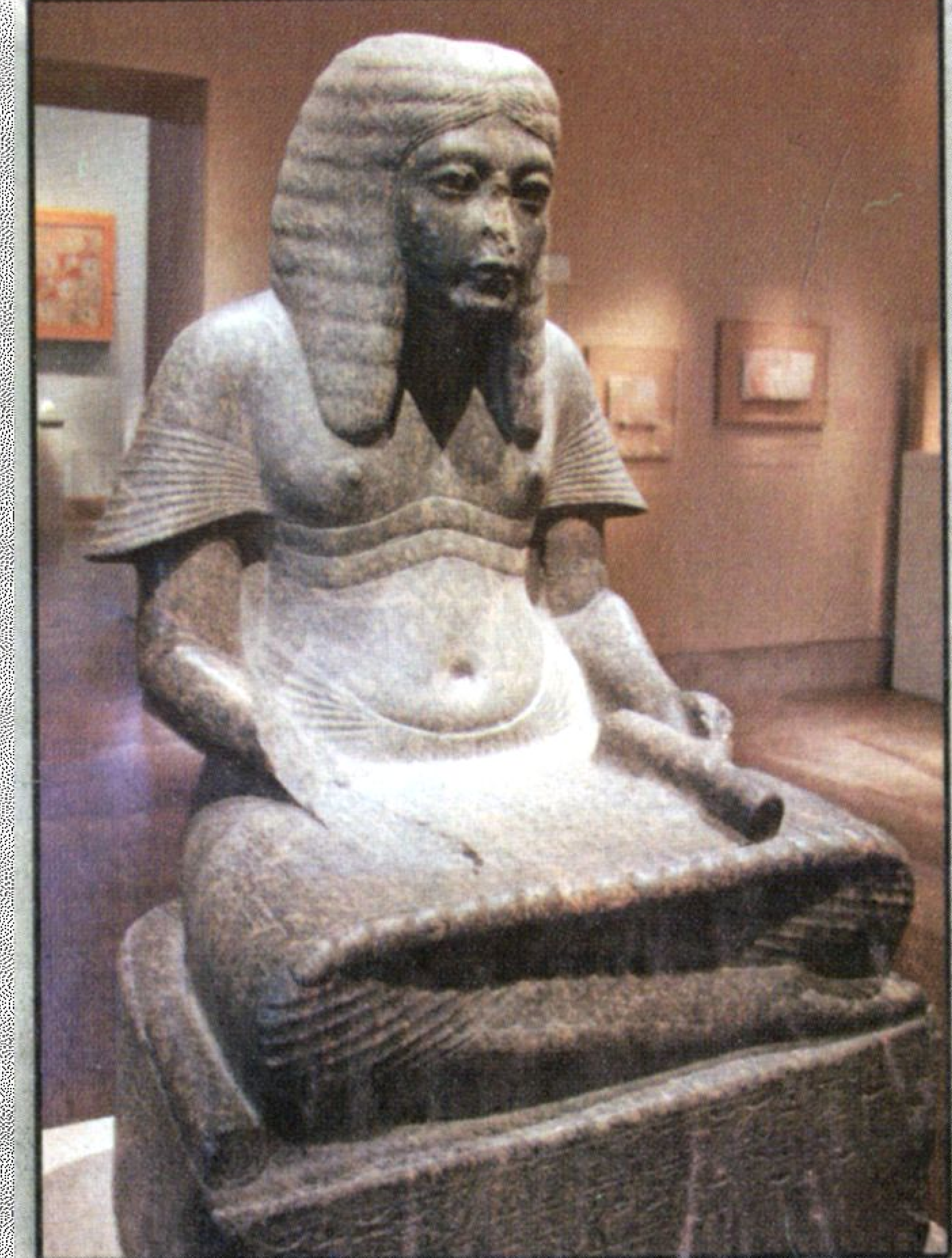
صورة (١٠) : تمثال لتحتمس الثالث . حجر جيرى . متحف الأقصر .



صورة (١١) : الملك توت عنخ آمون .
رأس من الخشب المكسو بالجسو
الملون . المتحف المصرى بالقاهرة .



صورة (١٢) : الملك أمنحتب
الرابع (إخناتون) . رأس من
الحجر الجيرى . متحف الأقصر .



صورة (١٣) : الملك حور محب .
تمثال من الجرانيت الأسود .
متحف المتروبوليتان بنيويورك .



صورة (١٤) : الملك رمسيس الأول . رأس
من حجر الجرانوديوريت . متحف الفنون
الجميلة ببوسطن . أمريكا .





صورة (١٥) : الملك رمسيس الثانى فى شبابه . تمثال من الدايوريت الأسود . المتحف المصرى فى تورينو بإيطاليا .



صورة (١٦) : الوزير (يويا) والد الملكة تى . قنـــاع من الكرتوناج المذهـب . المتحف المصرى بالقاهرة .



صورة (١٧) : الملك رمسيس الثانى فى صورة إله بين الآلهه الثلاثة الأكبر فى الإمبراطورية المصرية (بتاح) و (آمون رع) و (رع حور اختى) فى قدس الأقداس بمعبد أبى سمبل حيث تسقط عليهم أشعة الشمس مرتين فى العام فقط (فى ٢٠ فبراير و ٢٠ أكتوبر) .



صورة (١٨) : نقش على أعمدة معبد الكرنك معناه (كل الشعب يتعبد إلى رمسيس الثانى) .



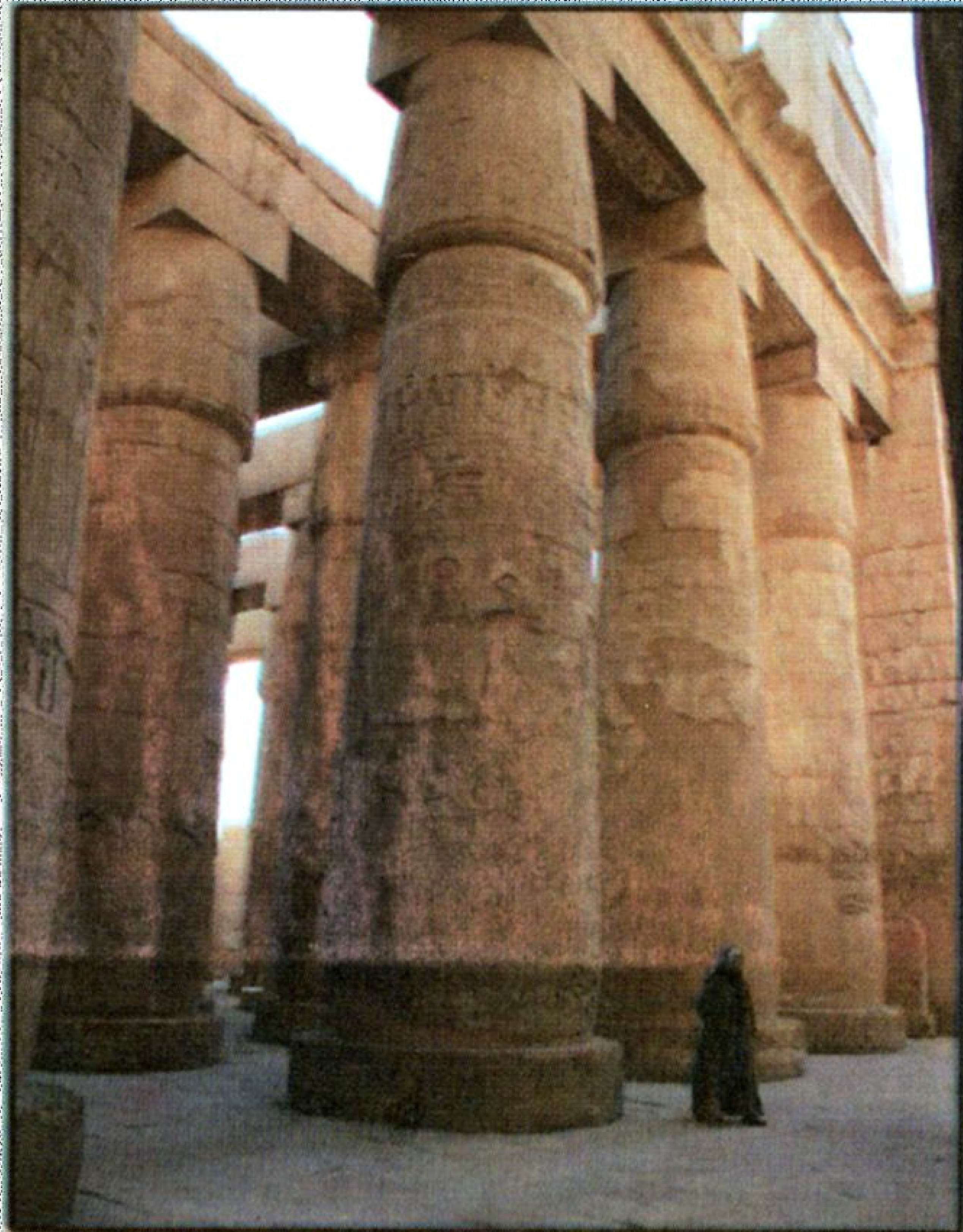
صورة (١٩) : رمسيس الثانى وقد وضع نفسه بين الإله (أمون) والإلهة (موت) فى ثالوث آلهة طيبة . جرانيت . المتحف المصرى فى تورينو بإيطاليا .

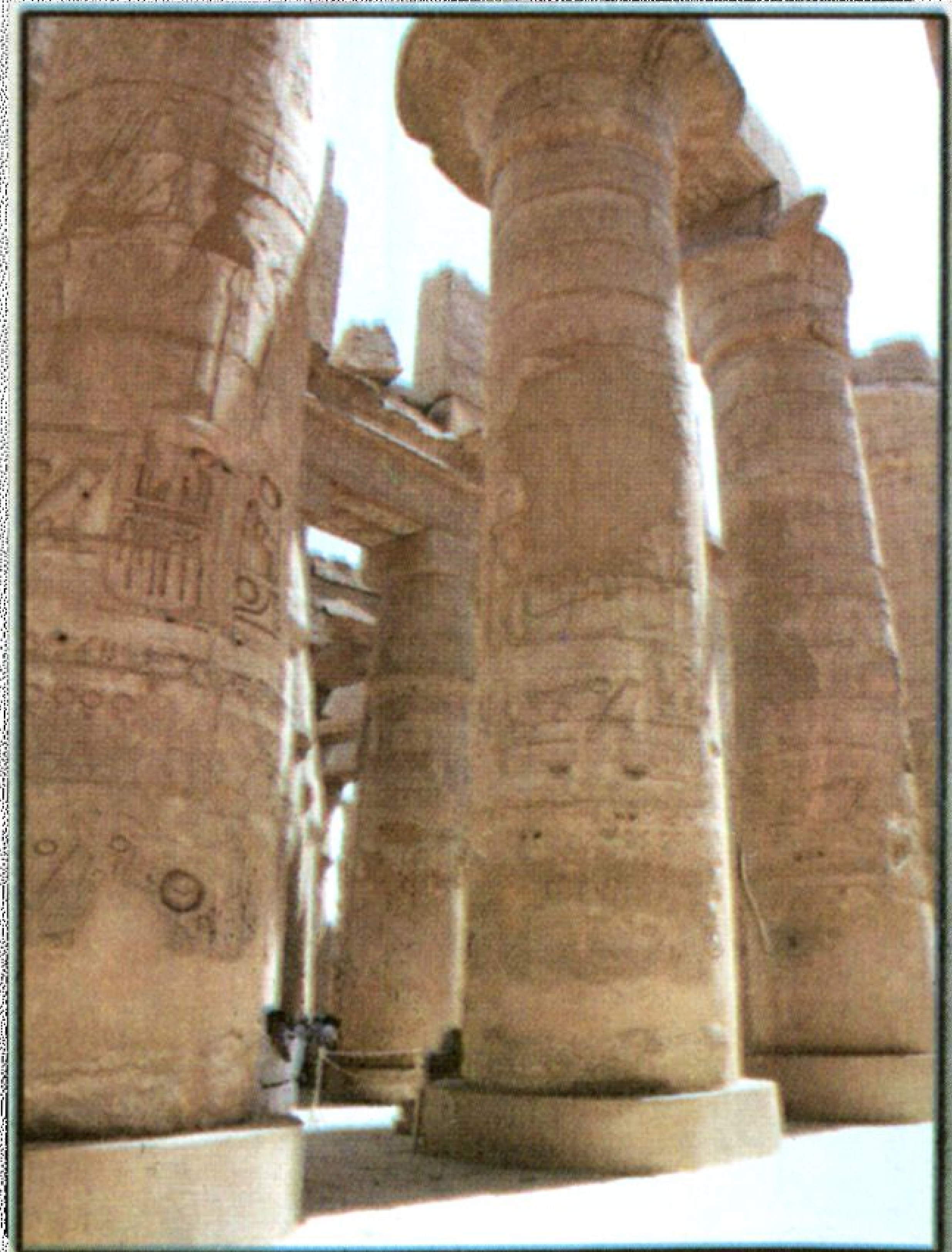


صورة (٢٠) : تمثال ضخم للملك رمسيس الثانى . حجر جيرى . ميت رهينة .



صورة (٢١) : رسم جدارى يصور رمسيس الثانى ممسكاً ببلطته ويأخذ بناصية الأسرى . المتحف المصرى بالقاهرة .

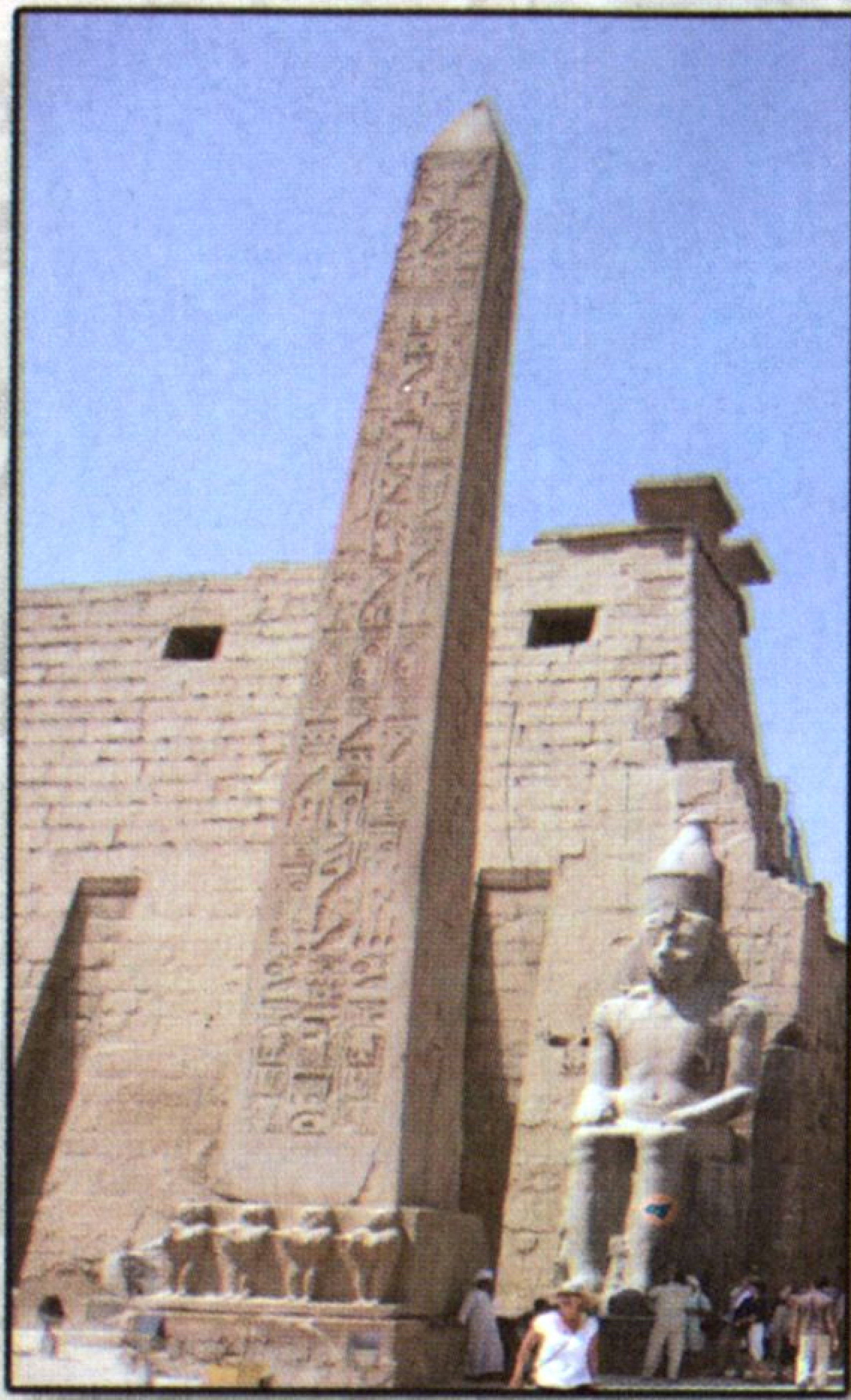




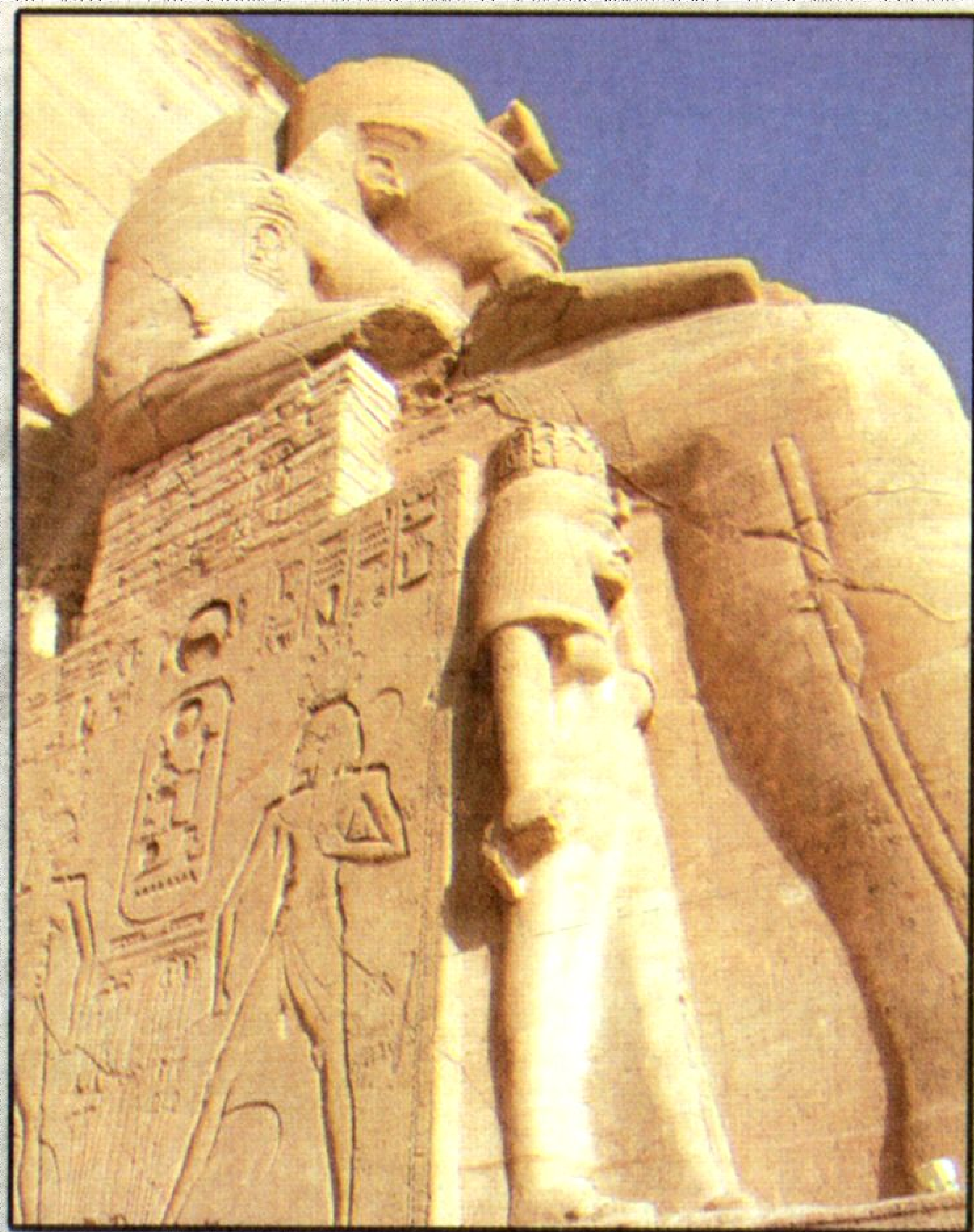
صورة (٢٢ ، ٢٣) : أعمدة شاهقة فى معبد الأقصر ، ومثيلتها فى معبد الكرنك .



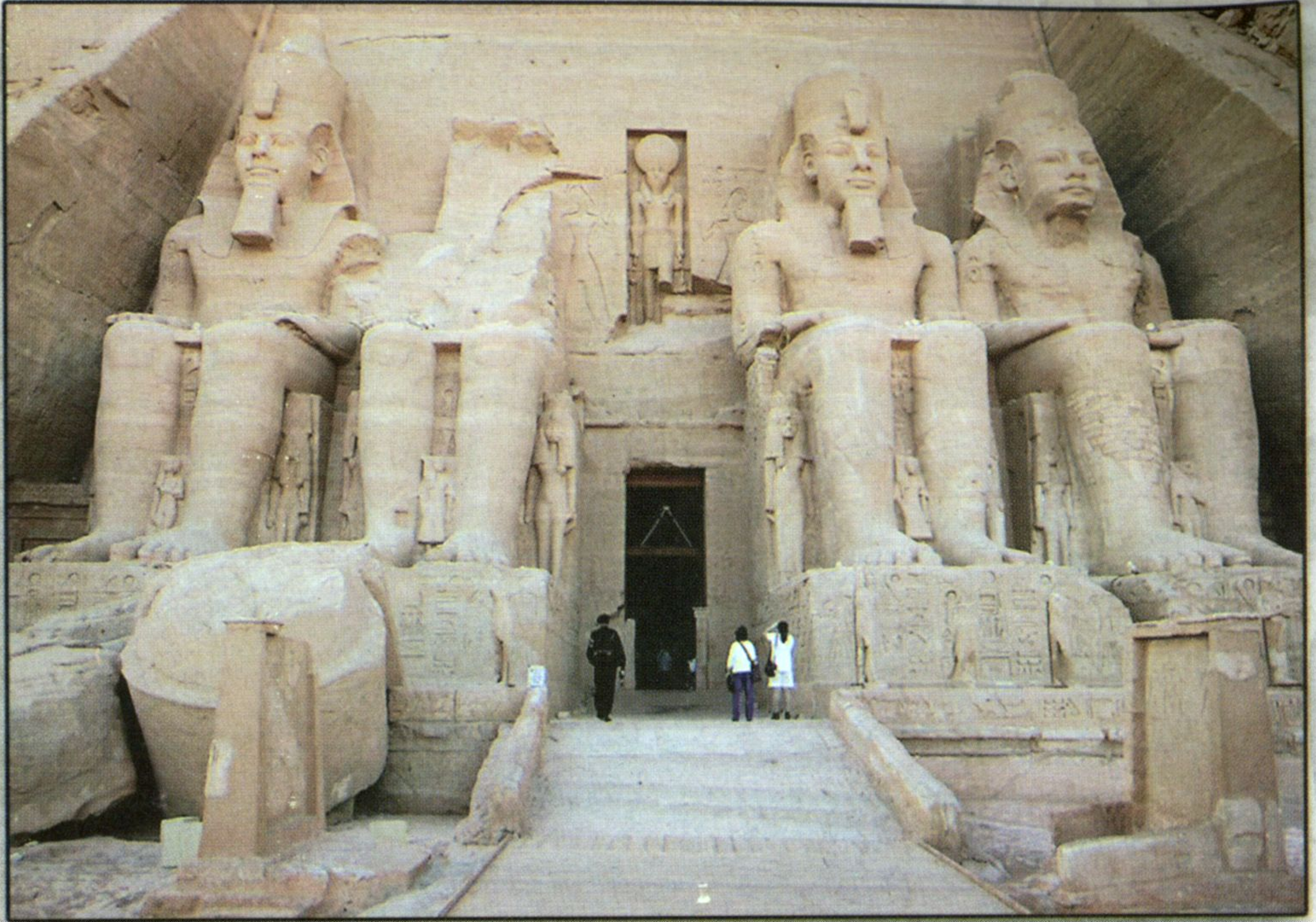
صورة (٢٤) : مسلة أقامها رمسيس الثانى فى الأقصـر وتم نقلها لتنصب فى أحد ميادين روما .



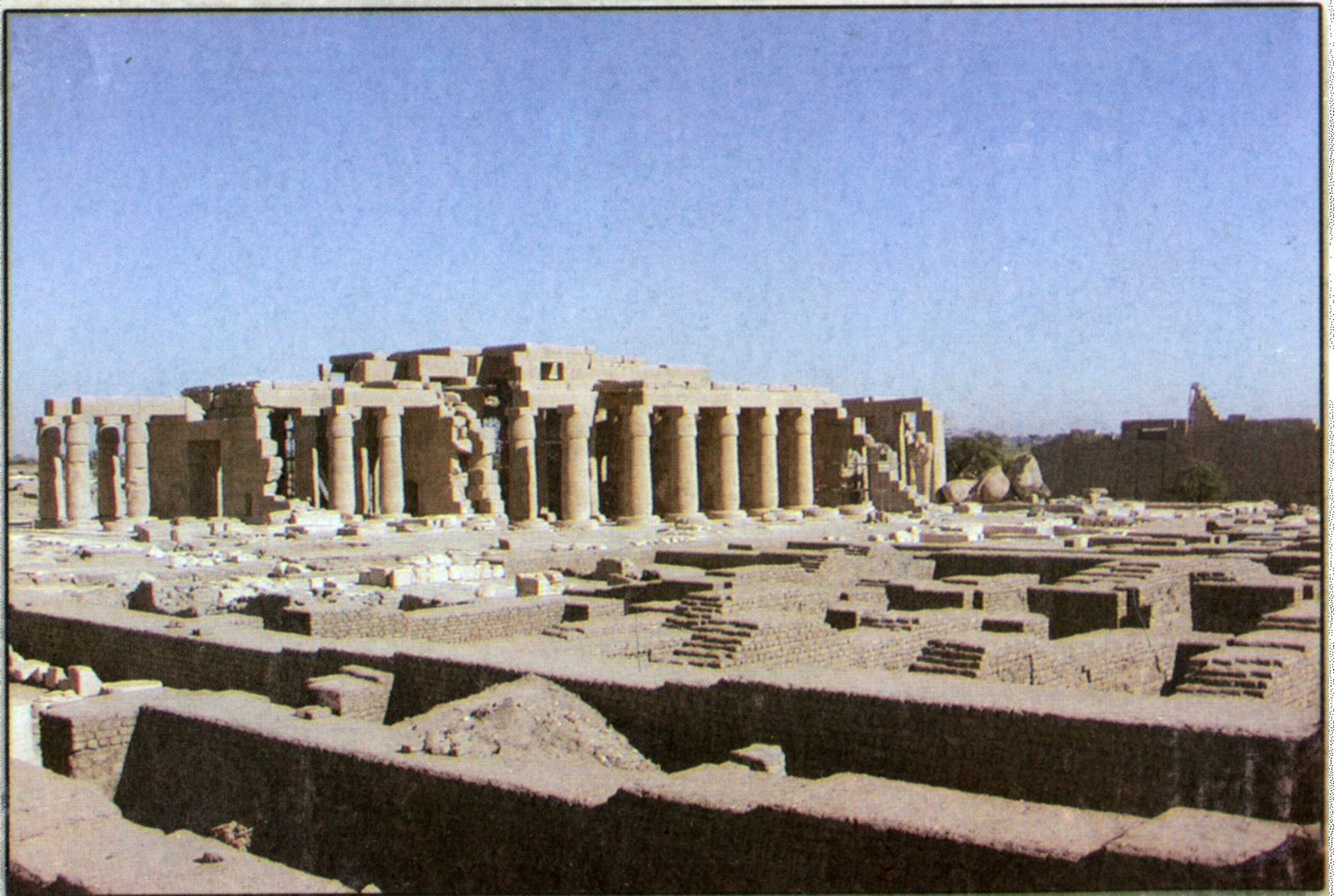
صورة (٢٥) المسلة الوحيدة لرمسيس الثانى المتبقية فى مصر أمام معبد الأقصر .



صورة (٢٦) : تمثال ضخم لرمسيس الثانى من تماثيل واجهة معبد أبى سمبل .



صورة (٢٧) : واجهة معبد أبى سمبل و يتضح فيها التمثال الذى تحطم أمام المعبد وبقى على حالته حتى اليوم .



صورة (٢٨) : بقايا معبد الرمسيوم الذى بناه رمسيس الثانى .



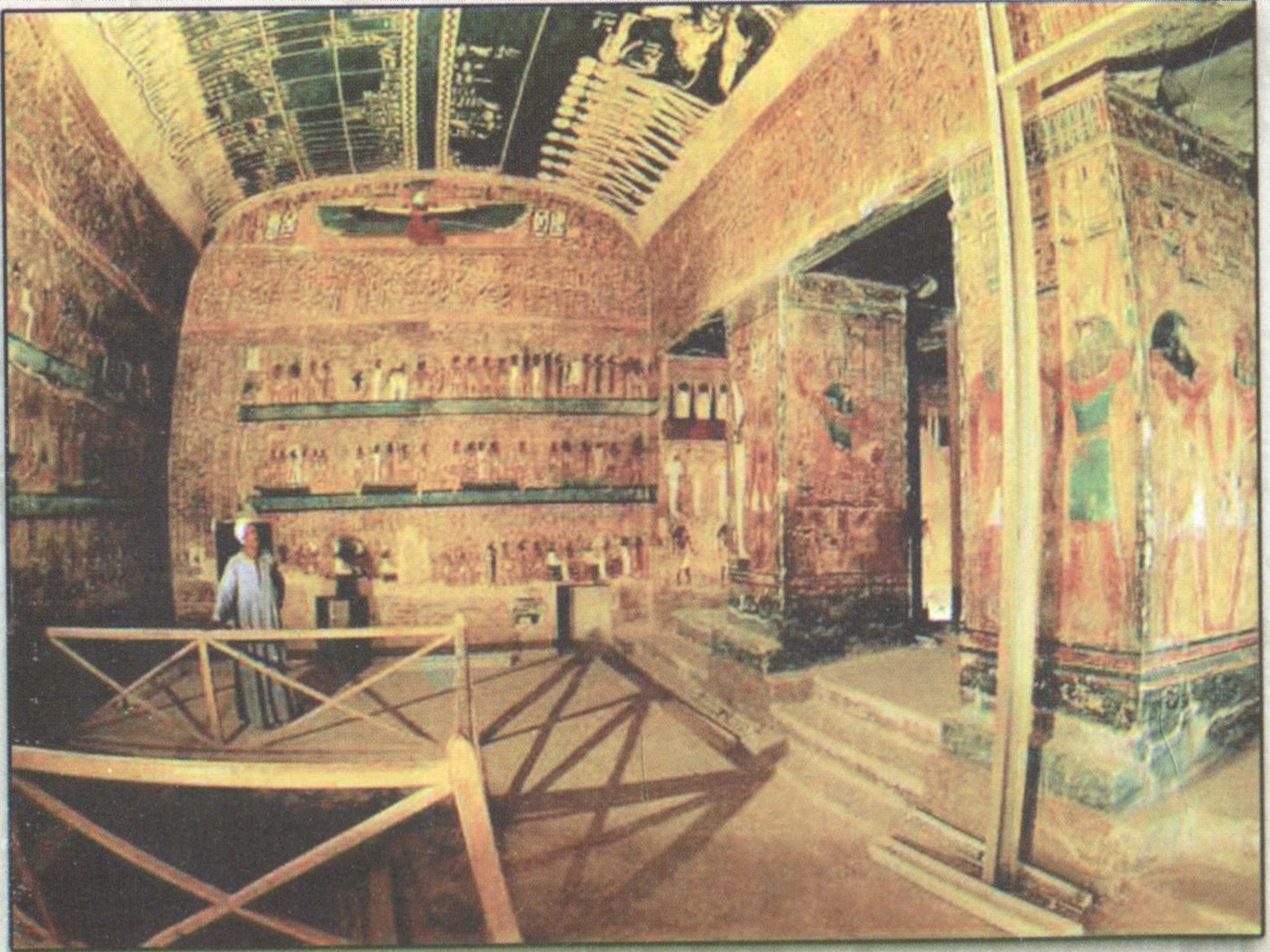
صورة (٢٩) : التمثال الضخم الذى كان مقامـاً فى نهاية الردهة الأولى فى معبد الرمسيوم وقد سقط على وجهه .



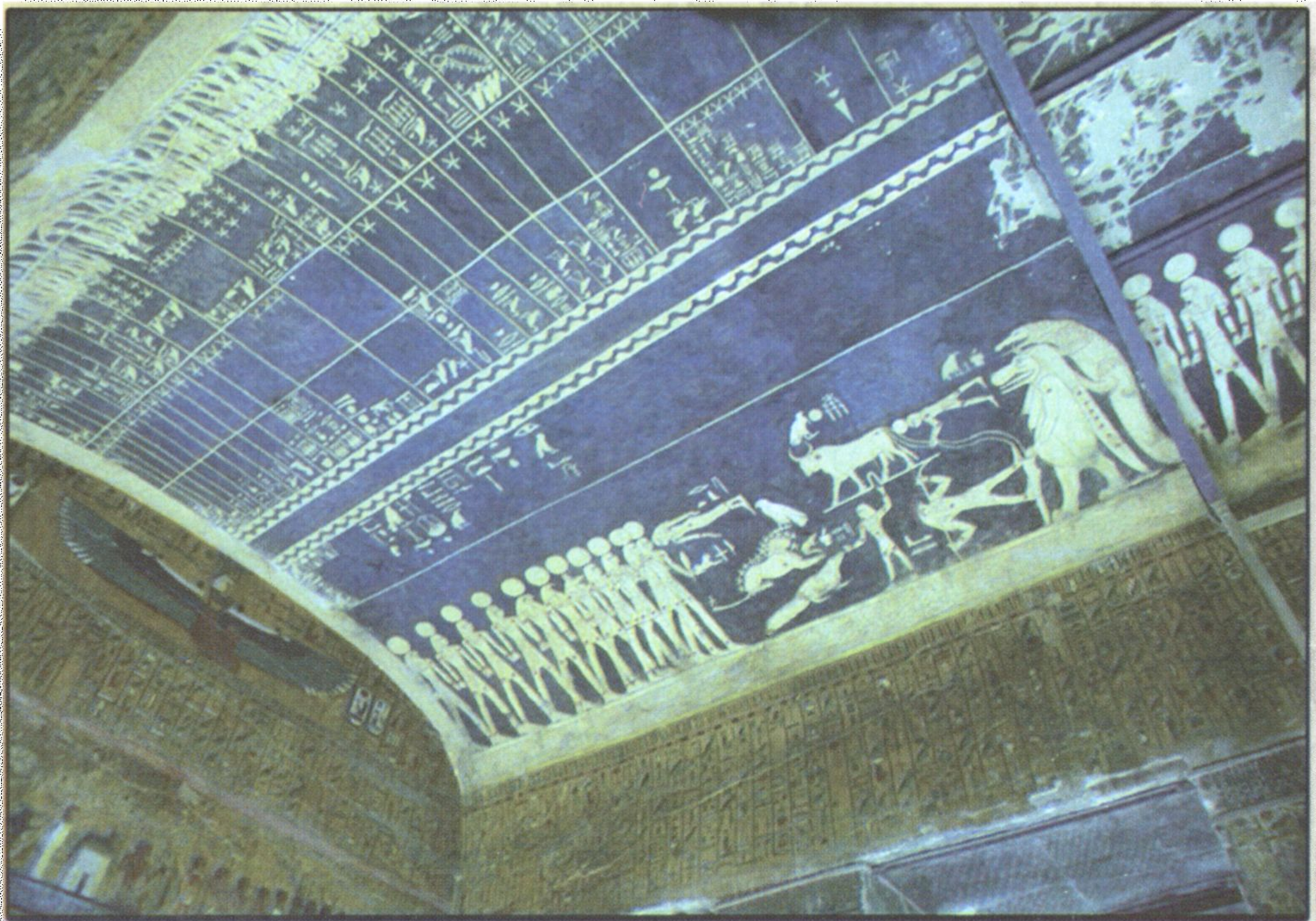
صورة (٣٠) : تمثال رمسيس الثانى المحطم بجانب . معبد الأقصر .



صورة (٣١) : أربعة من التماثيل لرمسيس الثانـــى التى كانت مقامة فى الردهة الثانية لمعبد الأقصر وقد سقطت رؤوسها .



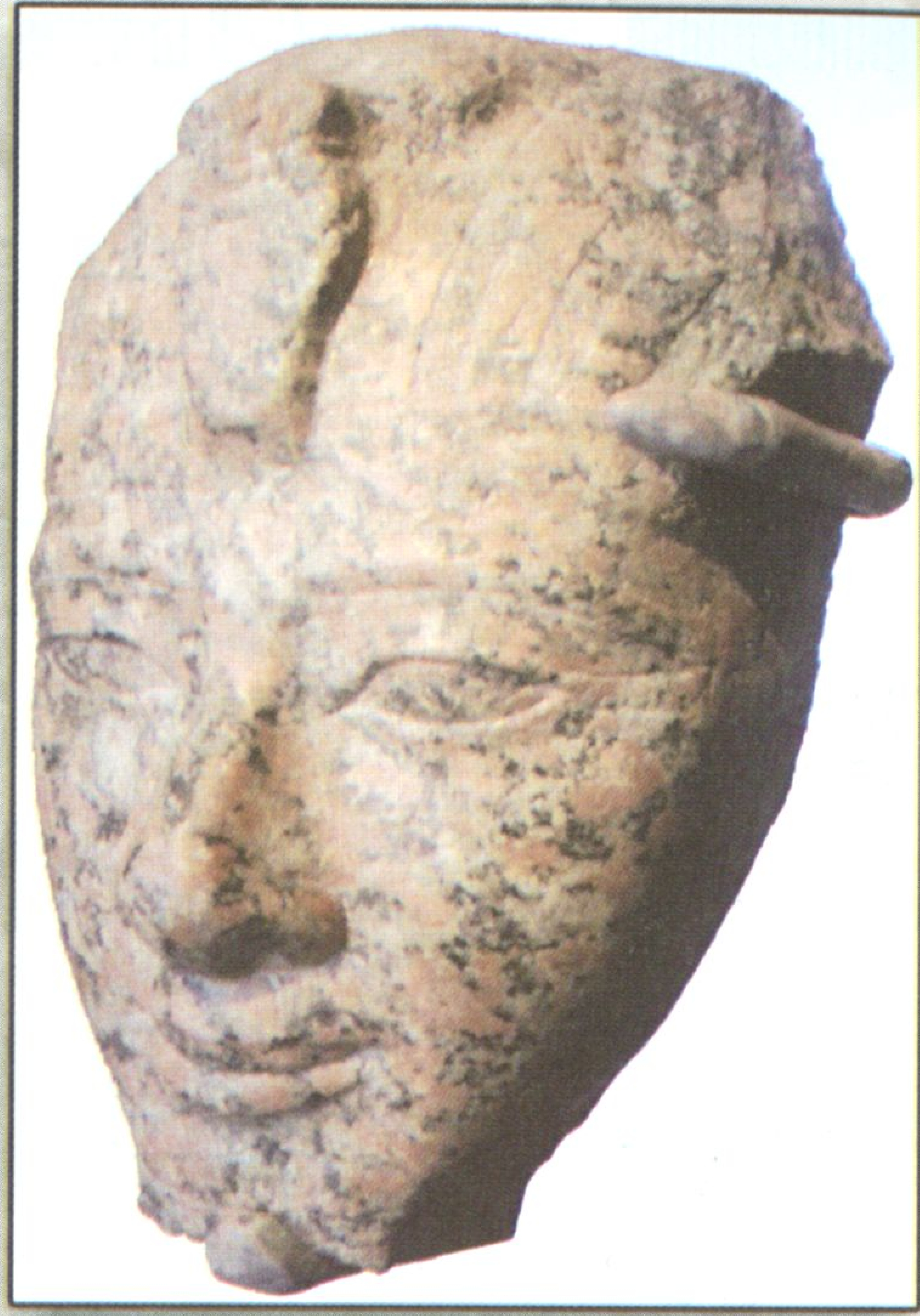
صورة (٣٢) : جانب من مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك بالبر الغربى بالأقصر .



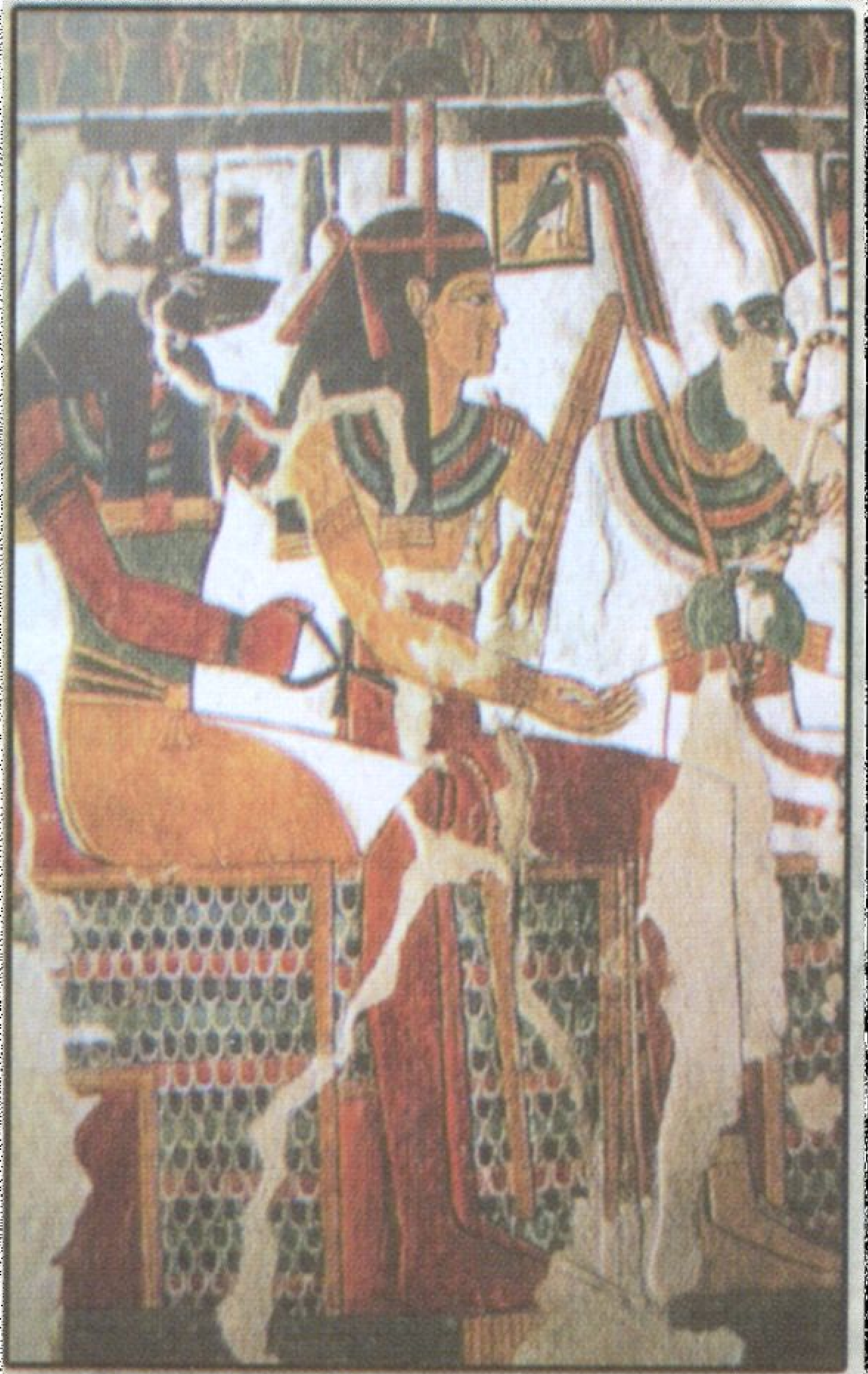
صورة (٣٣) : نقش ملون من مقبرة سيتى الأول بالبر الغربى بالأقصر



صورة (٣٤) : رسم جدارى ملون لسيتى الأول مع الإلهة حتحور .

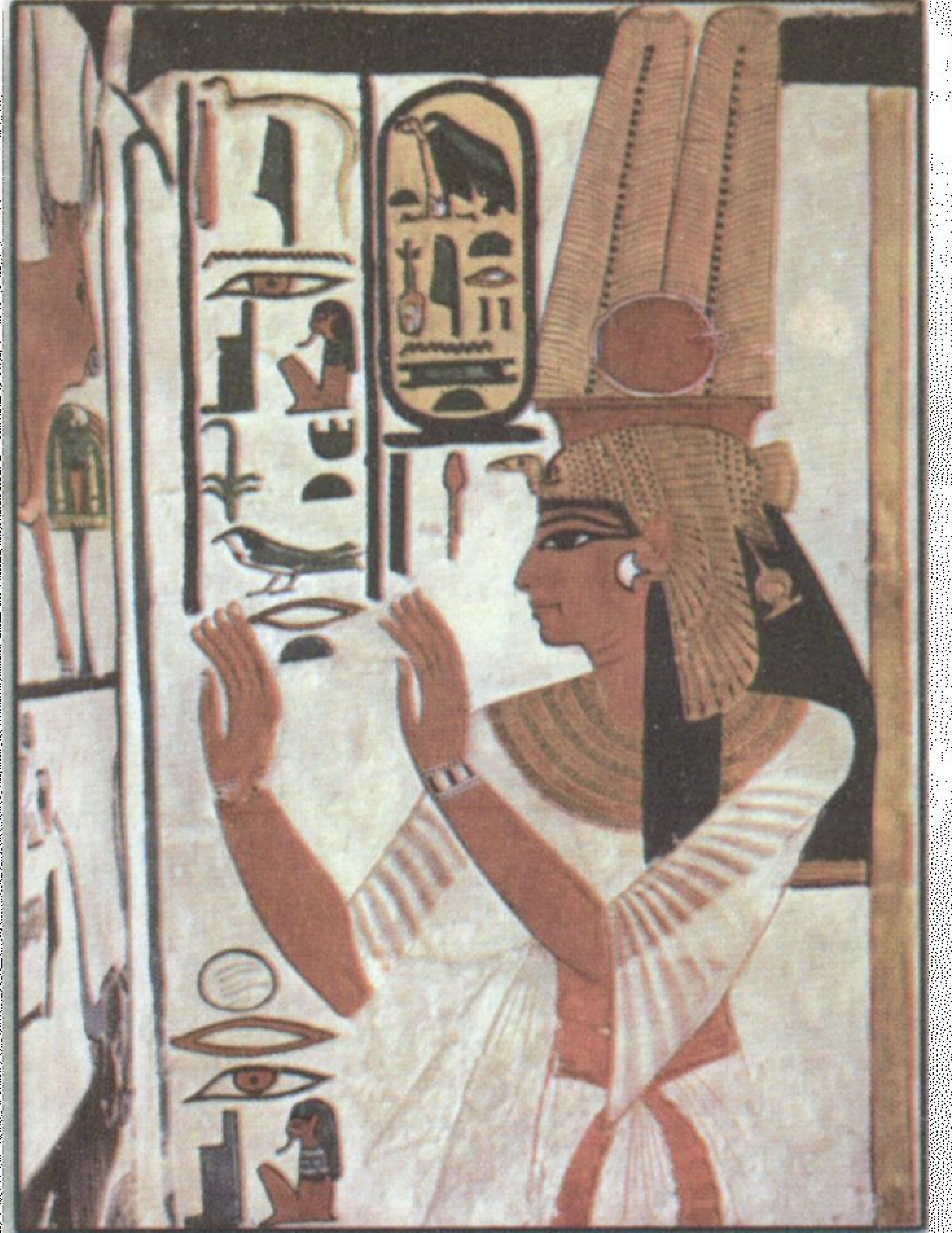


صورة (٣٥) : الملك أمنحتب الثانى . رأس من الجرانيت الوردى .
متحف بروكلين بالولايات المتحدة الأمريكية .





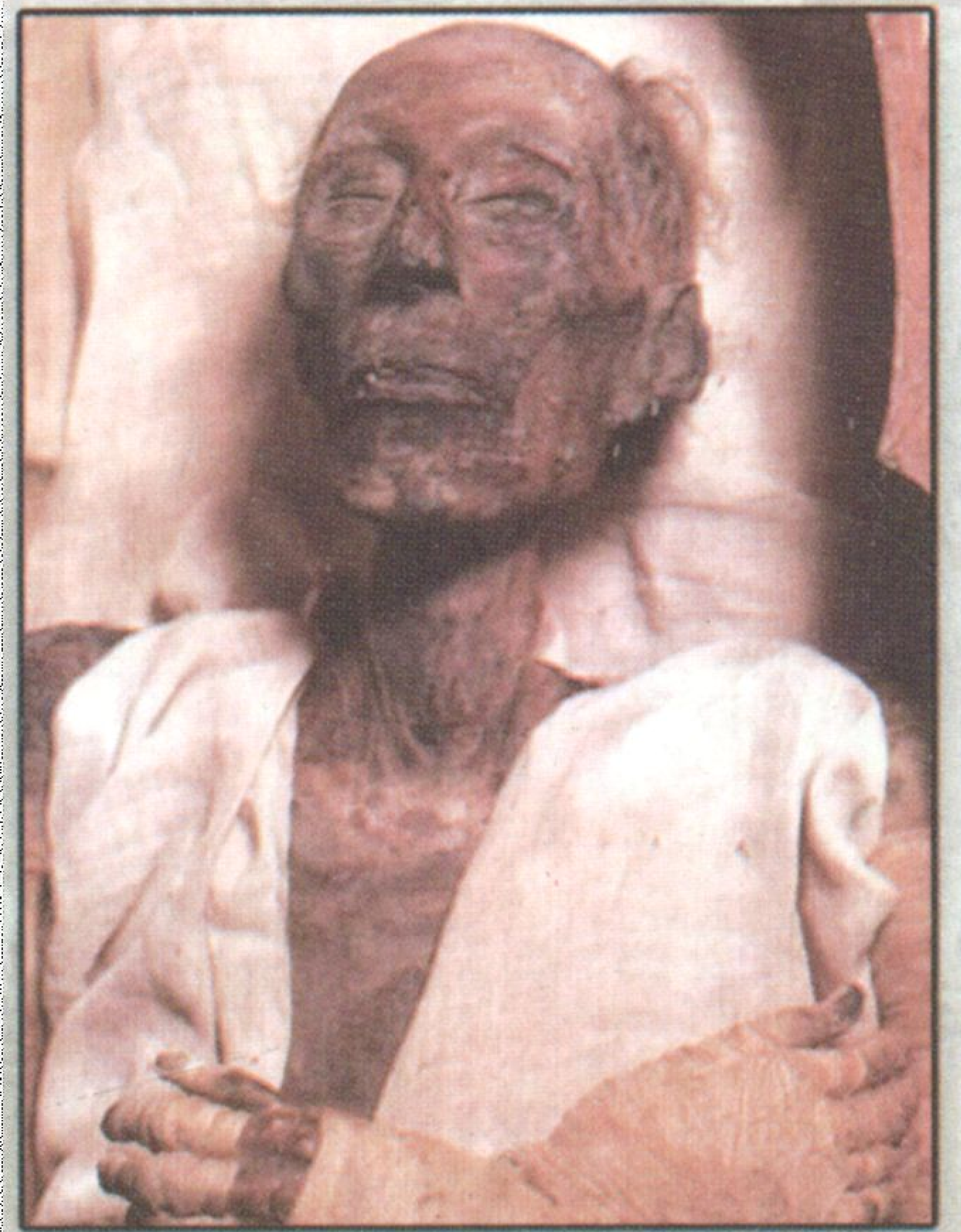
صورة (٣٦ ، ٣٧) : نقوش جدارية ملونة من مقبرة نفرتارى بالبر الغربى بالأقصر .



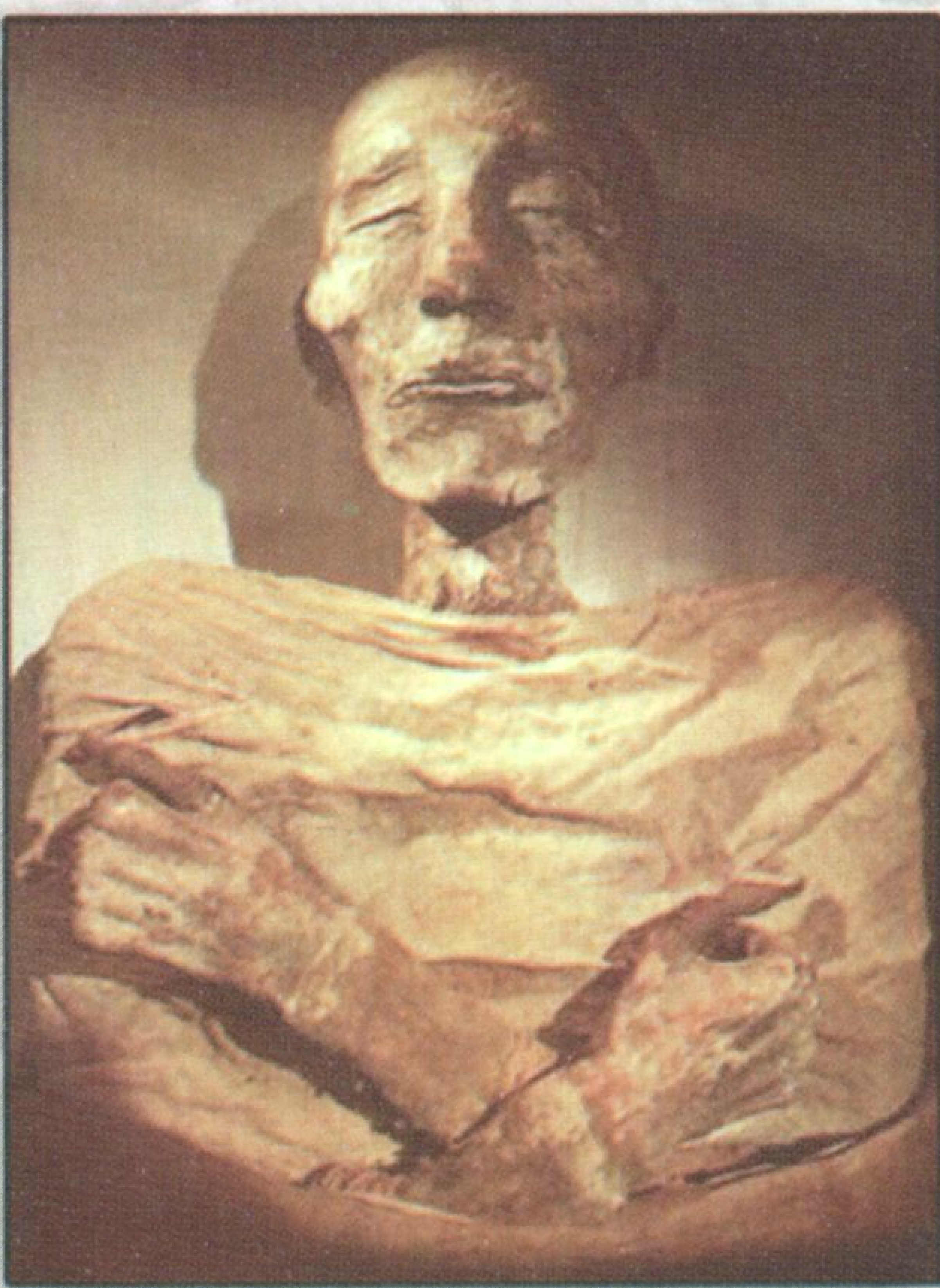
صورة (٣٨) : نقش جدارى من مقبرة نفرتارى بالبر الغربى بالأقصر .



صورة (٣٩) : سيتى الأول . تمثال من الحجر الرملى . المتحف البريطانى بلندن .



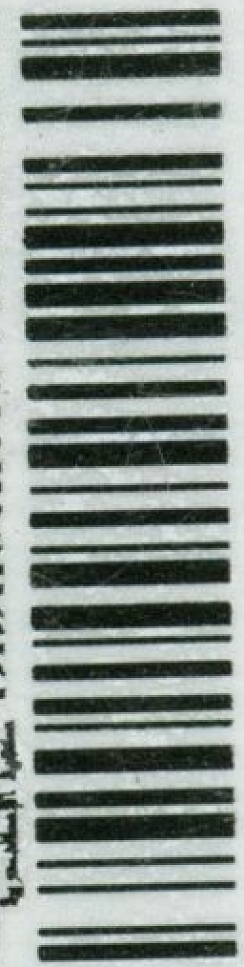
صورة (٤٠) : مومياء رمسيس الثانى بقاعة المومياوات بالمتحف المصرى بالقاهرة .



صورة (٤١) : مومياء الملك مرنبتاح ابن رمسيس الثانى . قاعة المومياوات بالمتحف المصرى بالقاهرة .

هذا الكتاب محاولة للبحث عن أصل "الفرعون" وماهية "الفرعونية" اللقب والفكر، وإزالة اللبس المصاحب لها فى أذهان البعض، وذلك من خلال دراسة اللفظ وأصوله والتربة التى نمت فيها والظروف التى مكنت لها من أن تتصف بما اتصفت به من صفات الذم واللعنة.

كما يدرس الكتاب الفرعون ومكانته فى مصر القديمة وقدسيته وكيف نسب نفسه إلى الآلهة فصار ابناً لها وكيف أُلِّهَ بعد موته، كما يتناول ذلك الفرعون الذى تنسب إليه هذه الفرعونية الملعونة ونعنى به فرعون موسى عليه السلام، والفروض التى تحاول تحديد كنه هذا الفرعون وهويته، معتمدين فى ذلك على ما أورده القرآن الكريم، ومحاولة البحث فيما أورده العهد القديم، ثم ما أفصحت عنه خبايا الأرض وماخلفه لنا التاريخ من وثائق مادية وأثرية، وذلك محاولة للوصول إلى حقيقة ما، وحتى لا نقع فى شرك المفهوم الجائر والتعميم الجامح.





دار المعارف

٠٣٦٠٥٨/٠١

